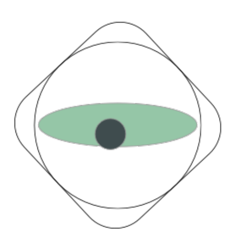
الأعمال الكاملة لابن المقفع

إصلاح محمد وائل الكردي

difyel.com



ابن المقفع

عبد الله بن المقفع، كاتب عربي مسلم، كان فاضلاً، ألفاظه حكيمة، ومقاصده من الخلل، سليمة، ولد ونشأ، في البصرة، في العراق.

١ - والده

المُقَفَّع، أو المُقفِّع، والقَفْعُ، هو ضربٌ من الخَشَب، يَمْشي الرجال تحته، إلى الحُصُونِ، في الحَرْب. معجم العين، الخليل بن أحمد الفراهيدي (100 هـ - 173 هـ).

قال ابن النديم (320هـ - 384هـ)، في كتاب، الفهرست، أن والد، ابن المُقَفَّع، احتجن (ضمه إلى نفسه واحتواه) من مال السلطان، فضربه الحجاج بن يوسف (40 هـ - 95 هـ)، بالبصرة، ضرباً مبرحاً، حتى تقفعت يداه، فتَقَفَّعَ (تقفَّعَتْ أصابِعُه: تقلَّصت، واعوجَّت).

وقال ابن خلكان (608 هـ - 681 هـ)، في كتاب، وفيات الأعيان، أن والد ابن المُقَفَّع، مد يده، وأخذ الأموال، فعذبه، يوسف بن عمر الثقفي (65 هـ - 127 هـ)، وليس الحجاج بن يوسف. وقال، يقولون ابن المُقفِّع، بكسر الفاء، لأن أباه، كان يعمل القِفاع، ويبيعها، والقِفاع، بكسر القاف، جمع قَفعة،

بفتح القاف. والقَفْعَة: قُفَّة (وعاءٌ) من خُوصٍ (ورَقُ النَّخْلِ والمُقْل والنَّارَجِيل وما شاكَلَها) لا مقبضَ لها.

وقال الجاحظ (159 هـ - 255 هـ)، في البيان والتبين، أن عبد الله بن المقفع (نفسه)، فإن صاحب الاستخراج (الاستخراج: المطالبة بالأموال، ممن اتُّهم، باختلاس مال الدولة)، لما ألح عليه، في العذاب، قال لصاحب الإستخراج: أعندك مال، وأنا أربحك، ربحا، ترضاه، وقد عرفت، وفائي وسخائي، وكتماني للسر، فعيني، مقدار هذا النجم (القسط من الدين). فأجابه إلى ذلك، فلما صار له مال، ترفق به، مخافة أن يموت تحت العذاب، فيتوى (يهلك) ماله.

وقال ابن قتيبة (213 هـ - 276 هـ)، في عيون الأخبار، المدائني (132 هـ - 225 هـ) قال: كان ابن المقفع (نفسه)، محبوسا في خراج، كان عليه، وكان يعذّب، فما طال ذلك، وخشي على نفسه، تعيّن من صاحب العذاب، مائة ألف درهم، فكان بعد ذلك، يرفق به، إبقاء على ماله.

وقال البلاذري (207 هـ - 279 هـ)، في كتاب أنساب الأشراف، أن والد ابن المُقفَّع، دَخَلَ فِي عمل للحجاج، فخرج عَلَيْهِ مال، فضرب بِهِ، حَتَّى تقفعت يده، فغلب عَلَى اسمه المقفع، واحتال، حَتَّى اقترض من صاحب العذاب، مالًا، فكان يُبقي عَلَيْهِ، من القتل.

وفي، كتاب مرآة الزمان في تواريخ الأعيان، لسبط ابن الجوزي (581 هـ - 654 هـ)، قال: لما بلغ ابن الزبير (1 هـ - 73 هـ)، هلاكُ يزيد (64 هـ)، وأهلُ الشام لا يعلمون، وقد حصروه حصارًا شديدًا، وضيَّقوا عليه، نادى: يا أهل الشام، علام تقاتلونا، وقد هلك طاغيتكم؟ فلم يصدِّقوه، حتى قدم، ثابت بن قيس بن المقفع النَّخَعي الكوفي، فمرَّ بالحُصين، وكان بينهما صداقة وصهر، فأخبره.

إذن، كان هنالك، في القرن الأول الهجري، مُقَفَّع، نخعي كوفي، والنُخَع، قبيلة عربية، أصلها من اليمن، والكوفة، مدينة عربية، أسسها، سعد بن

أبي وقاص.

٢ - المولد، أخذه الفصاحة، الكاتب

لا تعرف سنة ولادة ابن المقفع، وقد عاش في الدولتين الاموية (41هـ - 132هـ) والعباسية (132هـ -).

قال ابن النديم، في كتاب، الفهرست، أنه أخذ الفصاحة، عن أبو الجاموس، ثور بن يزيد، وهو أعرابي، كان يفد البصرة، على آل سليمان بن علي (سليمان بن علي بن عبد الله بن العباس الهاشمي، 83 هـ - 142 هـ)، ولا مصنف له.

وقال البلاذري، أنه تلقى تأديبه، من أَبَا الغول الأعرابي، وأبا الخاموش، وكانا فصيحين.

وفي ظلّ الدولة الأموية، قال الجَهْشَيَاري (؟ - 331 هـ)، في كتاب، الوزراء والكتاب، أنه كتب، لعمر بن هبيرة (؟ - 107 هـ)، وقال ابن النديم، أنه كتب، لداود بن هبيرة، أخ، عمر بن هبيرة، وقال البلاذري، في كتاب، أنساب الأشراف، أنه كتب، لعامر بْن ضبارة (؟ - 131هـ).

ثُمَّ، لما جاءت الدولة العباسية، صحب، بَنِي علي بن عبد الله بن عباس، فكتب، لعيسى بن علي بن عبد الله بن عباس، كما ذكر ابن خلكان، في كتاب، وفيات الأعيان.

وقال ابن أبي أصيبعة (600 هـ - 668 هـ)، في كتاب، عيون الأنباء في طبقات الأطباء، أنه كان كاتب، أبي جَعْفَر الْمَنْصُور.

وفي كتاب، طبقات الشعراء، لعبد الله بن المعتز بالله (247 هـ - 296 هـ)، قال أنه دخل أبو الغول، على هارون الرشيد (149 هـ - 193 هـ)، فأنشده مديحاً له.

قال الرشيد: يا أبا الغول.

قال أبو الغول: لبيك يا مولانا، أمير المؤمنين.

قال الرشيد: إن في أنفسنا، من شعرك شيئاً، فلو كشفته بشيء، تقوله، على البديهة؟

قال أبو الغول: والله، ما أنصفتني، يا أمير المؤمنين.

قال الرشيد: ولم؟ وإنما هذا، امتحان.

قال أبو الغول: لأنك، جمعت، هيبة الخلافة، وجلالة الملك، وحيرة الاقتضاب، على أني، أرجو أن أبلغ من ذلك، ما تريد.

فإذا، الأمين، قائم عن يمنه، والمأمون، عن يساره، فأنشأ يقول:

بُنِيَت، لعبد الله، بعد محمد
ذرا (أبدع)، قُبّة (بناءٌ مستديرٌ، مقوّس، مجوّف، يُعقَدُ بالآجُرّ، ونحوه)
الإسلام، فاخضر عودها
هما طُنباها (عِرق، عَصَب)، بارك الله، فيهما
وأنت، أمير المؤمنين، عمودها

قال الرشيد: وأنت، بارك الله فيك، أحسنت، وأجدت.

قال أبو الغول: يا أمير المؤمنين، امتحني بما شئت، ليزول ما بقلبك، من الريبة والشك، في شعري.

قال الرشيد: لا حاجة بنا، إلى ذلك، أنت شاعر، مقتدر، والذي قيل فيك، باطل.

ثم وصله، بعشرة آلاف درهم، وخلع عليه.

وقد قال ابن خلكان، في كتاب وفيات الأعيان، أن ابن المقفع، مع فضله، كان يتهم بالزندقة، كما ذكره، أبو المعالي الجويني (419هـ - 478هـ)، من أنه، كان يجتمع، بالحلاج والجنابي، وقال ابن خلكان، لما وقف على كلام الجويني، لم يمكن، أن يكون، ابن المقفع، أحد الثلاثة المذكورين، فما أدرك الحلاج والجنابي، وايضاً، فإن ابن المقفع، لم يفارق العراق، فكيف يقول الجويني، إنه توغل في بلاد الترك، وإنما كان مقيماً بالبصرة، ويتردد في بلاد العراق، ولم تكن بغداد، موجودة، في زمنه.

وقال الماوردي (364هـ - 450هـ)، في كتاب التفسير، واسمه، كتاب النكت والعيون: حُكي، أن ابن المقفع، طلب أن يعارض القرآن، فنظم كلاما، وجعله مفصلا، وسماه سورا، فاجتاز يوما، بصبي، يقرأ في مكتب: {وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاءُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ ۖ وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ} فرجع، ومحا ما عمل، وقال: أشهد، أن هذا، لا يُعارض أبدا، وما هو، من كلام البشر، وكان فصيح أهل عصره.

وقال الهيثم ابن عدي (130هـ - 207هـ)، الذي قال أبو داود عنه، أنه كذاب، والبخاري وصفه، بقوله: سكتوا عنه، وهو، أن الراوي، شديد الضعف، ولا يصلح حتى للاعتبار، وقال عنه النسائي، أنه متروك الحديث، قال، أن ابن المقفع، كان مجوسياً، وكان أكْثَر ميله، إلى عِيسَى بْن عَلِي بن عبد الله بن عباس، عم السفاح والمنصور، الخليفتين الأولين، من خلفاء بني العباس، فجائه، فقال: قد دخل الإسلام في قلبي، وأريد، أن أسلم على يدك.

قال عيسى: ليكن ذلك، بمحضر من القواد، ووجوه الناس، فإذا كان الغد، فاحضر.

ثم حضر طعام عيسى، عشية ذلك اليوم، فجلس ابن المقفع، يأكل ويزمزم، على عادة المجوس، فقال له عيسى: أتزمزم، وأنت على عزم

الإسلام؟

فقال ابن المقفع: أكره، أن أبيت، على غير دين.

فلما أصبح، أسلم على يده، وكان يكنى، أَبَا عَمْرو، فتكنى، أبا محمد.

ولعلَّ، الذي كان يتهم، بالزندقة، ابْن المقفع (المقنع) الخراساني، الّذي ادعى الربوبية، وَاسْمُهُ عَطَاءٌ، وقد قال، ابن العماد الحنبلي (1032هـ - 1089هـ)، في كتاب، شذرات الذهب في أخبار من ذهب، أنه، في سنة، إحدى وستين ومائة، فيها كان ظهور، عطاء المقنّع، السّاحر الملعون، الّذي ادعى الربوبية، من طريق المناسخة، فقبل قوم دعواه، وعبدوه، وقاتلوا دونه، ولما اشتهر أمر المقنع، وانتشر ذكره، ثار عليه النّاس، وقصدوه في قلعته، التي كان قد اعتصم بها، وحصروه، فلما أيقن بالهلاك، جمع نساءه، وسقاهنّ سمّا، فمتن، ثم تناول شربة، من ذلك السّم، فقَتَلَ نَفْسَهُ، فِي سَنَة، ثَلَاثٍ وَسِتِّينَ وَمِائَةٍ.

٤ - وفاته

لا يعرف، متى توفي، ابن المقفع.

وقال أبو الفرج بن الجوزي (510هـ - 597هـ)، في كتاب، المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، أن أبو الوفاء بن عقيل (431هـ - 513هـ)، قال: وجدت فِي تعاليق محقق، من أَهْل العلم، أن سبعة، مات كل واحد منهم، وله، ست وَثَلاثُونَ سنة، فعجبت من قصر أعمارهم، مع بلوغ كل منهم، الغاية فيما كَانَ فِيهِ، وانتهى إِلَيْهِ، فمنهم: الإسكندر ذو القرنين، وأبو مسلم صاحب الدولة العباسية، وابْن المقفع صاحب الخطابة والفصاحة، وسيبويه صاحب التصانيف والمتقدم فِي علم العربية، وأبو تمام الطائي وما بلغ من الشعر وعلومه، وإبراهيم النظام المعمق فِي علم الكلام، وابن الريوندي وما انتهى إليه من التوغيل فِي المخازي. فهؤلاء السبعة، لم يجاوز أحد منهم، ستا وثلاثين سنة، بل اتفقوا، على هذا القدر، من العمر.

وقال ابن خلكان، في كتاب، وفيات الأعيان، أن سبط ابن الجوزي، في تاريخه، مرآة الزمان، يدلّ، على أن وفات، ابن المقفع، كانت، في سنة، خمس وأربعين ومائة، وأن، عمر بن شبه (173هـ - 262هـ)، في كتابه، أخبار البصرة، ما يدل، على أن ذلك كان، في سنة، اثنتين وأربعين ومائة أو ثلاث وأربعين.

لا يعرف، كيف توفي، ابن المقفع.

وقال ابن خلكان، في كتاب، وفيات الأعيان، أن الأصمعي (123هـ - 216هـ) قال، أنه قيل، لابن المقفع، من أدبك؟ فقال: نفسي، إذا رأيت من غيري، حسناً، أتيته، وإن رأيت قبيحاً، أبيته.

وقال ابن خلكان، في كتاب، وفيات الأعيان، أن الهيثم بن عدي، الذي قال أبو داود عنه، أنه كذاب، قال، أن ابن المقفع، كان يعبث، بسفيان بن معاوية بن يزيد بن المهلب بن أبي صفرة، والي البصرة، وينال من أمه، ولا يسميه، إلا بابن المغتلمة (اغتلم، إذا اشتدت ثورته، أو انقاد لشهوته)، وكثر ذلك منه.

وذكر الهيثم بن عدي، أن ابن المقفع، كان يستخف بسفيان كثيراً، وكان أنف سفيان كبيراً، فكان إذا دخل عليه، قال، السلام عليكما، يعني نفسه وأنفه، وقال له يوماً، يسخر به، على رؤوس الناس، ما تقول، في شخص مات، وخلف زوجاً وزوجة؟ وقال سفيان يوماً: ما ندمت، على سكوت قط، فقال له، ابن المقفع: الخرس، زين لك، فكيف تندم عليه؟

وقال الراغب الأصفهاني (؟ - ٥٠٢هـ)، في كتاب، محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء والبلغاء، أن عبد الله بن عليّ، استشار، عبد الله بن المقفّع، فيما كان بينه، وبين المنصور، فقال ابن المقفّع: لست أقود جيشا، ولا أتقلّد حربا، ولا أشير بسفك دم، وعثرة الحرب، لا تستقال، وغيري، أولى بالمشورة، في هذا المكان.

وقال ابن خلكان، في كتاب، وفيات الأعيان، وكان عبد الله بن عليّ، قد خرج، على ابن أخيه المنصور، وطلب الخلافة لنفسه، فأرسل إليه المنصور جيشاً، فانتصر عليه. وهرب عبد الله بن علي، إلى أخويه، سليمان وعيسى، واستتر عندهما، خوفاً على نفسه، من المنصور، فتوسطا له، عند المنصور، ليرضى عنه، ولا يؤاخذه، بما جرى منه، فقبل شفاعتهما، واتفقوا، على أن يكتب له، أمان، من المنصور، فقدم سليمان وعيسى، وهما عما المنصور، ليكتبا أماناً، لأخيهما، عبد الله بن علي، وَكان عبدالله بن المقفع، كاتب عيسى بْن عَلِي، فأمره، فكتب: ومتى غدر، أمير المؤمنين، بعمه عبد الله، فنساؤه طوالق، ودوابه حبس، وعبيده أحرار، والمسلمون، في حل من بيعته.

وقال البلاذري، في كتاب، أنساب الأشراف، أنه كان في الامان: إن عَبْد اللَّهِ، عَبْد اللَّهِ، أمِير الْمُؤْمِنِيِنَ، لَمْ يف، بِمَا جعل لعبد الله ابن عَلِي، فَقَدْ خلع نَفْسه، والناس فِي حل، وسَعَةٍ، من نقض بيعته.

وقال الجَهْشَيَاري، في كتاب، الوزراء والكتاب، أن عبدالله بن المقفع، كتب في الأمان: وإن أنا نلت، عبدالله بن علي، أو أحداً، ممن أقدمه معه، بصغير من المكروه، أو كبير، أو أوصلت، إلى أحد منهم، ضررا، سرا أو علانية، على الوجوه، والأسباب كلها، تصريحا، أو كناية، أو بحيلة من الحيل، فأنا نفيّ، من محمد بن عليْ بن عبد الله، ومولود، لغير رشدة، وقد حلّ، لجميع أمة محمد، خلعي، وحربي، والبراءة مني، ولا بيعة لي، في رقاب المسلمين، ولا عهد، ولا ذمة، وقد وجب عليهم، الخروج من طاعتي، و إعانة، من ناوأني، من جيع الخلق، ولا موالاة، بيني، و بين أحد من المسلمين، وهو متبرئ، من الحول والقوة، ومدع، إن كان، أنه كافر، بجميع الاديان، ولقي ربه، على غير دين، ولا شريعة، محرم المأكل، والمشرب، والمناكح، والمركب، والرق، والملك، والملبس، على الوجوه والأسباب كلها ، وكتبت بخطي، ولا نية لي، سواه، ولا يقبل الله مني إلا إياه ، والوفاء به.

وقال ابن خلكان، في كتاب، وفيات الأعيان، فلما وقف المنصور، على ذلك، عظم عليه، وقال: من كتب هذا؟ فقالوا له: رجل، يقال له، عبد الله

ابن المقفع، يكتب لأعمامك. فكتب، إلى سفيان، متولي البصرة، يأمره بقتله.

وكان سفيان، شديد الحنق عليه، وذكر الهيثم بن عدي، أن وكان سفيان، يقول: والله، لأقطعنه إرباً إرباً، وعينه تنظر، وعزم، على أن يغتاله. فجاءه، كتاب المنصور، بقتله، فاستأذن ابن المقفع يوماً، على سفيان، في أمر كذا وكذا، فأخر إذنه، حتى خرج، من كان عنده، ثم أذن له، فدخل، فعدل به إلى حجرة، فقتل فيها.

وقيل، إنه ألقاه، في بئر المخرج، وردم عليه الحجارة.

وقيل، أدخله حماماً، وأغلق عليه بابه، فاختنق.

وقيل، لما دخل ابن المقفع، على سفيان، قال له: أتذكر، ما كنت تقول، في أمي؟ فقال ابن المقفع: أنشدك الله، أيها الأمير، في نفسي. فقال سفيان: أمي مغتلمة، إن لم أقتلك قتلة، لم يقتل بها، أحد. وأمر بتنور، فسجر، ثم أمر بابن المقفع، فقطعت أطرافه، عضواً عضواً، وهو يلقيها في التنور، وهو ينظر، حتى أتى على جميع جسده، ثم أطبق عليه التنور، وقال: ليس علي في المثلة بك حرج، لأنك زنديق، وقد أفسدت الناس.

وقال الجَهْشَيَاري، في كتاب، الوزراء والكتاب، وحُكي، أن سفيان، لما أمر بتقطيع، ابن المقفع، وطرحه في التنور، قال له ابن المقفع: والله، إنك لتقتلني، فتقتل بقتلي، ألف نفس، ولو قتل مئة مثلك، ما وفوا بواحد، ثم قال:

إذا ما مات مِثلي مات شَخصٌ
يموت بموته خلقٌ كثيرٌ
وأنت تموت وحدك ليس يَدري
بموتك لا الصغير ولا الكبير

وقال ابن خلكان، في كتاب، وفيات الأعيان، وسأل، سليمان وعيسى عنه، فقيل، إنه دخل دار سفيان سليماً، ولم يخرج منها، فخاصماه إلى المنصور، وأحضراه إليه مقيداً، وحضر الشهود، الذين شاهدوه، وقد دخل داره، ولم يخرج، فأقاموا الشهادة عند المنصور، فقال لهم المنصور: أنا أنظر، في هذا الأمر، ثم قال لهم: أرأيتم، إن قتلت سفيان به، ثم خرج ابن المقفع، من هذا البيت، وأشار إلى باب خلفه، وخاطبكم، ما تروني صانعاً بكم؟ أأقتلكم بسفيان؟ فرجعوا كلهم عن الشهادة، وأضرب عيسى وسليمان، عن ذكره، وعلموا، أن قتله، كان برضا المنصور.

وقال البلاذري، في كتاب، أنساب الأشراف، وَقَالَ أَبُو الغول الأَعْرَابِيٌّ، يرثي عبدَاللَّه، بْن المقفع:

وجمتَ (سكت وعجز عن الكلام)، وراعكَ الخطبُ الجليلُ
وأجرى دمعَك، الحزنُ الدخيل
كأنّ دموع عينك، إذ تداعَتْ
جمانٌ (اللؤلؤ)، خانه سلك سحيل (الخَيطُ غير مفتول)
عشيَّةَ، قلتَ للداعي ينادي
بعبد اللَّه، ويحك، مَا يَقُول
فَقَالَ، ابنَ المقفع، فاحتسبهُ (اصبر على وفاته)
فَلَيْس إِلَى لقائكهُ، سبيلُ
قتيلُ مَغالةٍ (الحِقْدُ الباطن)، فِي السِّر غدرًا
وَقَدْ يغتال، ذا العز، الذليل
لَقَدْ أودى بِهِ، كرمٌ وبر
وعلم، زانَهُ رأيٌ أصيل
وجود يد، بمنفسها (كل ما له قدر وقيمة، مال منفس: كثير)، إِذَا مَا
نفيس المال، ضن بِهِ البخيل
أَبُو الأضياف (جمع ضيف) يغمرهم قراه (إكرامه)
رحيبٌ بالعظيم لَهُ حَمول

٥ - مؤلفاته

ألف ابن المقفع:

- كليلة ودمنة
- الأدب الصغير
- الأدب الكبير
- وله مجموعة من نوادر القول.

وقال ابن خلكان، في كتاب، وفيات الأعيان، أنه قيل، أن المقفع، هو الذي وضع، كتاب كليلة ودمنة.

وقال آخرون، أن كليلة ودمنة، كثير الرواية، لآداب العرب، وخطابتها، وأمثالها، وفيه ما يشبه من قول، لعلي بن أبي طالب وغيره.

وقيل، أن كتاب، كليلة ودمنة، الذي كتبه ابن المقفع، تعرض للتغير، والزيادة والنقصان، على مر العقود، وذلك ظاهر، من اختلاف نسخه، ومن ورود، بعض النصوص، كتبها آخرون، في كليلة ودمنة، كمثل، نصوص من النمر والثعلب، لسهل بن هارون، ومقدمة علي بن محمد بن شاه الطاهري (؟ - ٣٠٢هـ)، زيدت بعد ابن المقفع، بعدة قرون، وباب مهرايز ملك الجرذان، ليس من كلام ابن المقفع، وأيضا أُلحِق به بعد عدة قرون.

وقيل، أن كتاب، كليلة ودمنة، الذي كتبه ابن المقفع، ترجم الى السنسكريتية (لغة قديمة في الهند)، والفارسية، في وقت لاحق، فمثلا، ترجمه، أبو المعالي نصر الله، الى الفارسية، في القرن السادس الهجري، وترجمه، حسين الكاشفي، الى الفارسية، في القرن التاسع الهجري، وسماه، انوار سهيلى، وعدّل في كليلة ودمنة بشكل كبير. وهنالك، نسخة سنسكريتية، من القرن السادس الهجري، تدعى بنجاتنترا، أو الفصول الخمسة، قائمة على نسخة ابن المقفع، مع تعديل، بشكل كبير.

وقال ابن خلكان، في كتاب، وفيات الأعيان، أنه قيل، أن ابن المقفع، لم يضع كتاب كليلة ودمنة، وإنما كان باللغة الفارسية، فعربه، ونقله إلى العربية، وقال ابن النديم، في الفهرست، فأما كتاب كليلة ودمنة، فقد اختلف في أمره، فقيل، عملته الهند، وقيل، عملته ملوك الاسكانية، ونحلته الهند، وقيل، عملته الفرس، ونحلته الهند، وقال آخرون، لم يذكر ابن المقفع، الكتاب الذي اعتمد عليه، ولم تكن له ترجمة، غير ترجمة، ابن المقفع.

وقال الجاحظ (159هـ -255هـ)، في كتاب الرسائل، وربما ألفت الكتاب، الذي هو دونه، في معانيه وألفاظه، فأترجمه باسم غيري، وأحيله، على من تقدمني عصره، مثل، ابن المقفع، والخليل، وسلْم صاحب بيت الحكمة، ويحيى بن خالد، والعتّابيّ، ومن أشبه هؤلاء، من مؤلِّفي الكتب، فيأتيني، أولئك القوم بأعيانهم، الطاعنون على الكتاب، الذي كان أحكم، من هذا الكتاب، لاستنساخ هذا الكتاب، وقراءته عليّ، ويكتبونه بخطوطهم، ويصيّرونه إماماً، يقتدون به، ويتدارسونه بينهم، ويتأدّبون به، ويستعملون ألفاظه، ومعانيه، في كتبهم وخطاباتهم، ويروونه عنيّ، لغيرهم من طلاب ذلك الجنس، فتثبت لهم به رياسة، ويأتمُّ بهم، قومٌ فيه، لأنه، لم يترجم باسمي، ولم يُنسب، إلى تأليفي.

وكما قال الجاحظ، كان البعض، ينسب مؤلفاته، الى ابن المقفع، ليقرأها الناس، وتروج وتشيع، وبعض الكتب المنحولة (المدعوة اليه وهي لغيره) لابن المقفع:

- كتاب مزدك
- كتاب التاج في سيرة أنوشروان
- كتاب خداينامة في السير
- كتاب آيين نامه في الإصر
- أيساغوجي

٦ - أولاده

وقال ابن خلكان، في كتاب، وفيات الأعيان، أن لابن المقفع، ولد اسمه محمد، وقال آخرون، أنه عمل، كاتبا ومترجما.

كليلة ودمنة

فهرس

مقدمة عبد الله بن المقفع

هذا كتاب كليلة ودمنة، جمع لهوًا وحكمة، فاجتباه الحُكماء لحكمته، والسخفاء لِلَهْوِه، ولم يزل العقلاء من أهل كل زمان، يلتمسون أن يُعقَل عنهم، ويحتالون لذلك بصنوف الحِيَل، ويطلبون إخراج ما عندهم من العِلل.

وينبغي لمن طلب هذا الكتاب، أن لا تكون غايتُه منه بلوغَ آخره، فليس ينتفع بقراءته ولا يُفيد منه شيئًا، وإن طمَحتْ عيناه إلى جمعه، فإنه خليقٌ ألّا يُصيبَ منه، إلّا كما أصاب الرَّجل، الذي بلغني أنه رأى في بعض الصحارى كنزا، فقال في نفسه: إن أنا أحرزتُ ما ههنا بنقله وحدي، لم أنقله إلّا في أيام، وجعلت لنفسي عملا طويلا، ولكن أستأجر رجالًا يحملونه، وأكون قد استظهرت لنفسي، في إراحة بدني عن الكد، بيسير الأجرة أعطيهم إياها.



ففعل ذلك، وجاء بالرجال، فحَمّلَ كلٌّ واحدٌ منهم ما أطاق، وانطلقوا. فلم يزَل دائبًا في ذلك، حتى فرَغ، واستنفد الكنز كله، ثم انطلق إلى منزله بعد الفراغ، فلم يجد شيئا، ووجد كل رجل منهم قد حاز ما حمل لنفسه، ولم يكن له من ذلك إلا العناء والتعب، لأنه لم يفكر في آخر أمره.

وكذلك من قرأ هذا الكتاب، فعليه بالفهم لما يقرأ، والمعرفة، ولا يعرِضْ في نفسه، أنَّه إذا أحكم القراءة له، وعرف ظاهر القول، فقد فرغ ممَّا ينبغي له أن يَعرِف منه، كما أنَّ رجُلًا لو أُتِي بجوزٍ صِحاح في قشوره، لم ينتفع به حتى يكسره ويستخرج ما فيه، ولا يكن كالرجل الذي بلغني أنه

طلب علم الفصاحة، فأتى صديقا له، ومعه صحيفة صفراء، فسأله أن يكتب له فيها علم العربية، فكتب له في الصحيفة ما أراد، فانطلق الرجل إلى منزله، وجعل يقرؤها ولا يدري ما معناها، وظنَّ أنه قد أحكم ما في الصحيفة، وأنه تكلَّم في بعض المجالس، وفيه جماعةٌ من أهل الأدب والفصاحة، فقال له بعضهم: لحنت، فقال: ألحنُ والصحيفة الصفراء في منزلي؟ وكيف أخطئ وقد قرأت الصحيفة الصفراء؟

فالمرء حقيقٌ أن يطلب العلم، فإذا وجد حاجته منه، وفَهِمَه، وعَرفَه، وبلغ غايته منه، انتفع بما يرى فيه، فإنه يُقال في أمرين، لا ينبغي لأحد أن يقصِّر فيهما، بل يُكثِرُ منهما: حُسنُ العمل، والتزود للآخرة.

ويُقال أيضًا في أمرين، يحتاج إليهما كل من احتاج إلى الحياة: المال، والأدب. ويُقال في أمرين لا ينبغي لأحدٍ أن يستكبر عنهما: الأدب والموت، ويُقال: إنَّ الأدب يجلو العقل، كما يجلو الوَدَكُ النارَ، ويزيدُها ضوءًا، والأدبُ يرفع صاحبه، والعلم يُنجي من استعمله، ومن عَلِم ولم يستعمل علمه، لم ينتفع بعلمه، وكان كمَثَل الرَّجل، الذي بلغني أن سارقًا دخل عليه في منزله، فاستيقظ، فقال في نفسه: لأسكُتَنَّ حتى أنظر غاية ما يصنع، ولأترُكَنَّه حتى إذا فرَغ مما يأخذ، قمتُ إليه، فنغَّصت ذلك عليه، وكدَّرته.



فسكت وهو في فراشه، وجعل السارق يطوف في البيت، ويجمع ما قدر عليه، حتى غلب على صاحب البيت النُّعاس، وحمله النوم، فنام، ووافق ذلك فراغ السارق، فعمد إلى جميع ما كان قد جمعه، فاحتمله وانطلق به.

واستيقظ الرجل بعد ذهاب السارق، فلم يرَ في منزله شيئا، فجعل يلوم نفسه، ويعاتبها، ويعضُّ كفَّيه أسفا، وعرف أنَّ فطنته وعِلمه لم ينفعاه شيئا، إذ لم يستعملهما.

والعلم لا يَتِم لأمرئ إلَّا بالعمل، والعلم هو الشجرة، والعمل هو الثمرة، وإنما يطلب الرجل العلم لينتفع به، فإنْ لم ينتفع به، لتعجّب من جهله وفعله، ورُبَّ رجلٍ لو قيل له: إنَّ رجلًا كان عارفًا بطريق مَخُوف، ثم ركِبه، فأصابه فيه مكروهٌ أو أذى، ومن لم ينتفع بمعرفته، كان كالمريض العالم، الذي يعلم ثقيل الطعام من خفيفه، ثم تحمِلُه الشهوة على أكل الثقيل منه، وترك ما هو أقرب إلى النجاة، والتخلص من علته.

فأقلُّ الناس عُذرا في ترك الأعمال الحسنة، من قد عرف فضلها وحُسنَ عائدتها، وما فيها من المنفعة، وليس يعذِره أحدٌ على الخطأ، كما أنَّه لو أنَّ رجلين، أحدُهما أعمى، والآخر بصير، وقعا في جُبّ، لكان البَصيرُ عند العقلاء، أقلَّ عذرًا من الأعمى، إذ كانت له عينان يبصر بهما، وذاك بما صار إليه جاهل غير عارف.

وعلى العالم أن يبدأ بنفسه، ويؤدبها بعلمه، ومن كان يطلب العلم ليعلّمه غيره، وليعرّفه سواه، فإنما هو بمنزلة العين التي ينتفع الإنسان بمائها، وليس لها من تلك المنفعة شيء، وإن خلالا ثلاثا، ينبغي لصاحب الدنيا أن يقتبسها ويُقبسها: منها العلم، ومنها المال، ومنها اتخاذ المعروف، وقد قيل: إنه لا ينبغي لطالبٍ أن يطلب أمرا، إلَّا من بعد معرفته بفضله، فإنه يُعَدُّ جاهلا، من طَلَبَ أمرا، وعنَّى نفسه فيه، وليس له منفعة.

وينبغي لمن عقَل، ألّا يطلب أمرا، فيه مضرة لصاحبه، يطلبُ بذلك صلاح نفسه، فإنَّ الغادر مأخوذ، ومن فعل ذلك كان خليقا أن يُصيبه ما أصاب الرجل، الذي بلغني أنه كان يبيع السمسم، وكان له شريك، فكان سمسمهما في بيت واحد، غيرَ أنَّ الذي لكل واحد منهما على حدة، فأحبَّ أحدهما أن يذهب بالذي لشريكه من السمسم، ثم أحب أن يجعل له علامة، حتى إذا دنا الليل عرفه بها، فعمد إلى ردائه، فغطّاه به.

ثم انطلق إلى صديق له، فأخبره بالذي همَّ به، وسأله أن يعينه عليه. فأبى صديقه ذلك، إلّا أن يجعل له نصف ما يأخذ منه، ففعل، ثم إنَّ شريكه دخل البيت، فرأى سمسمه مُغطًّى برداء صاحبه، فظنَّ أنه غطّاه من التراب والدواب، فقال في نفسه: لقد أحسنَ شريكي في تغطيته سمسمي وإشفاقه عليه، وسمسمُه أحقُّ أن يُغطّى بردائه.



فحوّل الرداء على سمسم صاحبه، فلمّا كان في الليل، جاء التاجر، والرجلُ معه، ودخلا البيت وهو مُظلِم، فجعل الرجلُ يلتمس ويجسُّ، حتى وقعت يده على الرداء المغطّى على السمسم، وهو يُقدِّر أنه كما غطّاه، وأنه سمسم صاحبه، فأخذ نصفه، وأعطى صديقه الذي عاونه نصفه.

فلمّا أصبح، جاء هو وشريكه حتى دخلا البيت، فلمّا رأى الرجل أنَّ الذي ذهب سمسمُه، ورأى سمسم صاحبه على حاله، دعا بالويل، وعرف أنَّ الذي أخذه ذلك الرجل، ليس برادّه، ويخشى أن تكون فيه فضيحته، فلم يقُل شيئًا.

وينبغي لمن طلب أمراً، أن يكون له فيه غايةٌ ونهايةٌ، فإنه من أجرى إلى غير غاية، أوشك أن يكون فيه عناؤه.

وربما أصاب الرجلُ الشيء، وهو غير راجٍ له، كما أصاب الرجل، الذي بلغني أنه كانت به حاجةٌ شديدة، وخَلَّةٌ ظاهرة، وفاقةٌ وعُري، فغدا يطلب من معارفه وشكا إليهم، وسألهم ثوبًا يلبسه.

وجَهِد فلم يُصِب شيئًا، ورجع إلى منزله وهو آيِس، فبينما هو نائم على فراشه، إذا بسارق قد دخل عليه في منزله، فلمّا رآه الرجل قال: ما في منزلي شيء يستطيع هذا السارق أن يسرقه، فليصنع ما يشاء، وليُجهِد نفسه.

وإنَّ السارق دار في البيت، وطلب، فلم يجد شيئًا يأخذه، فغاظه ذلك، وقال في نفسه: ما أرى ههنا شيئًا، وما أحب أن يذهب عنائي باطلًا.

فانطلق إلى خابية فيها شيءٌ من بُرٍّ (قمح صُلْب)، فقال: ما أجد بُدًّا من أخذ هذا البُرّ، إذ لم أجد غيره.



فبسط ملحفة كانت عليه، وصب ذلك البُرَّ فيها، فلمَّا بصُر به الرجل، قد جعل البُرَّ في الملحفة، وهو يريد أن ينطلق بها، قال: ليس على هذا صبر، يذهب البُرَّ ويجتمع عليَّ أمران: الجوع والعُري، ولن يجتمعا على أحدٍ إلا أهلكاه، فصاح بالسارق، فهرب من البيت، وترك الملحفة، فأخذها صاحب المنزل، فلبسها، وأعاد البُرَّ إلى مكانه.

فليس ينبغي لأحد أن ييأس، ولكن لا يدع جُهدًا في الطلب على معرفة، فإنَّ الفضل والرزق يأتيان من لا يطلبهما، ولكن إذا نَظَر في ذلك، وجد من طلب وأصاب، أكثر ممَّن أصاب بغير طلب، ولم يكن حقيقا أن يقتدي بذلك، الواحد الذي أصاب من غير طلب، ولكن يقتدي بالكثير الذين طلبوا فأصابوا.

وحقٌّ على المرء أن يُكثر المقايَسة، وينتفع بالتجارب، فإذا أصابه الشيء فيه مَضَرَّة عليه، حَذِرَه وأشباهه، وقاس بعضه ببعض، حتى يحذر الشيء بما لقيَ من غيره، ولا يكون مَثَلُه كمثل الحمامة التي يُؤخَذ فرخاها

فيُذبحان، وترى ذلك في وكرها، ولا يمنعها من الإقامة في مكانها، حتى تؤخذ هي فتُذبح.

وينبغي للمرء مع ذلك، أن يكون للأمور عنده حدّ لا يجوزُه، ولا يُقَصِّر عنه، فإنه مَن جاز الحد، كان كمن قصَّر عنه، لأنهما خالفا الحدَّ جميعا، وينبغي له أن يَعلم أنَّ كل إنسان ساع، فمن كان سعيه لآخرته ودنياه، فحياته له، وعليه.

ورُبَّ رجلٍ يُخبر بالشيء لا يقبلُه، ولا يعرف استقامته، فيصدِّق به لما يَرى من تصديق غيره، فيتمادى به ذلك حتى يكونَ كأنه عَرَفه، ورجل يصدق به لهواه في الأمر الذي يُخبَر به.

فالعاقلُ لا يزال للهوى متَّهِما، وينبغي له ألَّا يقبلَ من أحد، وإن كان صَدوقًا إلَّا صِدقا، وينبغي له ألَّا يتمادى في الخطأ، ولا يتوانى في النظر، وينبغي له إذا التبس عليه أمر، ألَّا يلجَ في شيء منه، ولا يُقدمَ عليه قبل أن يستيقن بالصواب منه، ولا يتمادى في الخطأ إذا ظهر له خطؤه، ولا يكون كالرجل الذي يحيد عن الطريق، فيستمر على الضلال، فلا يزداد في السير إلا جهداً، وعن القصد إلا بعداً، وكالرجل الذي تقذى عينه فلا يزال يحكها، وربما كان ذلك الحك سبباً لذهابها.

وقد قيل في أمور شتَّى، من كانت فيه، لم يستقِمْ أمره له، منها التواني في العمل، ومنها التضييع للفُرَص، ومنها التصديق لكل مُخبِر.

فمن قرأ هذا الكتاب فليقتدِ بما في هذا الباب، فإنني أرجو أن يزيده بصرا ومعرفة.

باب الأسد، والثور

قال الملك، لرأس فلاسفته: إضرب لي، مثل المتحابين، يقطع بينهما الكذوب، الخائن، المحتال، حتى يحملهما على العداوة والشنآن.

قال الفيلسوف: إذا ابتلي المتحابان، بأن يدخل بينهما، الكذوب، الخئون، لم يلبثا، أن يتقاطعا، ويتدابرا، ويفسد، ما بينهما من المودة.

١ - التاجر وبنيه

ومن أمثال ذلك، أنه كان بأرض دائِس، تاجر شيخ، وكان له، ثلاثة بنون. فلما بلغوا أشدهم، أسرعوا في إتلاف مال أبيهم، ولم يحترفوا حرفة، يصيبون بها مالا، ترد، عليه وعليهم.

فلامهم أبوهم، ووعظهم، على سوء فعلهم، فكان من عظته لهم، أنه قال: يا بني، إن صاحب الدنيا، يطلب ثلاثة أمور، لن يدركها، إلا بأربعة أشياء.

أما الثلاثة التي يطلب، فالسعة في الرزق، والمنزلة في الناس، والزاد إلى الآخرة.

وأما الأربعة، التي يحتاج إليها، في إدراك هذه الثلاثة، فاكتساب المال، من أحسن وجه، ثم حسن القيام، فيما إكتسبه، والتثمير له، بعد اكتسابه، ثم إنفاقه، فيما يصلح المعيشة، ويرضي الأهل، والإخوان، فيعود عليهم نفعه في الآخرة، ثم التوقي، لجميع الآفات، بجهده.

فمن ضيع شيئاً، من هذه الخلال الأربع، لم يدرك ما أراد.

لأنه إن هو لم يكن ذا مال، ولم يكتسب، لم يكن له مال يعيش به.

وإن هو كان ذا مال، وذا اكتساب، ثم لم يحكم تقديره، ولم يصلح ماله، ولم يحسن القيام به، أوشك ماله أن ينفد، فإذا هو، ليس له شيء.

وإن هو وضعه، ولم يثمره، لم ينفعه قلة الإنفاق، من سرعة النفاد، كالكحل، الذي لا يؤخذ منه، إلا غبار الميل، ثم هو مع ذلك، سريع الفناء.

وإن هو وضعه، في غير موضعه، وغير وجهه، وكانت نفقته، في غير مواضع الحقوق، إكتسب المذمة، وصار إلى عواقب الندامة.

ثم، من لم يمنع ماله من التلف، بالحوادث، والعلل، التي تجري عليه، كمحتبس الماء، لا تزال المياه تنصب فيه، فإن لم يكن له مخرجٌ، ومفيضٌ، ومتنفسٌ، يخرج الماء منه، بقدر ما ينبغي، خرب، وسال، ونزل من نواحٍ كثيرةٍ، وربما إنبثق، البثق العظيم، فيذهب الماء ضياعاً.

ثم، إن بني شيخ، إتعظوا بقول أبيهم، وأخذوا به، وعلموا أن فيه الخير، فعملوا عليه.

وانطلق أكبرهم، متوجهاً بتجارة له، إلى أرض، يقال لها مثور.

فأتى في طريقه، على مكان، شديد الوحل، ومعه عجلة، يجرها ثوران، يدعى أحدهما، شربة، والآخر، ندبة.

فوحل شربة في ذلك المكان، فلم يزل الرجل وأعوانه، حتى أخرجوه، بعدما بلغ الجهد، وأشرف على الهلكة.

وخلف التاجر عنده رجلاً، وأمره أن يقوم عليه، فإن رآه قد أبل، وصلح، لحق به.

فلما كان من غد ذلك اليوم، ضجر الأجير وإستوحش، وترك الثور، ولحق إبن التاجر، فأخبره إن الثور قد مات، وقال له: قد قضى نحبه، والذي حان أجله، وإن حاذر، لعمري، لا خلاص له، ولا مناص.

وقال: إن الانسان، إذا انقضت مدته، وحانت منيته، فهو، وإن اجتهد في التوقي، من الأمور، التي يخاف فيها على نفسه الهلاك، لم يغن ذلك عنه شيئاً، وربما عاد إجتهاده في توقيه، وحذره، وبالا عليه.

وإن شربة، إنتعش بعدما فارقه الرجل، فلم يزل يدب، حتى أتى مرجاً، خصيباً، كثير الماء والكلأ، لما قضي، أن يصيبه في ذلك المكان، من الذي لم يكن ليخطئه.

٢ - مثل: الرجل الهارب من الموت

فإنهم يزعمون، أن رجلاً كان يجمع حشيشا، فرآه ذئب من بعيد، فقصده ليأكله.

ففطن له الرجل، وكان لحق به، وكاد أن يقترب منه، فلما رآه، اشتد وجله، وخوفه، وخرج هارباً، نحو قرية، على شاطئ نهر.

فلما انتهى إلى النهر، وجد عليه قنطرة مكسورة، والذئب قد أرهقه، فقال: ماذا أصنع؟ الذئب يتلوني، والنهر عميق، والقنطرة مكسورة، وأنا لا أحسن السباحة، غير أنه، الأحرز لي، أن أرمي بنفسي في هذا النهر.

فرمى بنفسه، فأبصره أهل القرية، فأرسلوا إليه من يستخرجه، فذهبوا إليه وأخرجوه، وقد أشرف على الهلاك، من الغرق.

ثم أتوا به إلى حائط، فلما أفاق الرجل، جعل يحدثهم، عما لقي من عظيم الهول، وقد خلصه الله منه.

ولما، أمن الرجل على نفسه من شر الذئب، رأى على جانب الوادي، بيتاً مفرداً، فقال: أدخل هذا البيت، فأستريح فيه.

فلما دخله، وجد جماعة من اللصوص، قد قطعوا الطريق، على رجل من التجار، وهم يقتسمون ماله، ويريدون قتله.

فلما رأى الرجل ذلك، خاف على نفسه، ومضى نحو القرية، فأسند ظهره إلى حائط من حيطانها، ليستريح مما حل به، من الهول والإعياء، فإذ سقط الحائط عليه، فمات.

ثم إن الثور، لم يلبث أن سمن، وشحُم، واسترخى جسمه. فلما أمن، جعل يحُكُّ بقرنيه الأرض، ويخور، ويرفع صوته بالخوار.

وكان قريباً منه، أجمة فيها أسد عظيم، يُقال له نكلة، وهو ملك تلك الناحية، ومعه سباع كثيرة، من الذئاب، وبنات آوى، والثعالب.

وإنَّ ذلك الأسد، لمَّا سمع خُوار الثور، ولم يكن رأى ثورًا قط، رُعِب من ذلك رعبا شديدا، وكَرِه أن يفطن بذلك جُندُه، فلم يبرح من مكانه مغموما.

وكان فيمن معه، إثنان من بنات آوى، يُقال لأحدهما كليلة، وللآخر دمنة. وكانا ذَو دهاءٍ، وعلم، وأدبٍ. وكان دمنة، أبعدَهما همَّة، وأقلَّهما رضًا بحاله، وأمكرهما، ولم يكن الأسدُ عرفهما قط.

فقال يوما دمنة إلى كليلة: أما ترى يا أخي، شأن الأسد؟ وكيف أنه لا يتحرك من مكانه، ولا ينشط، كما كان يفعل؟

فقال كليلة: ما شأنُك أنت؟ وما سؤالك؟ أما نحن بباب الملك، بخير؟ لا نعدم من أن نأكل؟ والمسألة، عمَّا ليس لك، ولا يعنيك؟ ولسنا من أهل الرتب، التي ينال، ويتناول أهلها كلام الملوك، وينظرون في أمورهم، فاسكت، وأمسك عن هذا، واعلم، أنَّه من تكلف من القول، والعمل، ما ليس من شأنه، وشكله، أصابه، ما أصاب القرد.

قال دمنة: وكيف كان ذلك؟

٣ - مثل: القرد والنجار

قال كليلة: زعموا، أنَّ قردًا، رأى نجّارًا، ينجر خشبة، راكبا عليها، كالفارس على القَرَس، وكلما شقّ منها ذراعًا، أدخل فيها وتدًا.

وأنَّ النجار قام لبعض شأنه، فانطلق القرد إلى الخشبة، فركبها، وتدلّى ذنبه في شقها.

فجعل القرد، ينزع الاوتاد منها. فلما أتى آخرها، انضمّت الخشبة على ذنبه، وعصرته، فغشي عليه.



وجاء النَّجار، فكان ما لقيَ منه، من عظيم الضرب، أضعافًا كثيرة.

قال دمنة: قد فهمتُ ما ذكرتَ، وسمعتُ المثل الذي ضربتَ، ولكن إعلم، أنَّه ليس كلٌّ من يدنو من الملوك، إنما يدنو منهم لبطنه، فإنَّ البطن، يُحشى بكل مكان، وإنما، يدنوا منهم، ليَسُرَّ الصديق، ويكبت العدو.

وإن من الناس، من لا مرؤة له، وهم الذين يفرحون بالقليل، ويرضون بالدون، كالكلب، الذي يُصيب عظمًا يابسًا، فيفرح به.

فأمَّا أهل المروءة والفضل، فلا يقنعهم القليلُ، ولا يرضون به، دون أن تسمو نفوسهم، إلى ما هم أهل له، وهو أيضاً لهم أهل، كالأسد، الذي يفترس الأرنب، فإذا رأى العَيْر، تركه، وطلب العير.

أوَلَا ترى، أنَّ الكلب يُبَصبِص بذنَبِه، حتى تُلقى إليه الكسرة، وأنَّ الفيل، المغتلم، يعرف فضل نفسه، فإذا قُدِّم إليه علفه مكرَّمًا، لم يأكله، حتى يُمسح رأسه، ويُتملَّق؟

فمن عاش ما عاش، ذا مالٍ، غير خامل المنزلة، ذا فضل، وإفضال، على نفسه، وأهله، وإخوانه، وعشيرته، فهو، وإن قلَّ عمره، طويلُ العُمُر، ومن كان عيشه، في ضيقٌ، وقلةٌ، وإمساكٌ على نفسه، وذويه، فالمقبور أحيا منه، وإن طال عمره، فهو قصير العمر.

وإنه يُقال: إنَّ البائس، من طال عمره في ضُرٍّ، وقيل: ومن عمل لبطنه، وقنع، وترك ما سوى ذلك، عد من البهائم.

قال كليلة: قد فهمتُ ما ذكرتَ، فراجع عقلك، واعلم، أنَّ لكل إنسان، منزلةً، وقدرًا، فإن كان في منزلته، التي هو فيها، مُكتفيًا متماسكًا، كان حقيقًا، أن يقنع ويَرضَى. وليس لنا من المنزلة، ما يحط حالنا التي نحن عليها.

قال دمنة: إنَّ المنازل مُتنازَعة مشتركة، فذو المُروءة، ترفعه مروءته، من المنزلة الوضيعة، إلى المنزلة الرَّفيعة، والذي لا مُروءةَ له، يَحُطُّ نفسه، من المنزلة الرفيعة، إلى المنزلة الوضيعة.

والإرتفاع، من ضعة المنزلة، إلى شرفها، شديد المؤنة، والإنحطاط منها، إلى الضَّعة، هيِّنٌ، يسير، وإنما مثلُ ذلك، كالحجر الثقيل، الذي رفْعُه من الأرض إلى العاتق (ما بين الكتف والعنق)، شاق، وطرحُه من العاتق إلى الأرض يسير.

فنحنُ أحق أن نروم (نقيم ونستقر)، ما فوقنا من المنازل بمروءتنا، ولا نقيم على حالنا هذه، ونحن نستطيع ذلك.

قال كليلة: فما الذي اجتمع عليه رأيك؟

قال دمنة: أريد أن أتعرض للأسد، عند هذه الفرصة، فإنه ضعيفُ الرأي، وقد إلتبس عليه، وعلى جُنده، أمرُهم، فلعلِّي، على هذه الحال، أدنو منه، وأصيب حاجتي عنده.

فقال كليلة: وما يدريك أنَّ ذلك على ما وصفتَ؟

قال دمنة: بما ظهر له في نفسه، من التمكن، حتى ليعرف لك ذلك، من دَلِّهِ، وشكله، فإنَّ الرجُل، ذا الرأي، والفطنة، والظن، ربما عرف حال صاحبه، وغامِضَ أمره، بما يظهر له منه، ويراه من حاله، وصنيعه.

قال كليلة: كيف ترجو المكانَةَ عند الأسد، ولست صاحب سلطان، وليس لك علمٌ بخدمة السلاطين، وآدابهم؟

قال دمنة: إنَّ الرجل الشجاع، القويَّ، الشديد، لا يعجزه الحمل الثقيل، وإن فوجئ به، بل يستقلُّ به، وتكون له القوة عليه، فلا يُعسِّف الشديد حَملٌ، ولا القلب عملٌ، ولا العاقلَ أرضٌ، ولا المتواضع الليِّن الجانب أحدٌ، والرجل الضعيف، لا يستقل بالحمل، وإن كان ذلك من صناعته.

قال كليلة: فإنَّ السلطان، لا يتوخَّى بكرامته، أفضل مَن بحضرته، ولكنه يُؤثر مَن قرُب منه، ويُقال: إنَّ مَثَّل السلطان في ذلك، كالكرْم، الذي لا يتعلق بأكرم الشجر، ولكن بأقربها منه، وكذلك السلطان، فكيف ترجو المنزلة عند الأسد، ولست ممن يغشاه، ولا تدنو منه؟

قال دمنة: قد فهمتُ كلامك جميعه، وما ذكرتَ، وأنت صادق، ولكن، إعلَمْ، أنَّ الذين لهم المنازل الحسَنةُ عند السلطان، قد كانوا، وليست تلك حالهم، فتقرَّبوا منه بعد البُعد عنه، ودنوا إليه.

فأنا ملتمسٌ مثل ذلك، وطالبٌ بُلوغه، وقد قيل: لا يواظب أحدٌ على باب السلطان، ويطرح الأنَفة، ويحمِل الأذى، ويُظهر البِشر، ويكظِم الغيظ، ويكتم السر، ويَرفُق في أمره، إلا خَلَص إلى حاجته منه.

قال كليلة: فهَبك قد وصلت إلى الأسد، فما رِفقك، الذي ترجو أن تنال به، المنزلة، والحظوة لديه؟

قال دمنة: لو قد دنوت من الأسد، وعرفت أخلاقه، تلطفت في متابعته، وقلة الخلاف، فإذا أراد أمرًا، هو في نفسه صوابٌ، زَيَّنته له، وعرفته بما

فيه من النفع والخير، وشجعته عليه، وعلى الوصول إليه، حتى يعمل به، ويُنفِذَ رأيَه فيه، ويزداد به سروراً.

وإذا أراد أمراً، بما فيه الضر والشين، بصَّرته ما فيه، وأوقفته على ما في تركه من النفع والزين، بأرفق ما أجد إليه السبيل، وألينه.

وأنا أرجو، أن يرى مني في ذلك، أفضل مما يرى من غيري، وأن أزداد بذلك عند الأسد مكانةً، فإنَّ الرَّجُل، الأديب، الأريب، الدَّهِيَّ، لو شاء أن يُبطل الحق، ويُحِقَّ الباطل، أحيانًا لفعل، كالمصوِّر الماهر، الذي يصوِّر في الحائط تماثيل كأنها خارجة، وليست بخارجة، وأخرى كأنها داخلة وليست كذلك، فإذا هو عَرف نُبلي، وكمال ما عندي، كان هو الذي يلتمس، إكرامي، وتقريبي.

قال كليلة: أمَّا إن كان هذا من رأيك، فإني أحذِّرك صحبة السُّلطان، فإنَّ في صحبة السلطان خطرًا عظيمًا، وقد قالت العُلماء: أمورٌ ثلاثة، لا يجترئ عليها إلا الأهوجُ، ولا يسلم منها إلا القليل: صحبة السلطان، وإئتمان النِّساء على الأسرار، وشرب السم للتجربة، وإنما شبَّه العلماء، السلطانَ، بالجبَل الوعْر، الذي فيه الثمار الطيبة، والجواهر النفيسة، والأدوية النافعة، وهو مع ذلك، معدِن السباع، والنمور، والذئاب المخوفة، فالارتقاء إليه شديد، والمُقامُ فيه، أشدُّ وأهول.

قال دمنة: قد صدقت فيما ذكرتَ وفهمتُه، ولكني أعرف، أنَّ من لم يركب الأهوال، لم ينَلِ الرَّغائب، ومن ترك الأمر، الذي لعلَّه أن يبلُغ منه حاجته، مخافة، لما لعله يتوقاه، ويُشفق منه، فليس ببالغ جسيمًا.

وقد قيل، أمور ثلاثة، لا يستطيعها أحدٌ، إلا بمعونة، من علو همة، وعِظَم خَطَر، منها، عَمَلُ السلطان، وتجارةُ البحر، ومناجزةُ العدو.

وقد قالت العلماء، لا ينبغي للرَّجل الفاضل، الرشيد، ذي المروءة، أن يُرى إلَّا في مكانين، ولا يليق به غيرهما: إما مع الملوك مكرماً، وإما مع النساك

متعبداً، كالفيل، إنما جماله وبهاؤه في مكانتين: إما أن تراه وحشياً، وإما مركباً للملوك.

قال كليلة: جَعَلَ الله لَكَ الْخَيْرَ، فيما عزمت عليه.

ثم إنَّ دمنة، انطلق حتى دخل على الأسد، فسلَّم عليه، فقال الأسد لجلسائه: مَن هذا؟ قالوا: إبن فلان، قال الأسد: قد كنت أعرف أباه، ثم قال له: أين كنت تكون؟



قال دمنة: لم أزل مُرابطًا بباب الملك، رجاء أن يحضُر أمرٌ، أُعِينُ الملك فيه بنفسي، ورأيي، فإنه قد يجمع إلى أبواب الملوك، الأشياء، التي ربما احتيج فيها، إلى من لا يؤبه، إليه.

وليس أحدٌ يصغر أمره، إلا وقد يكون عنده، بعض الغنا والمنافع، على أن القدرة، كشبه العود، النابت في الأرض، ربما يقع به الرجل، فيأخذه، فيكون عدته، عند الحاجة إليه، فربما انتفع به الإنسان، في حكِّ أذنه.

فلمَّا سَمِعَ الأسد كلامَ دمنة، أعجبه، وظن أن يكون عنده نصيحة، ورأيٌ.

فأقبل على من حضر، فقال لهم: إنَّ الرجل، ذا العلم، والنُّبل، والفضل، والمروءة، لَيَكُونُ خاملَ الذِّكر، غامض الأمر، خافض المنزلة، فتأبى مروءته، إلا أن تظهر منزلته، وتشب، وترتفع، ويستبين، كالشعلة من النار، التي يصونها صاحبها، وتأبى، إلَّا ضياءً، وارتفاعًا.

فلمَّا عرف دمنة، أنَّ الأسد، قد أعجبه كلامُه، قال: إنَّ رعية الملك، ومن بحضرته منهم، يجب أن يُعرِّفوه ما عندهم من المروءة، والعلم، ويبذلوا له نصيحتهم، فإنَّ الملك لا يعرفهم، ولا يضعهم في منازلهم، التي هم أهلُها، ومستحقُّون لها، إلا بذلك، كالزرع المدفون في الأرض من الحنطة والشعير، وسائر الأنواع، فلا يستطيع أحدٌ أن يعرفه، ولا يصفه، حتى يكون هو الذي ينجُم، ويَظهر، ويَخرج على الأرض، وقد يحِقُّ على من خصَّه السلطان، أن يُطلِعه على ما عنده من المنفعة والأدب، ويحِقُّ على السلطان، أن يبلغ بكل امرئ مرتبته، على قدر رأيه، وما يجدُ من المنفعة عنده.

فإنه كان يُقال: أمران، لا ينبغي لأحد، وإن كان ملكًا، أن يجعل شيئًا منهما، في غير مكانه، وأن يُنزله غير مَنزلته: الرِّجال، والحلية.

فإنه يُعدُّ جاهلًا، من عقد على رأسه، حلية الرِّجْلَيْنِ، وعلى رجليه حلية الرأس، ومن ضبَّب اللؤلؤ والياقوت بالرصاص، فليس ذلك بتصغير للياقوت واللؤلؤ، ولكنه جهلٌ، ممن فعل ذلك.

وكذلك كان يُقال: لا تصاحبنَّ رجلًا، لا يعرف موضعَ يمينه، وشماله، وإنما يَستخرج ما عند الرجال، وُلاتُهم، وما عند الجنود، قادتهم، وما في الدين، علماؤه.

وقد قيل في أشياءَ ثلاثةٍ، فضلُ ما بينها متفاوت: فضل المقاتِل على المقاتِل، وفضل العالِم على العالِم، وفضل المتكلم على المتكلم.

إن رعية الملك، تحضر باب الملك، رجاء أن يعرف ما عندها من علمٍ وافرٍ، وإن كثرة الأعوان، إذا لم يكونوا نصحاء مجرَّبين، مَضَرَّة على العمل، فإنَّ العمل، ليس رجاؤه بكثرة الأعوان، بل بصالح الأعوان، وذوي الفضل.

ومثل ذلك، مثل الرجل، الذي يحمل الحجر الثقيل، فيهلك به نفسه، ولا يجد له ثمناً، بثقله، والرجل الذي يحمل الياقوت، غير تعب، فلا يَثقُل عليه، وهو قادر على بيعه بالثمن الكثير.

والعمل، الذي يحتاج فيه إلى الجِذْع، لا يُجزئه القَصَبُ، وإن كثر.

فأنت الآن أيها الملك، حقيقٌ، ألا تحقر مروءةً، وجدتها عند أحد، وإن كان صغير المنزلة، فإنَّ الصغير، ربما عظُم، كالعصب الذي يؤخذ من الميتة، فيعمل منه وتر القوس، فيقبض عليه الملوك، وتحتاج إليه في البأس واللهو.

وأحبَّ دمنة، أن يصيب الكرامة من الأسد، والمنزلة عنده، وعند جنده، ويعلمهم أنَّ ما ناله من الملك، غنما، هو لرأيه ومروءته، وليس لمعرفة أبيه فقط، فقال:

إن السلطان لا يُقرِّب الرجال، لقرب آبائهم، ولا يبعدهم، لبعدهم، ولكنه ينظر إلى ما عندهم، وما يحتاج فيه إليهم، ثم يُمضي رأيه، على ما يحقُّ عليه فيهم، من إنزالهم مَنَازِلهم، فإنَّه لا شيءَ أقربُ، ولا أخصُّ، بالرجُل من جَسَده، ورُبَّما دوأ عليه حتى يؤذيه، ولا يدفع ذلك عنه إلا الدواء الذي يأتيه من بعيد، والجُرذ، مُجاوِرُ الإنسان في البيت، فمن أجل إضراره، نُفي، والصقر، وحشيٌّ غريب، فلمَّا صار نافعًا، اقتُنيَ، واتُّخِذ، وأُكرِم.

فلما فرغ دمنة من مقالته هذه، إزداد به الملك إعجاباً، فأحسن الرد عليه، وقال: إنه ينبغي للملك، ألا يَلِجَّ، في تضييع حقٍّ، ذي الفضل، والمروءة، ولا وضْع منزلته، وأن يَستدرك ما فاته من ذلك، وربما أنه يرى، من صاحبه المفعول به ذلك، رضًا، فلا يغرَّه، فإنَّ الناس في ذلك، رجلان: رجل طبعه

المراسة، فهو كالحيَّة، التي إن وطئها أحد، فلم تلدغه، لم يكن جديراً أن يغره ذلك منها، فيعود إلى وطئها ثانية، فتلدغه، ورجل أصل طبعه الشهوة، فهو كالشَجَر البارد، الذي إذا أُفرِط في حكِّه، صار حارًّا، مؤذيًا.

فلما استأنس دمنة بالأسد، وخلا به، قال يوما: إني قد رأيتُ الملك، أقام منذ زمان بمكان واحد، لا يبرحه، ففيم ذلك؟

قال له الأسد، وكَرِه أن يعلم منه دمنةُ جُبنًا: لم يكن ذلك لبأس.

فبينما هما على ذلك، إذ خار الثور خُوارًا شديدًا، فهيّج الأسدَ، على أن يُخبِر دمنة بما في نفسه، فقال: هذا الصوت، الذي حبسني في مكاني هذا، ولست أدري ما هو، على أن الجثة بقدر الصوت، فإن كان كذلك، فليس لنا بمنزلنا هذا، لا قرار، ولا مقام.

قال دمنة: هل رأَى الملكَ شيئا غير ذلك؟ فإنه، إن لم يكن رأى شيئا سواه، فليس الملك بحقيق، أن يضيع وطنه لذلك، فإن القلب الضعيف، نهجه الصوت والجلبة، وفي بعض الامثال، بيانٌ، أن ليس من كل الأصوات، تجب الهيبة.

قال الأسد: وكيف ذلك؟

٤ - مثل: الثعلب والطبل

قال دمنة: زعموا، أن ثعلباً جائعًا، مرَّ بأجمةً، فيها طبل، معلق بشجرةٍ، وكلما هبت الريح، على قضبان تلك الشجرة، حركتها، فتضرب الطبل، فيسمع له صوتٌ عظيمٌ، مبهر.

فلما سمع الثعلب ذلك، توجه نحوه، لأجل ما سمع من عظم صوته، فلما أتاه وجده ضخماً، فأيقن في نفسه، بكثرة الشحم واللحم، فعالجه حتى شقه. فلما رآه أجوف، لا شيء فيه، قال: ما أدري، لعل أقل الأشياء، أعظمها جثة، وأشدُّها صوتًا.



وإنما ضربت لك هذا المثل، رجاء، أن يكون الذي يَذعرنا من هذا الصوت، ويروعنا، لو قد انتهينا إليه، وجدناه أيسَر أمرًا مما في أنفسنا، فإن شاء الملك، فليبعثني نحوه، وليُقِم مكانه، حتى أرجعَ إليه ببيان ما يُحبُّ أن يعلم منه، فوافق الأسد ذلك، وانطلق دمنة إلى المكان، الذي فيه الثور.

فلما ولّا دمنة من عند الأسد، فكَّر الأسد في أمره، وندم على إرسال دمنة، وقال: ما أصبتُ بإئتماني دمنة، على ما إئتمنته، ووجَّهته فيه، وقد كان ببابي مطروحاً.

فإنَّ الرجل، الذي يحضر السلطان، إذا كان قد أطيلت جفوته، عن غير جُرم كان منه، أو كان مبغيًّا عليه، أو كان معروفًا بالحرص والشره، أو كان قد أصابه ضُرٌّ أو ضيقٌ فلم يُنعَش، أو كان قد أجرم جُرمًا فهو يخافُ العقوبة، أو كان شِرّيرًا لا يحب الخير، أو كان قد وُقِف على خيانته، أو كان قد حيل بينه وبين ما كان في يده من سلطان، أو كان يلي عملًا، فعُزِل عنه، أو فُرّق عليه، أو انتُقِص منه، أو أُشرك بينه وبين غيره فيه، أو كان أذنب في نظرائه، فعُفِيَ عنهم، وعوقب، أو عوقبوا جميعًا، فبُلِغ منه، ما لم يُبلَغ من أحد منهم مثله، أو كان قد أبلى بلاءَ نظرائه، ففُضِّلوا عليه، في المنزلة، والجاه، أو كان غيرَ موثوق به في الهوى والدين، أو كان يرجو في شيءٍ، مما يضر بالولاة ، أو يخافُ في شيءٍ، مما ينفعهم ، أو كان لعدوّ السلطان

مُوادًّا، كلُّ هؤلاء، ليس السلطان حقيقًا، بالإسترسال إليهم، والطُّمَأنينة إلى ما قِبَلهم، والإئتمان لهم.

وإنَّ دمنة، داهٍ، أريب، وقد كان ببابي، مطروحًا مجفوًّا، فلعله قد إحتمل عليَّ بذلك ضِغنًا، ولعل ذلك يحمله على خيانتي، وأن يبغي عليَّ، وإعانة عدوي، ونقيصتي عنده، ولعله صادف صاحب الصوت، أقوى سلطاناً مني، فيرغب به عني، ويميل عليَّ معه، فيدلَّه على عورتي.

فلم يزل الأسد، يحدِّث نفسه بذلك، ويراجعها فيه، حتى استخفه ذلك، فقام من مجلسه، ومشى غير بعيدٍ، فبصر بدمنة مقبلاً نحوه، فطابت نفسه بذلك، واطمأن، ورجع إلى مكانه، كراهةَ، أن يظن دمنة، أنَّ شيئًا أقلقه، وأزعجه من مكانه.

ودخل دمنة على الأسد، فقال له: ماذا صنعتَ، وماذا رأيت؟

قال دمنة: رأيت ثورًا، وهو صاحب الخوار، والصوت، الذي سمعتَ.

قال الأسد: فما حاله، وقوته؟

قال دمنة: ما عنده شدة ولا قوة، فقد دنوتُ منه، وحاورته محاورة الأكْفَاء، فلم يستطع لي شيئًا.

فقال الأسد: لا يغرَّنك ذلك منه، ولا تَدْعُهُ، على ضعف منه، فإنَّ الريح الشديدة، لا تحطم الحشيش، وقد تقصف الشجر، وكذلك الصياد، إنما يصيد بعضها، ببعض.

قال دمنة: لا يهابن الملك أمره، ولا يقع في نفسه منه شيئا، فإن شاء الملك، فأنا آتيه به، فأجعله له، عبداً، سامعاً، مطيعاً.

فلما سمع الأسد ذلك، فرح به، وقال: دونَك.

ثم إنَّ دمنة، إنطلق إلى الثور، فقال له غير هائب، ولا مُتَعْتِع: إنَّ الأسد أرسلني لآتي بك، وأمرني، إن أنت عجّلت، إليه طائعًا، أن أؤمِّنك على نفسك، وما سلَف منك من الذنب، في التأخير عنه، وتركك لقاءه، وإن أنت تأخرت عنه، وأحجمت، أن أعجِّل إليه، فأخبره بذلك.

قال الثور: ومن هو هذا الأسد، الذي أرسلك؟ وأين هو؟ وما حاله؟



قال دمنة: هو ملك السِّباع، وهو بمكان كذا، ومعه جُند كثير، منهم.

فرُعِب الثور من ذلك، وقال: إن أنت جعلت لي، على نفسك عهدًا، أو أخذتَ لي منه الأمان، أقبلتُ معك.

فأعطاه دمنة، ما سأل من ذلك.

ثم، إن الثور ودمنة، توجها الى الأسد، ودخلا عليه، فأحسنَ الأسدُ، مسائلة شربة، وألطفه، وقال: متى قدمت الى ها هنا، وما نزع بك إلينا؟ وكيف كان عيشك؟



فقصَّ عليه الثور أمره، فقال له الأسد: إلزمني، فإني مُكرِمك، ومحسِنٌ إليك، فدعا له شربة، وثنا عليه.

ثم إنَّ الأسد، قرَّب الثور، وأدناه، وكرَّمه، وآنس منه رأيًا، وعقلًا، فإئتمنه على أسراره، وشاوره في أموره، لا تزيده الأيام به، إلا إعجاباً، ورغبةً، وتقريبًا، حتى صار أخصَّ أصحابه إليه، وأدناهم منه، مكانا.

فلمَّا رأى دمنة، أنَّ الأسد قد مال إلى الثور، وقدمه دونه، وجعله صاحبُ رأيه، ومواكلته، وخَلَواته، وأُنسه، ولهوه، عظم ذلك عليه، وبلغ الغيظ به كل مبلغ، فشكا ذلك إلى أخيه.

وقال له: يا أخي، ألا تنظر إلى عجز رأيي، وفساد فكري، وصنعي بنفسي، ونظري فيما ينفع الأسد، وإغفالي عما ينفع نفسي، حتى جلبت ثوراً،

غلبني على منزلتي عند الأسد؟

قال كليلة: أصابك في هذا الأمر، وندمك عليه، وتفريطك في حق نفسك، ما أصاب الناسك

قال دمنة: وكيف كان ذلك؟

٥ - مثل: الناسك واللص

قال كليلة: زعموا أنَّ ناسكًا، أصاب من بعض الملوك، كُسوة فاخرة، فبَصُرَ بها لصٌّ، فرغب فيها، وضرب الحيل لإستراقها.

فأتى اللص الناسك، وقال له: أريد أن أصحبك، لأخدمك، وأتعلم منك، وآخذ عنك.

فأجابه الناسك إلى ذلك، فلزمه، ولطف به، وأحسن الخدمة له، وصار متشبها له في النسك. فمن حسن خدمته له، والرفق به، إئتمنه الناسك، ووثِق به، وفوَّض إليه أمره، فاحتمل اللص تلك الثياب، وهرب بها.

فلما فقد الناسك الثياب، والرجل، ولم يجدها، عرف أنه صاحب العمل، فخرج في طلبه، إلى المدينة التي عرفه بها.

فمر في طريقه، على وعلان يتناطحان، حتى سالت منهما الدماء، لشدة نطاحهما، وتعبا، واتفق عندهما ثعلب، فلما رأى الدم، طمع، ودخل فيما بينهما، يلعق من الدم، فبينما هو منكب على الدم، قد إلتقى عليه الوعلان، وهو غافل، فأنتطحانه، فقتلاه.



قال: ثم مضى الناسك، حتى أتى المدينة مساء، فلم يجد فيها مكانا، إلا بيت إمرأة، كان جوزها غائبا، فنزل فيه.

وكان للمرأة جارية، وكانت الجارية قد عشقت رجلا، وهي لا تريد غيره، وتريد أن تتخذه بعلاً لها، فأضر ذلك بالمرأة، ولم يكن لها سبيل، إلى مدافعته.

فاحتالت لقتل ذلك الرجل، الذي عشقته جاريتها، في تلك الليلة، التي إستضافت بها الناسك. فسَقتِ الرجلَ من الخمر، صِرفًا (غير ممزوج بماء)، حتى سكِر ونام، فعمدت إلى سمٍّ، كانت وضعته في قصبة، لتنفخه، فإذ هي كذلك، خرجت ريح، فرجع السمٌّ في حلق المرأة، فوقعت ميتة، فشاهد الناسك ذلك في ليلته.

ثم انطلق الناسك غاديًا، في إلتماس منزل، غير ذلك المنزل، فأضافه رجل إسكافيّ، وقال لإمرأته: أكرمي هذا الرجل، وأحسني العناية إليه، فإنه قد دعاني بعض أصحابي، ولست أنصرف إلا مساءً.

فانطلق الاسكافي، وقد كانت للإمرأة صديق، قد عَلِقها، وعَلِقته، وكان الرسول الذي بينهما، إمرأةُ رجل، حَجَّام، جارةٌ لها.

فأرسلت إمرأة الإسكافي، إلى امرأة الحجّام، تطلب منها، أن تأتي صديقها، فتدعوه إلى عندها، وتخبره، أنَّ زوجها قد غاب في دعوة، وأنه لا يرجع إلَّا مُمسيًا، وأن تطلب منه، أن يأتي، فيقعد بالباب، حتى يؤذن له، فيدخل عليها.

فأقبل صديقها متخفيا، حتى قعد بالباب، ينتظر الإذن، وأنصرف الإسكافي، فلما رأى الرجل قاعدا بالباب، إرتاب منه، وغضب، ودخل إلى بيته، وضرب إمرأته ضربا شديدا، ثم أوثقها إلى عامود، في منزله.

فلما هدأت العيون، ونام الإسكافي، جاءت إمرأة الحجّام، إلى إمرأة الإسكافي، تقول لها، الرجل قاعد على بابك، فقالة إمرأة الإسكافي، إن شئت أحسنتِ إليَّ، فخلّيني، حتى أربطك مكاني ساعة، فآته، ثم أرجع.

ففعلت إمرأة الحجّام ذلك، واستيقظ الإسكافي، قبل أن تأتي إمرأته، فناداها، فلم تجبه امرأة الحجّام، مخافةَ أن يعرف صوتها، ثم دعاها مرارًا كثيرة وهي لا تجيبه، فازداد عليها غيظًا وحنقًا، وقام نحوها بشفرة كانت معه، فجدع أنفها، وقال: خذي أنفك معك، والحقي خليلك. وهو لا يشك، أنها إمرأته.

ثم، جاءت إمرأة الإسكافي، فرأت ما صنع زوجها بإمرأة الحجام، فغشاها ذلك، وأكبرته، وحلت وثاق إمرأة الحجام، وربطت نفسها مكانها، فأخذت امرأة الحجّام أنفها بيدها، ومضت إلى بيتها، مجدوعة الانف.

ثم، إنَّ امرأة الإسكافي، جعلت تبتهل، وتدعوا على زوجها الذي ظلمها، ثم رفعت صوتها، ونادت زوجها: أيها الفاجر الظالم، قم فانظر كيف صنعك بي، وصنع الله بي، كيف رحمني، ورد أنفي صحيحا، كما كان. فقام الإسكافي، وأوقد المصباح، ونظر، فإذا أنف زوجته صحيح، فترَضَّاها وسأل الله المغفرة.

وأما إمرأة الحجام، فإنها لما وصلت إلى منزلها، توصلت، في طلب الغدر عند زوجها، وأهلها، في جدع أنفها، ورفع الالتباس.

فلمَّا كان عند السَّحَر، إستيقظ الحجَّام، وناداها، أن إئتني بمتاعي كلِّه، فإني أريد السير إلى بعض الأشراف، فلم تأتِه إلَّا بالموسى وحده، فقال: هاتي متاعي كله. فلم تَزِدْه على الموسى، فغضب حين أطالت التكرار، ورماها بالموسى في الظلمة، فألقت نفسها إلى الأرض، وولولت، وصاحت: أنفي، أنفي. وجلبت، حتى جاء أهلها، وأقرباؤها، فرأوها على تلك الحال، فأخذو الحجام، وانطلقوا به إلى القاضي.

فقال القاضي للحجَّام: ما حملك على جدع أنف امرأتك؟ فلم تكن له حُجَّة يحتجُّ بها، فأمر به القاضي أن يقتص منه، فلما قدم للقصاص، قام الناسك، فتقدم إلى القاضي، فقال: أيها الحاكم، لا يشتبِهنَّ عليك هذا الأمر، فإنَّ اللص، ليس هو الذي سرَقني، وإنَّ الثعلب، ليس الوعلان قتلاه، وإنَّ الإمرأة، ليس السم قتلها، وإنَّ امرأة الحجام، ليس زوجها جدع أنفها، وإنما، نحن فعلنا ذلك بأنفسنا.

فسأله القاضي عن تفسير ذلك، فحدثه الناسك بالقضية كلها، فأمر القاضي، بإطلاق الحجام.

قال كليلة لدمنة: وأنت أيضًا فعلت ذلك بنفسك.

قال دمنة: قد سمعت، وفهمت ما ذكرت، وهو شبيه بأمري. ولعلي، ما ضرني أحد، سوى نفسي، ولكن، ما الحيلة الآن؟

قال كليلة: أخبرني عن رأيك، وما تريد أن تعزم عليه، في ذلك.

قال دمنة: أما أنا، فلست اليوم أرجو، أن تزداد منزلتي عند الأسد، فوق ما كانت عليه، ولكن ألتمس أن أعود إلى ما كنت إليه، فإن أمورا ثلاثة، العاقل جدير بالنظر فيها، والاحتيال لها بجهده.

منها، النظر فيما مضى من الضر والنفع، فيحترس من الضر، الذي أصابه فيما سلف، لكيلا يعود إلى ذلك الضر، ويلتمس النفع، الذي مضى، ويحتال لمعاودته.

ومنها، النظر، فيما هو مقيم فيه، من المنافع، والمضار، والتثبت بما ينفع، والهرب مما يضر.

ومنها، النظر في مستقبل ما يرجو من قبل النفع، وما يخاف من قبل الضر، فيستتم ما يرجو، ويتوقى ما يخاف بجهده.

وإني، لما نظرت في الأمر، الذي به أرجو، أن تعود منزلتي، وما غلبت عليه، مما كنت فيه، لم أجد حيلة، ولا وجها، إلا الاحتيال لآكل العشب هذا، حتى أفرق بينه، وبين الحياة.

وإني، إن قدرت على ذلك، عدت، إلى حالتي التي كنت عليها عند الأسد، ولعل ذلك يكون خيراً للأسد، فإن إفراطه، في تقريب الثور، خليق أن يشينه، ويضره في أمره.

قال كليلة: أما أمر الأسد في الثور، ورأيه، ومنزلته عنده، فليس هو عليه بشين، ولا ضرر.

قال دمنة: إنما يؤتى السلطان، ويفسد أمره، من قبل ستة أشياء: الحرمان، الفتنة، الهوى، الفظاظة، الزمان، والخرق.

فأما الحرمان، فأن يحرم، صالح الأعوان، والنصحاء، والساسة، من أهل الرأي، والنجدة، والأمانة، وترك التفقد، لمن هو كذلك.

وأما الفتنة، فهي تحزُّب الناس، ووقوع التحارب، بينهم.

وأما الهوى، فهو الإغرام بالنِّساء، والحديث، واللهو، والشراب، والصيد، وما أشبه ذلك.

وأما الفظاظة، فهي إفراط الشدة، حتى يجمح اللسان بالشتم، واليد بالبطش، في غير موضعهما.

وأما الزمان، فهو ما يصيب الناس، من السنين، والموت، ونقص الثمرات، والغزوات، وأشباه ذلك.

وأما الخرق، فإعمال الشدة، في موضع اللين، واللين، في موضع الشدة.

وإن الأسد، قد أغرم بالثور إغراماً شديداً، هو الذي ذكرت لك، أنه خليق لأن يشينه، ويضره في أمره.

قال كليلة: وكيف تطيق الثور، وهو أشد منك، وأخص منك منزلة، وأكرم على الأسد، وأكثر أعواناً؟

قال دمنة: لا تنظر إلى ذلك، فإن الأمور، ليست بالقوة، فرب ضعيفٍ، قد بلغ، بحيلته، ودهائه، ورأيه وأدبه، وفطنته، ما يعجز عنه كثير من الأشداء الأقوياء. أولم يبلغك، أن غراباً ضعيفاً، إحتال لأسْوَد (حيَّة عظيمة، سوداء اللون)، حتى قتله؟

قال كليلة: وكيف كان ذلك؟

٦ - مثل: الغراب، والأسود، و إبن آوى

قال دمنة: زعموا، أنه كان لغراب، وكرٌ، في شجرةٍ على جبلٍ، وكان قريباً منه، حجر ثعبانٍ أسود.

وكان الغراب، كلما فرَّخ، عَمد الأسوَد إلى فراخه، فأكلها، فاشتد ذلك على الغراب، وبلغ منه مبلغًا شديدًا، فشكا ذلك إلى صديق له من بنات آوى، وقال: أريد مشاورتك في أمرٍ قد عزمت عليه.



قال: وما هو؟

قال الغراب: قد عزمت أن أذهب اليوم، إلى الأسود إذا نام، فأنقر عينيه، فأفقأهما، لعلي، أستريح منه.

قال ابن آوى: بئس الحيلة التي احتلت. إلتمس أمراً، تصيب فيه بغيتك من الأسود، من غير أن تتلف نفسك، وتخاطر بها.

إياك أن يكون مثلك مثل العلجوم، الذي أراد قتل السرطان، فقتل نفسه.

قال الغراب: وكيف كان ذلك؟

٧ - مثل: العلجوم والسرطان

قال ابن آوى: كان عُلجوم، مُعشّشًا، في أجَمَة مُخصِبة، كثيرةِ السمك، فعاش هناك ما عاش، ثم هرم، فلم يستطع الصيد، فأصابه من ذلك جوعٌ وجهدٌ شديدٌ، فالتمس الحيلة، فتحازن واهتَمَّ.

فمر به سرطانٌ من بعد، فعرف الحزن في وجهه، فتقدم إليه، ودنا منه، وقال: مالي أراك أيها الطائر، هكذا حزيناً كئيباً؟

قال العلجوم: وكيف لا أحزن، وقد كنت أعيش من صيد هذا الغدير، وبه قوتي؟ وإني قد رأيت اليوم، صيادين، إنتهيا إلى هذا المكان، وقال أحدهما لصاحبه: إن ها هنا سمكاً كثيراً، أفلا نصيده أولاً؟

فقال الآخر: إني قد رأيت في مكان كذا، سمكاً أكثر من هذا السمك، فلنبدأ بذلك، فإذا فرغنا منه، جئنا إلى هذا، فأفنيناه.

وقد علمت، أنهما إذا فرغا، مما هناك، انتهيا إلى هذه الأجمة، فاصطادا ما فيها، فإن كان ذلك، فهو هلاكي، وانقطاع مدتي.

فانطلق السرطان من ساعته إلى جماعة السمك فأخبرهن بذلك، فأقبلن إلى العلجوم يستشيرونه، وقلن له: إنما أتينا إليك لتشير علينا: فإن ذا

العقل لا يدع مشاورة عدوه، إذا كان ذا رأي في الأمر الذي يَشْرَكه في ضيره ونفعه، وأنت ذو رأي، ولك في بقائنا نفع وصلاح، فأشِر علينا برأيك.

قال العلجوم: أما مكابرة الصيادين، فلا سبيل إليه، ولا طاقة لنا بقتالهم، ولا أعلم حيلةً، إلا المصير إلى غديرٍ، قريبٍ من ها هنا، خصب، كثير الماء، فلو استطعم الانتقال، كان فيه صلاحكم.

فقلن له: ومن يمن علينا بذلك غيرك؟

فقال: أنا أفعل ذلك.

وجعل العلجوم، يحمل في كل يوم سمكتين، فينطلق بهما، إلى بعض التلال فيأكلهما.

حتى إذا كان ذات يوم، وقد جاء لأخذ السمكتين، جاءه السرطان، فقال له: إني قد أشفقت مما حذرتنا منه، فاذهب بي، وخذني إلى ذلك الغدير.

فحمل العلجوم السرطان، وطار به، حتى إذا دنا من التلال، التي كان يأكل فيها السمك، نظر السرطان، فبصر عظام السمك مجموعة هناك، فعلم أن العلجوم هو صاحبها، وأنه فاعلها، وأنه يريد به مثل ذلك.

فقال في نفسه: إذا ابتلي الرجل بعدوه، في المواطن التي يعلم أنه فيها هالك، قاتل أو لم يقاتل، فهو حقيق أن يقاتل كرماً، وحفاظاً.

ثم أهوى السرطان، بكلبتيه على عنق العلجوم، فعصره، فوقع إلى الأرض ميتا، ووقع عنه السرطان، ورجع إلى السمك وأخبرهن بصنيعه.

وقال ابن آوى: إنما ضربت لك هذا المثل، لتعلم، أن بعض الحِيَل، مهلكة لصاحبها، ولكني، أدلك على أمرٍ، إن أنت قدرت عليه، كان فيه هلاك الأسود، من غير أن تهلك به نفسك، وتكون فيه سلامتك.

قال الغراب: وما ذاك؟

قال ابن آوى: تنطلق، وتبصر في طيرانك، فلعلك أن تظفر بشيءٍ، من حلي النساء، فتخطفه. فإذا ظفرت به، فاحتفاظه والناس ينظرون، ثم سر به حتى لا تفوتهم، فإنهم سيطلبونك، حتى تنتهي إلى حجر الأسود، فترمي بالحلي عنده. فإذا رأى الناس ذلك، فإنهم سيقتلونه، ويأخذوا حليهم، ويريحوك منه.

فطار الغراب، محلقا في السماء، فرأى امرأةً، من بنات العظماء، على سطح تغتسل، وقد وضعت ثيابها وحليها ناحية.

فانقض الغراب، واختطف من حليها عقداً، وطار به، وتبعه الناس. ولم يزل الغراب، يرتفع وينخفض، والحلي في منقاره، بحيث يراه كل أحدٍ، حتى انتهى إلى جحر الأسود، فجعل العقد فيه، والناس ينظرون إليه.

فلما أتى الناس ليأخذوا العقد، وجدوا الأسود نائما على بابه، فقتلوه، وأخذوا الحلي.

قال دمنة: وإنما ضربت لك هذا المثل، لتعلم، أن الحيلة، تجزئ، مالا تجزئ، القوة.

قال كليلة: إن الثور، لو لم يجتمع مع شدته، رأيه، لكان كما تقول. ولكن، له مع شدته، وقوته، حسن الرأي، والعقل. فماذا تستطيع له؟

قال دمنة: إن الثور، على ما وصفت في قوته ورأيه، ولكنه، مقرٌ لي بالفضل، وأنا خليق أن اصرعه، كما صرعت الأرنب الأسد.

قال كليلة: وكيف كان ذلك؟

٨ - مثل: الأرنب والأسد

قال دمنة: زعموا، أن أسداً، كان في أرضٍ مخصبة، كثيرة الوحوش، والماء، والمرعى. وكان لا ينفَعُهن، ما هنَّ فيه، من خوفِهن من الأسد، فتشاورن

فيما بينهُنَّ، وبينه، وقلن له: إنك لا تصيب منا الدابة، إلا بعد الجهد والتعب، وقد إجتمعنا، على أمر، لك ولنا فيه صلاح، إن أنت أمَّنتنا.

قال: أنا فاعل، وما ذاك؟

قلن: فإن أنت امنتنا، ولم تخفنا، فلك علينا في كل يومٍ، دابةٌ، نرسل بها إليك في وقت غدائك.

فرضي الأسد بذلك، وصالح الوحوش عليه، ووفين له به.

ثم إنهن، أقمن له بذلك أياما، ثم إن أرنباً، أصابتها القرعة، وصارت غداء الأسد، فقالت للوحوش: إن أنتن، رفقتن بي، فيما لا يضرنكن، أرحتكن من الاسد.

فقالت الوحوش: وما ذلك؟

قالت: أن تأمروا، ألا يذهب بي أحد إلى الأسد، فإني أريد، أن أبطئ عليه.

فقلن لها، لك ذلك.

فانطلقت الأرنب متباطئةً، حتى جاوزت الساعة، التي كان يتغدى فيه الأسد. وجاع الأسد، فغضب، وقام من مربضه، يمشي، وينظر، فلما رآها قال: من أين أقبلت، وأين الوحوش؟

فقالت: من عِندهُنَّ جئتُ، وهُنَّ قريب، بعثني، ومعي أرنبٌ لك، فتبعني أسدٌ في بعض تلك الطريق، فأخذها مني. فقلت: إن هذا طعام الملك، أرسلني به الوحوش إليه، فلا تغصبنه، فسبك وشتمك، وقال: أنا أولى بهذه الأرض، وما فيها من الوحش. فأقبلت مسرعةً لأخبرك بفعله.

فقال الأسد: انطلقي معي، فأريني موضع هذا الأسد.

فذهبت به الأرنب، إلى جب، فيه ماءٌ، صافٍ، عميق، فاطلعت فيه، وقالت: هذا مكانه، وهو فيه.

ونظر الأسد في الجب، فإذا بظله، وظل الأرنب، في الماء، فلم يشك في قولها، وحسب، أن الأسد والأرنب، رابضين في البير، فوثب إليه ليقاتله، فسقط سقطة، غرق فيها.



فانقلبت الأرنب إلى الوحوش، فأعلمتهن، صنيعها بالأسد.

قال كليلة: إن أنت قدرت، على هلاك الثور، بشيءٍ ليس فيه مضرةٌ للأسد، فشأنك، فإن مكانه، قد أضر بي، وبك، وبغيرنا من الجند. وإن أنت لم تستطع ذلك، إلا بما ينغِّص الأسد، فلا تفعل، فإن ذلك غدر منا، ولؤم.

ثم إن دمنة، ترك الدخول على الأسد، أياماً كثيرةً، ثم أتاه على خلوةٍ منه، وهو متحازن، فقال له الأسد: لم أرك من أيام، ما حبسك عنا؟ هل حدث أمر؟



فقال دمنة: نعم، حدث ما لم يكن الملك يريده، ولا أحد من جنده.

قال الأسد: وما ذاك؟

قال دمنة: هو كلامٌ فظيعٌ.

قال الأسد: فأخبرني به.

قال دمنة: إنه ما كان من كلام، يكرهه سامعه، لم يكد يتشجَّع عليه قائله، وإن كان ناصحًا مشفقًا، إلا، أن يثق بعقل المنصوح له، وإلا كان القائل، خَرِقًا.

وإنك أيها الملك، لذو فضيلةٍ، فإنه إذا كان المقول له عاقلًا، إحتمل القول، واستمعه، وعرف ما فيه، لأنه ما كان فيه من نفعٍ، فإنما هو للسامع، وأمَّا قائله، فلا ينتفع به، بل، قلَّما يسلم من ضرره.

وإنك أيها الملك، وافر الحلم، فأنا متشجِّع على أن أخبرك، بما تكره، وأثقُ، بأنك تعرف نصيحتي، وإيثاري إياك على نفسي.

وإنه، ليعرض لي، أنك غير مصدِّق، بما أنا مُخبِرك به، ولكني، إذا نظرت، ذكرتُ أن نفوسنا، معشر السباع، مُعلقةٌ بك، لم أجد بُدًّا، من أداء الحق، الذي يلزمني لك، وإن أنت لم تَسَلْني عنه، وإن خِفتُ ألا تقبله مني، فإنه، من كتم السلطان نصيحته، والأطباءَ مرضَه، والإخوانَ فقره، غشَّ نفسه.

قال الأسد: فما ذاك؟

فقال دمنة: حدثني، الصادق الأمين عندي، أن الثور خلا بروؤس جندك، فقال لهم: قد خبرت الأسد، وبلوت رأيه، ومكيدته، وقوته، فاستبان لي، أن ذلك يئول منه إلى ضعفٍ، وعجزٍ، وسيكون لي وله شأنٌ.

فلما بلغني ذلك، علمت، أن الثور خوانٌ غدارٌ، وقد عرف أنك أكرمته الكرامة كلها، وجعلته نظيرَ نفسك، فهو اليومَ يظنُّ، أنه مثلك، وأنك، إن زُلتَ عن مكانك، صار له مُلكك، فهو لا يَدَعُ جُهدًا.

وإنه كان يقال: إذا عَرَف الملك، أن بعض رعيته، قد ساواه، في الرأي، والمنزلة، والهيبة، والمال، والتبَع، فليصرَعْه، وإلا، فهو المفعول به ذلك.

وأنت أيها الملك، أعلمُ بالأمور، وأنظر فيها، وأنا أرى أن تحتال للأمر، قبل تفاقمه، ولا تنتظر وقوعه، فإنك لا تأمنُ أن يفوتك، ثم لا تستدركه، فإنه يُقال، الرجال ثلاثة: حازمٌ، وأحزم منه، وعاجزٌ.

فأحد الحازمَين، من إذا نزل به البلاء، لم يَدهَش، ولم يذهب قلبه شعاعاً (تفرّقت هِمَمُه، وآراؤه، فلا تتّجه لأمرٍ جزمٍ)، ولم يَعْيَ بالمكيدة، وبالحيلة، وبالرأي، الذي يرجو أنه المخرج والنجاة.

والأحزم منه، المتقدم في الامر، قبل وقوعه، والآخذ، فيما يحق عليه، من حسن النظر، فيعظمه، ويحتال له، حتى كأنه قد لزمه، فيحسم الداء، قبل أن يبتلى به، ويدفع الأمر قبل وقوعه، ويقتلع المتخوف، قبل أن يصيبه.

وأما العاجز، فهو في ترددٍ، وتمنٍ، وتوانٍ، حتى يُهلِك نفسه.

ومَثَلُ ذلك، مَثَلُ السمكات الثلاث.

قال الأسد: وكيف ذلك؟

٩ - مثل: السمكات الثلاث

قال دمنة: زعموا، أنَّ غديرًا كان فيه ثلاثُ سمكاتٍ: حازمة، وأحزم منها، وعاجزة. وكان ذلك الغدير، بنجوةٍ (مرتفع) من الأرض، لا يكاد يقربه أحدٌ من الناس، وبقربه نهر جارٍ.

فلما كان ذات يوم، مرَّ به صيادان، فأبصرا الغدير، فتواعدا أن يرجعا إليه بشباكهما، فيصيدا ما فيه من السمك.

فلمَّا رأتهما الأكثر حزما، ارتابت بهما، وتخوَّفت منهما، فلم تعرِّج على شيءٍ، حتى خرجت من المكان، الذي يدخل منه الماء، من النهر، إلى الغدير.



أما الحازمة، فلبثت مكانها حتى جاء الصيادان، فلما أبصرتهما قد مدا شباكهما، وعرفت، الذي يريدان، ذهبت لتخرج من حيث يدخل الماء، فإذا بهما قد سدا ذلك المكان، فحينئذٍ قالت: فرطت! وهذه عاقبة التفريط، فكيف الخلاص، وقلَّما تنجح حيلة المرهوق، وقلما ينجح حال العجلة؟ لكنَّ العاقل، لا يقنطُ على حال، ولا يدعُ الأخذ بالرأي، فكيف الحيلة على هذه الحال؟

ثم إنها تماوتت، فطفت على وجه الماء، منقلبة على ظهرها تارةً، وتارةً على بطنها، فأخذها الصيادان، فألقياها على الأرض غيْرَ بعيدٍ من النهر، فوثبت فيه، فنجت منهما.

وأما العاجزة، فما تَزَلْ في إقبال وإدبار، حتى صيدت.

قال الأسد: لقد فهمت ما ذكرتَ، ولا أظن الثور يغشني، ولا أظنه يرجو لي الغوائل. وكيف يفعل ذلك، ولم ير مني سوءاً قطُّ، ولم أدع خيراً، إلا وفعلته معه، ولا أمنيةً، إلا وبلغته إياها؟

قال دمنة: ألا إنه لا يحمله على ذلك، إلَّا ذلك، فإنك لم تَدَع خيرًا، إلا صنَعتَه به، ولا مرتبةً شريفةً، إلا بلَّغته إياها، فلم يبقَ شيء يرقا إليه إلا مكانُك.

فإن اللئيم الكفور، لا يزال ناصحاً، نافعاً، حتى يرفع إلى المنزلة، التي ليس لها بأهل، وليست له بأهل، فإذا بلغها، التمس ما فوقها بالغشِّ والخيانة، فإن اللئيم الكفور، لا يخدِم السلطان، ولا ينصَح له، إلا عن خوف، أو حاجة، فهو إذا استغنى، وذهبت الهيبة، عاد إلى أصله وجوهره، كذنب الكلب الأعقف، الذي يربط ليستقيم، فلا يزال مستوياً ما دام مربوطاً، فإذا حل، انحنى، واعوج، كما كان.

واعلم أيها الملك، أنَّه من لم يقبل من نُصحائه، ما يثقُل عليه، مما ينظرون له فيه، لم يحمَد مَغَبَّة أمره ورأيه، كالمريض، الذي يترك ما يبعث له الطبيب، ويعمد إلى ما تشتهي نفسه.

وحقٌّ على وزير السلطان، أن يبالغ في حضه على ما يزيد من سلطانه قوةً، ويكون فيه رشده، وكفُّ الشين والْغَيِّ عنه، وخير الإخوان من صفى لك وده، وخير الأعوان أقلهم مصانعة في النصيحة، وأفضل الاخلاء من لم يُخاصِم الناس، وأشرف السلطان ما لا يخالطه بطر، وأيسَر الأغنياء من لم يكن للحرص أسيرًا، وخير الأخلاق أعونها على الورع، وخير الثناء ما كان على أفواه الأخيار، وأفضلُ الأعمال أفضلها عاقبة.

وقد قيل: لو أن إمرئٍ، توسَّد النارَ، وافترش الحيَّات، كان أحقَّ من الذي يخش من صاحبه بعداوةٍ، وأعجزُ الملوك، أقلهم نظراً، في مستقبل الأمور، الآخذهم بالهُوَينا، أشبههم بالفيل المغتلم (إذا اشتدت ثورته أو انقاد لشهوته)، الذي لا يلتفت إلى شيء، فإن حزَ به أمرٌ، تهاون به، وإن أضاع ما ينفعه، حمل ذلك على قرابينه.

قال الأسد: لقد أغلظت علي في القول، وذلك من الناصح، محمولٌ، مقبولٌ. ولو كان لي الثور، عدوًّا، معادياً، كما تذكر، لم يَقدِر على ضُرّي، وكيف يقدر على ذلك، وهو آكل عشب، وأنا آكل لحم؟ فهو لي طعام، وليس علي منه مخافة، أو مكروه.

ثم، ليس لي إلى الغدر به سبيل، بعد الأمان الذي جعلته له، وبعد إكرامي له، وثنائي عليه عند رءوس جندي. فإن أنا غيَّرتُ ذلك، أو بدَّلته، فقد جهَّلتُ نفسي، وسفهت رأيي، وغدرت بذمتي، وحقرت بديني.

قال دمنة: لا يغرنك قولك، هو لي طعام، وليس علي منه مخافةٌ، فإن الثور، إن لم يستطع لك بنفسه، احتال لك بغيره. وقد قيل: إن نزل بك ضيفٌ ساعةً من النهار، وأنت لا تعرف أخلاقه، فلا تأمنه على نفسك، واحذَر أن يصلَ إليك منه، ما أصاب القملة، من ضيافتها البرغوث.

قال الأسد: وكيف كان ذلك؟

١٠ - مثل: القملة والبرغوث

قال دمنة: زعموا، أن قملة لزمت فراش رجلٍ من الأغنياء، دهراً، فكانت تدب عليه دباً رقيقا، وتصيب من دمه، وهو نائمٌ لا يشعر. فمكثت كذلك حيناً، حتى استضاف بها، ليلةً من الليالي، برغوثٌ.

فقالت له: بت هنا الليلة، في دمٍ طيب، وفراشٍ لينٍ. فأقام البرغوث عندها، فلما أوى الرجل إلى فراشه، وثب عليه البرغوث، ولدغه لدغةً أوجعته، فاستيقظ الرجل، وأمر خادمه بالضوء، فنظر، فرأى القملة والبرغوث، فوثب البرغوث، ونجا، وأخذت القملة، فقتلت.



وإنما ضربت لك هذا المثل، لتعلم، أن صاحب الشر، لا يسلم من شره أحد، وإن هو ضعف عن ذلك.

فإن كنت لا تخاف الثور، فخف غيره من جندك، الذين ألّبهم وجرأهم عليك، وحَمّلهم على عداوتك، وأني، قد عرفتُ أنه لا يُريد مناظرتك، ولا يكِلُ العملَ إلى غيره، في ذلك من أمرك، فرُبَّ موثوقٍ به غادر.

فوقع في نفس الأسد، ما قال دمنة، وقال له: ما ترى؟ وبماذا تشير؟

فقال دمنة: إنَّ صاحب الضِّرس المتآكل، لا يزال في أذًى، وألمٍ منه، حتى يفارقه، والطعام، الذي قد عيت منه النفس، راحتها في قذفه، والعدُو المخوف، دواؤه فقده، أو قهره، أو قتله.

قال الأسد: لقد تركتني كارهًا لمجاورة الثور، فأنا مُرسِلٌ إليه، وذاكرٌ له ما وقع في نفسي منه، وآمِرهٌ باللحاق حيث أحَبّ.

فكره دمنة ذلك، وعلم، أن الأسد إن كلم الثور، فسمع مرجوع كلامه، عذره، وصدقه، وعرف باطل ما أتى به، واطلع، على غدره وكذبه، ولم يَخْفَ عليه أمره. فقال للأسد: أما إرسالك إلى الثور، ومذاكرتك إياه ما كان من ذنبه، فلا أراه لك رأياً ولا حزماً، فإنه لا يزال لك من أمرك الخيارُ، ما لم تكشف له ما وقع في نفسك منه، فإنك إن كاشفته، أخاف أن يعاجلك بالمكابرة، فإن قاتلك قاتلك مستعداً، وإن فارقك، فارقك وله عليك فضل في الغدر، وإن أهل الحزم من الملوك، لا يُعلِنون بالعقوبة، لمن لم يعلن ذَنبه، ولكل ذنب عقوبةٌ، فلذنب السر، عقوبة السر، ولذنب العلانية، عقوبة العلانية.

قال الأسد: إن الملك، إذا عاقب أحداً، أو أهانه، عن ظن يظنه، وعلى غير استيقان بجرمه، فنفسه عاقب، وإياها أهان وظلم.

قال دمنة: أما إذا كان هذا رأي الملك، فلا يدخلن عليك الثور، إلا وأنت مستعدٌ له، ولا يصيبن منك غرة أو غفلة، فإني لا أحسبك لو قد نظرتَ إليه حين يدخل عليك، إلا مستعرفً، أنه قد هم بعظيمة، ومن علامة ذلك، أنك ترى لونه متغيراً، وأوصاله ترعد، ملتفتاً يميناً وشمالاً، مهياً قرنيه، كأنه يهمٌّ بالنطاح، والقتال.

قال الأسد: سأكون منه على حذر، ولئن أنا رأيتُ ذلك منه، فما في أمره شكٌ.

فلما فرغ دمنة، من حمل الأسد على الثور، وعلم أنه قد أوقع في نفسه ما طلب، وأن الأسد سيحذر الثور، ويتهيأ له، أراد أن يأتي الثور، فيغريه

بالأسد، ويَحمله عليه، وأحب أن يكون انطلاقه بأمر الأسد، وبعلمه، لئلا يبلُغه ذلك من غيره، فيتَّهمه فيه. فقال: أيها الملك، ألا آتي الثور، فاطلع إلى حاله وأمره، وأسمع كلامه، لعلي أستنبط شيئا، فأطلع الملك على كل ذلك. فأذن له الأسد في ذلك.

فانطلق دمنة، حتى دخل على الثور، كالكئيب الحزين. فلما رآه الثور رحب به، وقال: لم أرك منذ أيامٍ، فما حبسك، أسلامة؟

قال دمنة: ومتى كان من أهل السلامة، من لا يملك نفسه؟ إنما أمره بيد غيره، ممن لا يوثق به، وممن لا ينفك، على خوفٍ وخطرٍ منه، ولا تأتي ساعة، يأمن منه فيها، على نفسه؟

قال الثور: وما الذي حدث؟

قال دمنة: حدث ما قدر، وهو كائنٌ. فمَن ذا يغلِب القَدَر؟ ومن ذا الذي بلغ مناه، فلم يغتر؟ ومن ذا الذي بلغ من الدنيا جسيماً، فلم يبغي؟ ومن اتبع الهوى فلم يعطب؟ ومن جاور النساء، فلم يفتَتِنْ؟ ومن ذا الذي طلب إلى اللئام، فلم يُهَنْ ويُحرم؟ ومن خالط الأشرار، فسلم ولم يندم؟ ومن صحب السلطان، فلم يتعب، ودام له منه الأمن والإحسان؟

قال الثور: أسمع كلاماً، أخاف أن يكون قد رابك من الأسد شيء.

قال دمنة: لقد رابني منه ريب، ولكن ليس في أمر نفسي، وإنك تعلم حقَّك عليَّ، وما بيني وبينك، وما كنتُ جعلتُ لك من ذمتي من العهد والميثاق، أيامَ أرسلني الأسد إليك، فلم أجد بُدًّا من حِفظِك، والنصيحة لك، وإطلاعك على ما أطلعت عليه، مما أخاف عليك فيه الهلكة.

قال الثور: وما الذي بلغك؟

قال دمنة: أخبرني الصادق الأمين، أن الأسد قال لبعض جلسائه: قد أعجبني سمن الثور، وليست بي حاجةٌ إليه، ولا أراني إلا آكله، ومُطعِمَكم

منه. فلمّا بلغني مقالته هذه، عرفتُ غدره، وكفره، وسوء عهده، وأقبلت إليك لأقضيك حقك، وأعلمك ذلك، فتحتال لنفسك، في النجاة.

فلما سمع الثور كلام دمنة، وتذكر ما كان منه، وما جعل له من العهد والميثاق، فكر في أمر الأسد، وظن أن دمنة قد صَدَقَهُ ونصح له، فأهمه ذلك، وقال: ما كان ينبغي للأسد أن يغدر بي، ولم أذنب إليه، ولا إلى أحد من جنده، ولا أظن إلا أن الأسد قد حُمِل عليَّ بالكذب، وشُبِّه عليه أمري، وصدق عنده الباطل، وإن الأسد قد صحبه قوم سوءٍ، جرَّب منهم أشياء، هي تُصدّق عنده، ما بلغه عن غيرهم، وحملته تجربته في ذلك على الخطأ.

١١ - مثل: البطة والسمكة

كخطأ البطة، التي زعموا أنها رأت في الماء، ضوء كوكبٍ، فظنته سمكةً، فحاولت أن تصيده. فلما جربت ذلك مراراً كثيرة، فلما علمت أنه ليس بشيءٍ، تركته، فلما كان في الغد، رأت في المكان سمكة، فظنت أنها مثل الذي قبلها، فلم تطلبها، ولم تصدها.

فإن كان الأسد بلغه عني كذبٌ، فصدقه، وسمعه فيّ، فيصدق، ويسمع، لما جرب به غيري، واختبر منه، فبالجري، فما جرى على غيري، يجري علي.

وإن كان لم يبلغه عني شيءٌ، فأراد بي الشر، عن غير علة، فذلك من عجب الأمور، كيف تطلب رضا صاحبك، ولا يرضى، كيف وتطلب رضاه، فيسخط، فإذا كانت السخط عن علة، كان الرضا مرجواً، والعفو مأمولاً، وإذا كان عن غير علة، إنقطع الرجاء.

وقد تذكَّرت ولا أعلم فيما بيني وبين الأسد، جرماً، إن كان، إلا صغيرًا، صغير، ولعمري، ما يستطيع أحد، أطال صحبة صاحب، أن يحترس في كل شيءٍ من أمره، ولا أن يتحفظ، حتى لا يَفرُط منه شيءٌ يكره، ولكن، الرجل، ذا العقل، وذا الوفاء، إذا سقط عنده صاحبه سقطةً، نظر فيها، وما حد

مبلغه، وخطأً كان أو عمدًا؟ فهل في الصرف عنه، والصفح، سبيلا، مما لا يخاف ضره ولا شينه؟ ثم لا يؤاخذه بشيءٍ، وجد فيه إلى العفو عنه، سبيلًا.

فإن كان الأسد، يعتدُّ عليَّ جُرمًا، فلست أعرفه، إلَّا أني كنتُ أُخالف عليه في بعض رأيه، نظرا مني، ونصيحةً له، فعساه يقول: ما جرَّأه على أن يقول نعم، إذا قلت لا، أو يقول لا، إذا قلت نعم؟

فلعله قد أنزل أمري، على الجراءة عليه، والمخالفة له، ولا أجِدُني في ذلك مخصومًا، لأني لم أخالفه في شيءٍ، إلا ما قد ندر، من مخالفة الرّشد، والمنفعة، والدِّين، ولم أجاهر بشيءٍ من ذلك على رءوس جنده، وعند أصحابه، ولكني كنت أخلو به، وأكلمه سراً، كلام الهائب، الموقر. وإني علمت، أنه من التمس الرخص، من الإخوان عند المشاورة، ومن الأطباء عند المرض، ومن الفقهاء عند الشبهة، فقد أخطأ الرأي، وزاد في المرض، واحتمل الوِزر.

فإن لم يكن هذا، فعسى أن يكون ذلك من سكرات السلطان، فإنَّ منها، أن يسخط على من لم يستوجب السخط، ويرضى، عمَّن لم يستحق الرضا، فإن مصاحبة السلطان خطرة، وإن صوحب، بالسلامة، والثقة، والمودة، وحسن الصحبة، وكذلك قيل: قد غرر من لجَّج في البحر، وأشَدُّ منه مخاطرةً، صاحب السلطان.

وإن لم يكن هذا، فلعل ما أُعطيت من الفضل، قد جعل لي فيه الهلاك. فإنَّ الشجرة الحسنة، رُبَّما جعل فسادها في حملها، فثنيت أغصانها، وجُذِبت، حتى تنكسر وتتساقط، والطاووسَ، الذي ذنبه، حسنه وجماله، وأفضله، يطلب ذنبه حتى يؤخذ، والفرسَ الجواد القويَّ، ربما استُعمِل لما عنده من الفضل، فأُجهِد وأُتعِب، حتى يهلك، والرجل، ذا الفضل والمروءة، ربما تعلق عليه الأشرار، لكثرة من يحسُده، ويبغي عليه من أهل السوء، وأهلُ الشرِّ أكثرُ من أهل الخير بكل مكان، فإذا عادوه، وكثُروا عليه، أوشَكوا أن يُهلكوه.

فإن لم يكن هذا، فهو إذاً من مواقع القضاء، والقدر، الذي لا يدفع، فهو الذي يسلب الأسد، قوته، وشدته، ويدخله القبر، وهو الذي يحمل الرجل الضعيف، على ظهر الفيل، وهو الذي يسلط الحاوي، على الحية، فينزع حمتها (سُمَّهَا)، ويلعبُ بها كيف شاء، وهو الذي يُعجِز الأريب، ويثبط.

قال دمنة: إن إرادة الأسد في أمرك، ليس عن شيءٍ مما ذكرت، من تحميل الأشرار، وسكرة السلطان، ولا غير ذلك، ولكنه غدر وفجور منه، فإن الأسد، فاجرٌ، خوانٌ، غدارٌ، أول مذاقه حلاوةٌ، وآخره، بل أكثره، سمٌ مميتٌ.

قال الثور: قد طعمتُ ذلك فاستلذذته، وأراني قد انتهيت إلى الذي فيه الموت، وما مقامي عند الأسد، وهو آكل لحم، وأنا آكل عشب؟ فقبحًا للأمل، وقبحًا للشره! إنهما هما، اللذان أوقعاني في هذه الورطة، كالنحلة، التي تحتبس على عرائس النِّيل، إذ تستلذ ريحه، فتحبسها تلك اللذة، فإذا جاء الليل، ينضم عليها، فتتلجلج فيه، فتموت.

ومن لم يرض من الدنيا بالكفاف، الذي يغنيه، وطمحت نفسه إلى الفضول (ما لا فائدة فيه)، والاستكثار، فلم يتفكر، فيما أمامه، وما يتخوف منه، كان كالذباب، الذي لا يقنع بالشجر والرياحين، حتى يطلب الماء، الذي يسيل من أذن الفيل، فيضربه الفيل بآذانه، فيهلكه.

ومن بذلَ وده، ونصيحته، واجتهاده، لمن لا يشكر له، فهو كمن يبذر بزره في السباخ، (من الأرض: ما لم يفلح ولم يعمر لملوحته) .

قال دمنة: دع عنك هذا الكلام، دع عنك كثرة الكلام، واحتل، واجتهد لنفسك.

قال الثور: بأي شيءٍ أحتال لنفسي؟ وأعلم، أنه لو لم يرد بي إلا خيراً، وطلب أصحابه غير ذلك، وأرادوا، بمكرهم، وفجورهم، هلاكي، لدركوه، وقدروا عليه. فإنه إذا اجتمع، المكرة، الغدرة، الظلمة، على البريء الصحيح، كانوا خلقاء أن يهلكوه، وإن كانوا ضعفاء، وكان قويًّا، كما أهلك

الذئب، والغراب، وابن آوى، الجمل، حين اجتمعوا عليه بالمكر والخديعة، والخيانة.

قال دمنة: وكيف كان ذلك؟

١٣ - مثل: الذئب، والغراب، وابن آوى، والجمل

قال الثور: زعموا أن أسداً، كان في أجمةٍ إلى جانب طريق، وكان له ثلاثة أصحابٌ: ذئبٌ وغرابٌ وابن آوى، وأن تجارا مروا في تلك الطريق، فتخلف لهم جمل، فدخل الأجمة حتى انتهى إلى الأسد.

فقال له الأسد: ما حالك؟ فأخبره الجمل بأمره، فقال الأسد: فما حاجتك؟

قال الجمل: ما يأمرني به الملك.

قال الأسد: إن أردتَ صُحبتي، وملازمتي، فهي مبذولة لك، فاصحبني، في الأمن، والخِصب، والسعة.

فأقام الجمل مع الأسد، زمناً طويلاً، حتى إذا كان ذات يوم، توجّه الأسد في طلب الصيد، فلقي فيلاً عظيماً، فقاتله قتالاً شديداً، فجرحه الفيل بنابه جراحا كثيرة، إلى أن سالت دماه، فأفلت منه، ودماؤه تسيل، حتى انتهى إلى مكانه، فوقع مُثخَنًا، لا يستطيع الحراك، ولا الصيد.

فلبث الذئب، والغراب، وابن آوى، أياماً، لا يجدون طعاماً، فإنهم كانوا يأكلون فضله، وأصابهم جوعٌ، فعرف الأسد ذلك منهم، وجمع أصحابه، وقد أجهدوا جوعا، فقال: لقد جهدتم، واحتجتم إلى ما تأكلون.

فقالوا: أيها الملك، ما تهمنا أنفسنا، ونحن نرى بالملك ما نرى، ولسنا نجد للملك بعضَ ما يُصلحه، فليتنا نجد ما يأكله، ويصلحه.

قال الأسد: ما أشُكٌّ في موَّدتكم وصحبتكم، ولكن انتشروا، لعلكم تصيبون صيداً تأتونني به، فيصيبني ويصيبكم منه رزقٌ، وأكسِبكم، ونفسي خيرًا.

فخرجوا من عنده، ومضوا غير بعيد، فتنحوا ناحية، وائتمروا فيما بينهم، وقالوا: مالنا ولهذا الجمل، الأكل العشب، الذي ليس شأنه شأننا، ولا رأيه رأينا؟ ألا نزين للأسد أن يأكله، ويطعمنا من لحمه؟

قال ابن آوى: هذا ليس إلى ذكره للأسد من سبيل، لما جعل للجمل من عهد وميثاق، فإنه قد أمَّنه.

قال الغراب: قفا مكانكما، ودعاني والأسد، أنا أكفيكم أمره. ثم انطلق الغراب إلى الأسد، ودخل عليه، فقال له الأسد: هل أصبتم شيئاً؟

قال الغراب: إنما يجد مَن به ابتغاء، ويُبصر، مَن به نظر، أمَّا نحن، فقد ذهب منَّا البصر والنظر، لِما أصابنا من الجوع، ولكن، قد تفكرنا في أمرنا، ونظرنا، واتفقنا على أمر، إن وافقتنا عليه، كان فيه حياة لنا ولك.

قال الأسد: وما ذلك الأمر؟

قال الغراب: هذا الجمل، آكل العشب، المتمرّغ بيننا، من غير منفعة، ولا رد عائدةٍ، ولا عمل يُعقِبُ مصلحة.

فلما سمع الأسد ذلك، غضب وقال: ويلك! ما أخطَأَ مقالتَك، وأعجَزَ رأيَك، وأبعَدَكَ من الوفاء والرحمة! ما كنت حقيقاً، أن تجترئ عليّ بهذه المقالة، وتستقبلني بهذا الخطاب، ألم تعلم، أني أمَّنتُ الجمل، وجعلت له ذمَّة؟ أولم يبلغك، أنه لم يتصدق متصدق بصدقة، هي أعظم أجراً، ممن أجار نفساً خائفة، وحقن دماً مهدراً؟ لقد أجَرتُ الجمل، ولستُ غادرًا به، ولا محتقرا له.

قال الغراب: صدقت أيها الملك، إني لأعرف ما قال الملك، ولكن، النفس الواحدة، يُفتدى بها أهل البيت، وأهل البيت، تُفتدى بهم القبيلة، والقبيلة،

يُفتدى بها أهل المصر، وأهل المصر، فداء الملك. وقد نزلت بالملك الحاجة، وإني جاعلٌ لك أيها الملك من ذمته مخرجًا، على ألا يتكلف الملك ذلك، فلا يتكلف غدرًا، ولا يأمر به، ولا يلحقك فيه عيب.

فسكت الأسد، وانصرف الغراب إلى صاحباه، فقالا: ما فعلت؟ فأخبرهما، ثم قال: الرَّأي، أن نجتمع، والجملَ عند الأسد، ونذكر حال الأسد، وما قد أصابَه من الجوع والجَهد، ونتوجع له اهتماماً منا بأمره، وحرصاً على صلاحه، ونقول: لقد كان إلينا مُحسنًا، ولنا مُكرِمًا، فإنْ لم يرَ منَّا اليوم، وقد نزل به ما نزل، اهتمامًا بأمره، وحِرصًا على صلاحه، أنزل ذلك منَّا على لؤم الأخلاق، وكُفْر الإحسان، هلمُّوا، فتقدَّموا إلى الأسد، فإنه قد احتاج إلى شكرنا ووفائنا، وأنَّا، لو كنَّا نقدر على فائدة، نأتيه بها، لم ندَّخر ذلك عنه، فإنْ لم نقدر على ذلك، فأنفسنا له مبذولة، ثم، ليعرض عليه كلٌّ واحد منَّا نفسه، فيرد الآخران عليه، ويسفها رأيه، ويبينان الضرر في أكله.

ففعلوا ذلك، وتقدموا إلى الأسد، فقال الغراب: أيها الملك، إنك قد جهدت، ونحن أحق أن تطيب أنفسنا لك بأكملها، لا يؤدِّيك عندنا، ما سلف منك إلينا من صحبتك، وأنا أجود لك بنفسي أن تأكلني، فقد طبت بذلك نفساً، فإنَّا بك كنَّا نعيش، وبك نرجو عَيش مَن بعدنا من أعقابنا، وإن أنتَ هلكتَ فليس لأحد منَّا من بعدك بقاء، ولا لنا في الحياة خير.

فقال الذئب وابن آوى، إسكت، فلا شبع فيك، ولا خير للملك في أكلك.

ثم قال ابن آوى، ولكني أيها الملك، سيكون فيَّ ما تكتفي به اليوم، فقال الذئب والغراب لابن آوى، إسكت، فإنك منتن قليل اللحم، كثير العظم، والدم.

إني لست كذلك، ولكني أطيب لحما، وأكثر دسما، فليأكلْني الملك، قال الذئب. فاعترضه الغراب وابن آوى، وقالا: قد قالت الأطباء، من أراد أن يقتل نفسه، فليأكل لحم ذئب.

فظن الجمل، أنه إذا قال مثل مقالتهم، التمسوا له عذراً، كما التمس بعضهم لبعضٍ الأعذار، فيسلم، ويرضى الأسد عنه بذلك، وينجو من المهالك، فقال: لكن، أنا فيّ، للملك، شبعٌ وريٌّ، لحمي، طيبٌ هنيٌّ، بطني، نظيفٌ، فليأكلني الملك، ويطعم أصحابه، قد رضيت بذلك، وطابت نفسي عنه، وسمحت به. فقال الذئب والغراب وابن آوى: لقد صدق الجمل وتكرم، وقال ما عرف، فوثبوا عليه، فمزقوه.



وإنما ضربت لك هذا المثل، لتعلم، أنه، إن كان أصحاب الأسد قد اجتمعوا على هلاكي، فإني، لست أقدر أن أمتنع منهم، ولا أحترس، وإن كان رأي الأسد، لي، على غير ما هم من الرأي فيه، فلا ينفعني، ولا يغني عني شيئاً. وقد قيلَ، إن السلطان، من أشباه النسور، حولها الجيف، لا من أشباه الجيف، حولها النسور.

ولو أن الأسد، لم يكن في نفسه لي إلا الخير والرحمة، لغيرته كثرة الأقاويل، ولم تُلبِثه، إذا كثرت عليه، أن يذهب ذلك كله، حتى يستبدل به الشرارَة والغلظة، أَلَا ترى، أنَّ الماء ألينُ من الحجر، وليس يلبث الماء، إذا طال تحدُّره على الحجر، يثقبه ويؤثر فيه، وكذلك القول، في الإنسان.

قال دمنة: فماذا تريد أن تصنع الآن؟

قال الثور: ما أرى إلّا أن أُجاهده، فإنه ليس للمحسن في صلاته، ولا للمحتسب في صدقته، ولا للورع في كفِّه، مثلُ أجر المُجاهد عن نفسه، ساعة من نهار، إذا كان بريئا مُحِقًّا، وعدوه ظلوما، فإنه من ذلك على أمرين، ليس منهما الإختيار، فإن قتل، أجر، أو، ظلم.

قال دمنة: ليس ينبغي لأحد أن يُخاطر بنفسه، وهو يستطيع غير ذلك، ولكن، ذا الرأي، يجعل القتال آخِرَ حِيَله، ويبدأ قبل ذلك، بما استطاع من رفقٍ وتمحلٍ (التمس حيلة، سلك طرقًا ملتوية للوصول إلى الأمرِ)، ولا يَعجَل. وقد قيل: لا تحقرن العدو الضعيف المهين، ولا سيما إن كان ذا حيلةٍ، ويقدر على الأعوان، فكيف بالأسد، وهو في جُرأته، وشدته، على ما قد عرفت؟ فإنه، من استصغر أمر عدوِّه، وتهاون به، أصابه، ما أصاب النسر، من طائر الماء.

قال الثور: وكيف كان ذلك؟

١٣ - مثل: النسر وطائر الماء

قال دمنة: زعموا، أن في روض، كان طائراً من طيور الماء، وكان له أنثى، فلما كان أوان بيضهما، أعلمته بذلك، وقالت: لو التمسنا مكاناً حريزاً نفرخ فيه، فإني أخشى من النسر، أن يذهب بفراخنا.

قال لها: ليكُن ذلك في منزلنا، فإن العُشب والماء كثير، ومنَّا قريب، وذلك أرفق بنا من غيره.

قالت له: يا غافل، لِتُحسِن نظرك فيما تقول، فإننا مكاننا هذا على غَرَر، فإن أخاف النسر لو قد مد نظره، أن يذهب بفراخنا.

قال لها: أفرخي مكانك، لا أراه يفعل ذاك.

قالت له: ما أشد تعنتك! أوَ مَا تستحي، وتعرف قَدْر نفسِك، وعندك من لا طاقة لك به وقد قيل، إنه ليس من شيء، أشدَّ معرِفةً لنفسه، من الإنسان، وذلك حقٌّ، فاسمع من كلامي، وأطِع أمري.

فأبى أن يُجيبها إلى ما تدعوه إليه، فلما رأت ذلك، قالت: إن من لم يسمع من أصدقائه القول النافع، يصيبه ما أصاب السلحفاة، حين لم تسمع قول البطتين.

قال: وكيف كان ذلك؟

١٤ - مثل: السلحفاة والبطتين

قالت: زعموا، أنَّ عينًا كان فيها بطتان وسُلَحفاة، وكان بعضُهم قد ألِف بعضًا، وصادقه، ثم إن ماؤها، نقص في بعض الأزمان نُقصانًا فاحشًا، فلمَّا رأت البطَّتان ذلك قالت للسلحفاة: أما نحن، فإنَّه لينبغي لنا، تَركُ ما نحن فيه، والتحوُّل إلى غيره، لنقصان الماء، عليكِ السلام، فإنَّا ذاهبتان.

قالت السلحفاة: إنما يشتدُّ نقصان الماء، على مثلي، فإني كالسفينة، لا أعيش إلَّا به، أما أنتما، فتقدران على العيش حيث كنتما، فاحتالا لي، واذهبا بي، معكما.

قالوا لها، ما ننقلك، حتى تشترطي لنا، أننا إذا احتملناك، فرآك أحدٌ، فذُكرت، أن لا تجيبيه.

قالت: نعم، فكيف السبيل إلى حملي؟

قالتا: نأخذ بطرفي عودٍ، فتَعَضِّين على وسَطه، ونطير بك في الجو، وإياك، إذا سمعت الناس يتكلمون، أن تنطقي.



ثم أخذتاها، فطارتا بها، فرآها الناس، فقال بعضهم لبعضٍ، انظروا، إلى العجب، سلحفاة، بين بطتين في الهواء.

فلمَّا سمعت ذلك، تكلمت، وقالت: رغم أنوفكم. فلما فتحت فاها بالكلام، سقطت إلى الأرض، فماتت.

قال طير الماء: قد سمعت مقالتك وفهمتُ ما ذكرتِ، فلا تخافي النسر، ولا ترهبيه.

فباضت مكانها وفرَّخت، فلما مد النسر بصره، ذهب بفراخها من العش، فغيَّبهن.

فلمَّا فقدتهن أمُّهُنَّ، قالت لزوجها: قد كنتُ عارفة في بدء أمرِنا، أنَّ هذا كائن، وأنَّها، سترجع عليَّ وعليك، قِلَّة معرفتك بنفسك، فانظر، إلى ما أصابنا من الضرِّ، بسبب ذلك.

قال: سترين صُنعي، وما يصيرُ إليه عاقبة أمري. فانطلقَ إلى أصحابه، فشكا ذلك إليهم، وقال: إنكم إخوتي، وأهلُ مودَّتي وثقتي، لطلب ظلامتي، فأعينوني وظافِروني لما أصابني، فإنَّه عسى أن ينزل بكم، مثلُ ما نزل بي.

قالوا له: نحن على ما وصفتَ، وأنت أهلٌ، لأن تُسعف بما طلبتَ، ولكن، ما عَسى أن نقدِر عليه، من ضُرِّ النسر؟

قال: إجتمعوا بنا، فلنأت سائرَ الطير، فنذكُر ذلك لهم. فأجابوه إلى ذلك، وأعلمهنَّ، ما أصابه وحلَّ به، وحذَّرهن، أن ينزل بهنَّ مثل الذي نزل به، فقلن له: الأمرُ على ما وصفت، فما نستطيع من مساءة النسر؟

قال: إنَّ مَلِكنا، معشرَ الطير، العنقاء، فتعالوا بنا إليها.

فظهرت لهن، وقالت: ما جَمَعكنَّ؟ ولِمَ دعوتموني؟

فاشتكين إليها ما لَقي طير البحر من النسر، وقلن لها: إنك مَلكَتُنا، وسألنها، أن تسير معهن، إلى محاربة النسر، فأجابتهن، إلى ذلك.

فلما علم النسر، أن العنقاء، قد قصدته في جماعة الطير، وعرف ضعفه، عند قوتهم، خاف، من محاربة، ما لا طاقة له به، فرد فراخ طير البحر، وصالحه، فرجعت العنقاء عنه.

وإنما، ضربتُ لك هذا المثلَ، إلا، لأني لا أرى لك قتالَ الأسد، رأياً.

قال الثور: فما أنا بمقاتل الأسد، ولا ناصب له العداوة، ولا متغيرٍ له عما كنت عليه، حتى يبدو لي منه، ما أتخوف، فأعلم مكره.

فكره دمنة قوله، وظنَّ، أن الأسد، إن لم ير من الثور، العلامات التي ذكرها له، اتهمه، وأساء به الظن، ففقال: اذهب إلى الأسد، فستعرف، حين ينظر إليك، ما يريد منك.

قال الثور: وكيف أعرف ذلك؟

فقال دمنة: إن أنتَ رأيت الأسد، حين تدخل عليه، مقعياً (جلس على أَليتيه ونصَبَ ساقيه وفخذيه)، رافعاً صدره إليك، يسدِّد إليك بصره، ويضرب بذَنَبِه الأرض، وقد صر أذنيه، وفغر فاه، واستوى للوثبة، فاعلم، أنه يريد قتلك، فاحذره ولا تغتر به.

قال الثور: لئن أنا عاينت ذلك منه، كما وصفت، عرفت صدقك في قولك، فما في أمره شك.

ولمَّا فرغ دمنة من حمل الأسد على الثور، والثور على الأسد، توجه إلى كليلة، فلما التقيا، قال كليلة: إلى أين انتهى عملك الذي كنت فيه؟

قال دمنة: يقارب نجاحه على الذي تُحب، فلا تشك، أن الأخلاء، إذا احتال ما بينهما الأريب الرَّفيق، تقاطعا.

ثم، إن كليلة ودمنة، انطلقا جميعاً، حتى دخلا على الأسد. ووافق ذلك، دخول الثور، فرأى الأسد، على الحال التي ذكر، ووصف، دمنة، فاستيقن بالهلكة، وقال: ما صحبة السلطان، فيما يُتخوَّف، عندما يرقا عليه أهلُ البغي، إلَّا، كمجاور الحيَّة في بيته، والأسد في عرينه، والسابح في الماء الذي فيه التماسيح، لا يدري متى يهيج به بعضُهن، ففكَّر في ذلك، وتهيَّأ لقِتاله.

ثم، إن الأسد، نظر إلى الثور، فرأى الدلالات التي ذكرها له دمنة، فلم يشك أنه جاء لقتاله. فواثبه، ونشأت بينهما الحرب، واشتد قتال الثور والأسد، وطال، حتى سالت بينهما الدماء.

فلما رأى كليلة، أن الأسد قد بلغ منه ما قد بلغ، قال لدمنة: أيها الفسل (فاقد المروءة)، ما أنكر جهلتك، انظُر إلى حيلتك، ما أنكدها، وأسخم (أسوَدُ) عاقبتها!

قال دمنة: وما ذاك؟

قال كليلة: جرح الأسد، وهلك الثور، وفرَّقت كلمة الجُند. أوَلست تعلم، أنَّ أعجَزَ الرَّأي، ما كلَّف صاحبه القتال، وهو عنه غَنِي؟ وإن أخرق الخرق، من حمل صاحبه على سوء الخلق، والمبارزة، وهو يجد إلى غير ذلك سبيلاً. وأنَّ الرجل، رُبَّما أمكنَته فرصتُه في عدوه، فتركها، مخافةَ تعرُّض النكبة، ورجاءَ، أن يقدِر على حاجته بغيرِ ذلك، وإذا كان وزير السلطان، يأمُرُه،

بالمحاربة، فيما يقدر على بُغيته فيه بالمسالمة، فهو أشدُّ، من عدوّه له ضررًا.

ومن أراد المكر، ولم يعرف وجه الأمر الذي يأتيه منه، ويحيد فيه عنه، كان عمله كعملك. وقد كانت لي معرفة ببغيك، وعجبك بنفسك، ولم أَزَلْ أتوقع، منذ رأيت شَرَهَك، وحرصك، داهيةً، تجني بها عليَّ وعليك، فإنَّ ذا العقل، يدبر الأشياء، ويقيسها، قبل مباشرتها، فما رجا أن يتمَّ له منها، أقدَمَ عليه، وما خاف أن يتعذَّر عليه، انحرف عنه، ولم يلتفت إليه.

ولم يمنعني، من تأنيبك في أول أمرك، ووقفِك على حد رأيك، إلَّا أنَّ ذلك كان ما لا أستطيعُ صفاؤه، ولا ابتغاء الشهود عليك فيه، فأمَّا الآن، فإني لست آمن لك، على ما أنت عليه، فإنَّك تُحسِن القولَ، ولا تُحكِم العمل، وهذا الذي غرَّ الأسد منك، وقد قيل، ليس شيءٌ أهلَكَ للسلطان، ممن كان كذلك، ولا خير في الكلام إلا مع الفعل، ولا في الفعل إلا مع الورع، ولا في الصدقة إلا مع النية، ولا في المنظرة إلا مع المخبرة، ولا في المال إلا مع الجود، ولا في الصدق إلا مع الوفاء، ولا في الحياة إلا مع الصحة، ولا في الأمن إلا مع السرور.

أين معاهدتك إياي، أنك لا تضر بالأسد في تدبيرك؟ وقد سوَّطتَ (خَلَّطت) أمرًا، لا يُداويه إلَّا العاقل الرفيق، كالمريض، الذي يجتمع عليه فساد المرّة، والبلغم، والدم، ولا يُذهب ذلك عنه، إلَّا الطبيب الماهر.

وإني لأخاف عليك عاقبة بغيك هذا، واعلم، أن الأدب، يذهب عن العاقل، الطيش، ويزيد الأحمق طيشاً، كالنهار، يزيد كل ذي بصر نظراً، ويزيد الخفاش، سوء نظر.

وذو الرأي، لا تضره منزلة أصابها، ولا شرف أصفا به، كالجبل، الذي لا يتزلزل، وإن اشتدت الريح، وذو السخف، ينزفه أدنى أمر يساق إليه، كالحشيش، الذي يُميله الشيء اليسير.

وقد قيل: إنَّ السُّلطان، وإن كان صالحًا، ووزراؤه غيرَ صَالحين، منعوا خيره وامتنع على الناس، فلم يدنُ منه أحد، كالماء الصافي الطيِّب، فيه التماسيح، لا يستطيع الرَّجل دُخولَه، وإن كان إليه مُحتاجًا.

وإنما حِليةُ الملوك، وزينتُهم، قرابتهم، أن يكثُروا ويَصلُحوا، وإنك أردتَ، أن لا يدنُوَ من الأسد أحد غيرك، وهذا أمرٌ، لا يصح ولا يتم أبداً.

وإنما السلطان، بأصحابه وأعوانه، كالبَحر بأمواجه، ومن الحُمق، التماس الإخوان، بغير الوفاء، والأجر بالرِّياء، ومودة النساء بالغِلظة، ونفعِ المرء نفسه بضرِّ الناس، والعلم والفضل بالدَّعَة والخفض، وما كان أغناني عن هذه المقالة، وما عظتي وتأديبي إياك، إلا كما قال الرجل للطائر: لا تلتمس تقويم ما لا يستقيم، ولا تعالج تأديب، من لا يتأدب.

قال دمنة: وكيف كان ذلك؟

١٥ - مثل: القرود، والرجل، والطائر

قال كليلة: زَعَموا، أنَّ جماعةً من القِرَدة، كُنَّ في جبل، فالتمسن، في ليلةٍ باردة، ذات رياح وأمطار، ناراً، فلم يجدن. فرأين يراعة، تطير، كأنها شرارة نار، فحسبنها نارا، فجمعن حطبًا كثيرا، ووضعنه عليها، وجعلن ينفُخن بأفواههن، ويروِّحن بأيديهن.

وفي قُرْبهن، شجرةٌ، عليها طائر ينظر إليهم، فقال لهنَّ: لا تُتعِبن أنفسكن، فإن الذي ترَين، ليس بنار، كما تحسبن، فلم يَسْمَعن منه، ولم يُطعنه.

فلمَّا طال ذلك عليه، نزل إليهنَّ من الشجرة، فمرَّ به رجل، وعرف ما عزم عليه، فقال: أيها الطائر، لا تلتمس تقويم ما لا يعتدل، وتبصير من لا يفهم، فإنَّ الحجر المانع الذي لا يقطع، لا تُجرَّبُ به السيوف، والعودَ الذي لا ينحني، لا يعمل منه القوس، فلا تتعب، فإنَّ من فعل ذلك ندم.

فأبى الطائر أن يطيعه، ولم يلتفت إلى قوله، وتقدم إلى القردة يبصِّرهن، ويعظهن، فتناوله بعض القردة، فضرب به الأرض، فقتله، ومات.

فهذا مثلك، في قلة الانتفاع بالموعظة، وإنَّه قد غلب عليك الخب (الخبث والخداع والغش)، والفجور، وهما خلّتا سُوء، وإنه، سيصيبك من عاقبة ما أنت فيه، ما دخل على الخبّ، شريك المغفَّل.

قال دمنة: وكيف كان ذلك؟

١٦ - مثل: الخب والمغفل

قال كليلة: زعموا، أنَّ رجلين، أحدهما خبٌّ، والآخر مغفَّل، اشتركا في تجارةٍ وسافرا، فبينما هما يمشيان في الطريق، إذ وجدا بدرة (كيس توضع فيه، كمية من الدراهم)، فيها ألف دينار، فأخذاها، وبدا لهما، أن يرجعا إلى مدينتهما.

فلمَّا دنيا منها، قال المُغفَّل، للخبّ: خذ نصفها، وأعطني نصفها.

قال الخبّ، وكان قد أضمر الذهاب بها كلها: لا، فإنَّ الشركة أدوم، ولكن، يقبضُ كل واحد منَّا، منها شيئًا ينفقه، وندفن بقيتها مكانًا حريزًا، فإذا احتجنا إليها، إستثرناها (إستغثنا بها) . فأجابه المغفل إلى ذلك، وطمراها، تحت شجرة عظيمة.

ثم، إن الخب، خالف المغفل بعد ذلك بأشهر، وجاء إلى الدنانير فأخذها، وسوى الأرض كما كانت. ولقيه المغفل بعد ذلك، وقال له: قد احتجت إلى نفقةٍ، فانطلق بنا، نأخذ حاجتنا.

فقام الخب معه، وذهبا إلى المكان، فاحتفراه، فلم يجدا شيئاً. فجعل الخبُّ، ينتف شعره، ويدُقُّ صدره، ويلطم وجهه، ويقول: لا تغتر بصحبة صاحب، ولا يثقنَّ أحدٌ بأحدٍ، خالفتني إلى الدنانير، فأخذتها.

فجعل المغفل يحلف، أنه ما فعل ذلك، ويلعن آخذها، ولا يزداد الخب، إلا شدة في اللطم. وقال: ما أخذها غيرك. وهل شعر بها أحدٌ سواك؟

ثم طال ذلك بينهما، فترافعا إلى القاضي، فاقتص القاضي قصتهما، فادعى الخب، أن المغفل أخذها، وجحد المغفل، فقال القاضي للخب: ألك على دعواك بينة، بأنه أخذها؟

قال الخب: نعم، الشجرة، تشهد لي على ما أقوله، أنه حق.

فأنكر ذلك عليه القاضي، وقال: باكرًا، إلى الشجرة، التي كانت فيها الدنانير.

وانصرف الخب إلى أبيه، فأعلمه بذلك، وقال: إني لم أقل الذي ذكرتُ، إلّا لأمر قد رَوَّأتُ (نظر فيه، وتأمل، ولم يتسرع) فيه، فإن أنتَ طاوعتني، أحرزنا ما أخذنا، وأصبنا حاجتنا، وأضفنا إليه مثله من المغفَّل.

قال أبوه: وما ذاك؟

قال الخب: إني قد كنتُ توخيتُ بالدنانير، إلى أعظم ما يكون من الشجر، شجرة عظيمة جوفاء، فتذهب الليلة فتدخلها، فإذا جاء القاضي، فسأل الشجرة، تكلمت أنت من جوفها، فقلت: المغفل أخذ الدنانير.

فقال أبوه: يا بُنيّ، إنه رُبَّ امرئ، قد أوقعه تحّيله في ورطة، فإياك، أن يكون مثلك كمثل العلجوم (الذكرُ من الضفادع والبط)، الذي أهلكه تحيُّله.

قال: وكيف كان ذلك؟

١٧ - مثل: العلجوم، والأسود، وابن عرس

قال: زعموا، أنَّ عُلجومًا، كان مُجاورًا لأسوَد (ثعبان)، وكان، كلما فرخ، لا يدع له فَرخًا إلا أكله. وكان وطنُه، قد وافقه وأعجبه، فحزن لذلك، واهتم.

ففطِن له سَرَطان، فسأله عن أمره، فأخبره، فقال: ألا أدُلُّك، على شيء، يُريحك منه؟

قال: بلى!

فأشار له إلى جُحر فيه ابنِ عِرس، وأَعْلَمَه، بعداوته للأسود، وقال: اجمَع سمكًا، فاجعله شطرين، فيما بين مكانيهما، فإنه يأكل الأول، فالأول، حتى ينتهي إليه، فيهلكه.

ففعل العلجوم ذلك، فتبع ابنِ عِرس السمك، حتى وجد الأسوَد، فقتله. وإن ابنُ عِرس، جعل بعد ذلك، يخرج للعادة، ويلتمس، فلم يزل يطوف، حتى وقع على عشّ العلجوم، فأكله، وفراخه.

وإنما ضربت لك هذا المثل، لتعلم، أنَّه من لم ينظر في حيله، ويتثبت، أوقعه فيه، ما يحتال به، فيما عسى، أن لا يخلُص منه.

قال الخب: قد فهمتُ ما ذكرتَ، فلا تهابنَّ، فإنَّ الأمرَ يسير. ولم يزل به حتى أطاعه، واتَّبع رأيه.

فلمَّا انتهى القاضي إلى الشجرة، وسألها عن الخبر، قال الشيخ من جوفها: نعم، المغفل أخذ الدنانير.

فاشتدَّ عجب القاضي من ذلك، وطاف بها، فلم ير شيئًا. فأمر بحطبٍ فجُمِع، وأُلقيَ عليها، وجعل فيه نارًا. فلما دخل على الشيخ الدخان، ووصل إليه الوهج (حرُّ النّار)، تصبَّر ساعة، ثم صاح واستغاث، فأُخرِج، وقد أشرف على الهلاك، فسأله القاضي عن القصة، فأخبره بالخبر، فعاقبه القاضي وابنه، وأخذ الدنانير، وأعطاها للمغفل.

وإنَّما ضربتُ لك هذا المثل، لتعلم، أن الخب والخديعة، ربما كان صاحبها هو المغبون. وإنك يا دمنة، جامعٌ، للخب، والخديعة، والفجور، فكان الذي اجتنيت من ثمرة عملك ما ترى، مع أني لا أحسَبُك تنجو، فإنك ذو لونين

ولسانين، وإنما عذوبة ماء الأنهار، ما لم تبلغ إلى البحار، وصلاح الرجل، ما لم يدخل فيه النميمة، وصلاح أهل بيتٍ، ما لم يدخل فيه مُفسِد، وبقاءُ الإخاء، ما لم يَكن بينه مثلُك.

وإنه لا شيء أشبه بك، من الحيَّة، التي يجري في فمها السم، وإني لم أزل لذلك السم من لسانك خائفاً، ومنه مشفقا، ولقربك مني كارهًا، ولما يحل بك متوقعاً، فإنَّ العُقلاء قد قالوا: اجتَنِب أهلَ الفُجور، وإن كانوا ذوي قرابتك، وإنَّ من كان كذلك، فإنما هو بمنزلة أهل الحيَّة، يربيها صاحبُها، ويمسحها، ويكرمها، ثم، لا يكون له منها جزاء، إلا اللدغ. ويُقال: الْزَم ذا العقل وذا الكرم، واسترسل إليه، وإياك ومفارقته، ولا عليك أن تصحب مَن لا جُودَ له، إذا كان محمود الرأي، واحترس من سيئ أخلاقه، وانتفِعْ بما عنده، ولا تدَع مُواصلة السخِي، وإن كان لا نُبل له، واستمتع بسخائه، وانفعه بلُبّك، والفرار كل الفرار، من اللئيم الأحمق.

وإني، بالفرار منك لجدير، وكيف يرجوا إخوانك، عندك، وفا، وكرماً، ووداً، وقد صنعت بملكك، الذي أكرمك وشرفك، ما صنعت؟

وإن مثلك، مثل التاجر، الذي قال: إن أرضاً، تأكل جرذانها، مائة مَنٍّ (رطلان) حديداً، ليس بمستنكر، أن يختطف بُزاتُها (جوارح الطير)، الفيلة.

قال دمنة: وكيف كان ذلك؟

١٨ - مثل: التاجر، والجرذان، والباز

قال كليلة: زعموا، أنه كان بأرض، تاجر، فأراد الخروج إلى بعض الوجوه، لابتغاء الرزق، وكان عنده مائة منّ حديداً، فأودعها رجلاً من معارفه، وذهب في وجهه.



فلمَّا رجع، طلبها منه، فقال الرجل له، وكان قد باعها، واستنفق ثمنها: كنتُ وضعتها في ناحية البيت، فأكلتها الجُرذان.

قال التاجر: قد بلغنا، أنه ليس شيئا، أقطع للحديد، من أنيابها. ففرح الرجل بتصديقه. ثم، إن التاجر خرج، فلقي ابناً للرجل، فأخذه، وذهب به إلى منزله، فأخفاه فيه.

ثم رجع التاجر إليه من الغد، فقال له الرجل: هل رأيت ابني؟

قال التاجر: إني لما خرجت، من عندك بالأمس، رأيت بازياً، قد اختطف صبياً، فلعله ابنك.

فلطم الرجل على رأسه وقال: يا قوم، هل سمعتم، أو رأيتم، أن البزاة تخطف الصبيان؟

قال التاجر: نعم. وإن أرضاً تأكل جرذانها مائة منٍّ حديداً، ليس بمستنكر، أن تختطف بزاتها الفيلة.

قال الرجل: أنا أكلتُ حديدك، وبئس ما أدخلت جوفي، ادفع إليَّ ابني، وأَرُد إليك ما أكلت لك، وهذا ثمنه، ففعلا ذلك.

وإنما ضربتُ لك هذا المثل، لتعلم، أنك إذا غدرتَ بملِكك، ذا البلاء الحسَن عندك، فلا شك أنك بمن سواه أغدر، وأنه ليس للمودَّة عندك، منزلة ولا مكان، فإنه لا شيء أضيع، من إخاءٍ يُمنح، من لا وفاء له، وبلاءٍ يُضيَّع، عند من لا شُكر له، وأدب يُستودع، عند من لا يتأدب به، ولا يفهمه، ولا يسمعه، وسرّ يستودع مَن لا يحفظه، ولستُ في طَمَع، مِن تغيُّر طبيعتك، ولا تحوُّل أخلاقك، فإني قد عرفت، أنَّ الشجرة المُرَّة، لو طُلِيت بالعَسَل، لم تثمر إلا مرا، ولم تنقلب عن جوهرها، وقد خفت صحبتَك على رأيي وأخلاقي، فإنَّ ملازمة الأخيار، تورث الخير والسعادة، و ملازمة الأشرار، تلحق صاحبها الندامة، وتورِثُ الشرَّ، كالريح، إذا مرَّت بالنتن، احتملت منه، وإذا أتت على الطّيب، احتملت منه.

وقد عرفتُ ثِقَل كلامي عليك، فإن الناس، لم يزل يستثقل الجهَّال، عقلاءهم، واللؤماء كِرامهم، والسفهاء حلماءهم، والمعوجُّ منهم، المستقيم.

فانتهى كلام كليلة إلى هذا المكان، وقد فرغ الأسد من الثور.



ثم تفكَّر الأسد في أمره، بعد سكون الغضب عنه، فقال: لقد فجعني شربة بنفسه، وقد كان ذا رأي، وعقل، ونبل، ولا أدري، لعلَّه كان بريئاً، أو مَبغِيًّا عليه، فحزن، وندم على ما كان منه، وتبين ذلك في وجهه.

وبصُر به دمنة، فترك مُحاورة كليلة، وتقدَّم إلى الأسد، وقال: قد أظفر الله الملك، وأهلك عدوه، فما الذي تهتم له أيها الملك، ويحزُنك؟

فقال الأسد: لقد أشفقتُ على قتل الثور، لعقله، وكرم خُلُقه.

قال دمنة: لا تفعل ذلك أيها الملك، فإن العاقل، لا يرحم من يخاف، وإن الملك الحازم، ربما أبغض الرجل، وأقصاه، ثم بعد ذلك، قربه، وولاه، لما يعرف من فضله، فعل الرجل المتكاره على الدواء الشنيع، رجاء منفعته.

وربما أحب الملك الرجل، فأدناه، ثم أقصاه، وأهلكه، مخافة ضرره، كالذي تلدغ الحية إصبعه، فيقطعها، ويتبرأ منها، مخافةَ أن ينتشر السمُّ في جسده كله، فيقتله.

فلمَّا سمع الأسد ذلك من دمنة، رضي به، فصدَّقه، وقرَّبه.

ثم، قال الفيلسوف للملك: فكان في صُنع دمنة، في صِغَرهِ، وضعفه، بالأسد والثور، ما شغب به بينهما، وألَّب كل واحد منهما على صاحبه، حتى قطع وُدَّهما وإخاءهما، من العِبَر لذوي الألباب، في الاتقاء والحذر، لأهل النميمة والوهْس (الشَّرُّ)، والنظر، فيما يزوِّقون (زَيَّنَ)، من خديعتهم، ومكرهم، وسِعايتهم.

وذوو العقول، أحقُّ أن يتقوا كذب أولئك، ويتجنبوا عطبهم، ويفحصوا عن هذه الأشياء منهم، ثم لا يُقدِموا على شيءٍ من أقاويلهم، إلا عن تثبت، وضياء، ونور، وأن يرفضوا كل من عَرَفوا، مِثلَ ذلك منه، فإنه، الرأي، والحزم، والأخذ بأمر السعادة ، إن شاء الله.

باب الفحص، عن أمر دمنة

قال الملك للفيلسوف، قد فهمت كلامك عن الواشي، الماهر بالخلابة، المحتال، كيف يفسد، بتشبيهه، وتلبيسه، وبالنميمة، الودَّ الثابتَ بين المتحابين. فأخبرني، إلامَ آل أمر دمنة بعد قتل شربة، وما كان من معاذيره عند الأسد وأصحابه، حين راجع الأسد رأيه في الثور؟

قال الفيلسوف: بلغنا، أن الأسد لما قتل شربة، ومرَّ عليه أيام، ندم على معاجلته إياه بالقتل، وذكر قديم صحبته، وجسيم خدمته، وأنه كان أكرم أصحابه عليه، وأنه كان يواصل له المشورة، فكان الاسد يطيل مسامرة أصحبه.

وكان من أخص أصحاب الاسد بعد الثور، النمر. فلما كان ذلت ليلة، خرج النمر من عند الأسد، وأمست، فخرج النمر يطلب قبسًا، من منزل كليلة ودمنة.

فلما انتهى إلى الباب، إذا هو بكليلة، يعاتب دمنة على ما كان منه، ويعذله (يلومه) على سوء رأيه، وعلى النميمة، واستعمالها مع الكذب، والبهتان، في حق الخاصة، وما ارتكب من شربة في غير ذنب أتاه إليه، فكان فيما قال كليلة لدمنة: لقد ارتكبت مركباً صعباً، ودخلت مدخلاً ضيقاً، وجنيت على نفسك جنايةً موبقةً، عاقبتها وخيمةٌ. سوف يكون مصرعك شديداً، إذا انكشف للأسد أمرك، واطلع عليه، وعرف غدرك ومحالك،

وبقيت لا ناصر لك، فيجتمع عليك الهوان والقتل، مخافة شرك، وحذراً من غوائلك.

أنا جدير بمباعدتك، والتماس الخلاص لي، مما وقع في نفس الأسد من هذا الأمر، ولقد بان عندي من كلامك وفعالك. إن سعيك ليس بشيء، ولست لي برفيق، فأنت لست حافظ للعهود والمواثيق، وسعيك سعي مكر وخداع. لست بمتخذك بعد اليوم خليلاً، ولا مفشٍ إليك سراً، ولا مُقارِبك في شيء. إن العلماء قد قالوا: تباعد عمن لا رغبة له في الخير، والبر، والصلاح، وانما عمله، النميمة، والافساد. وكذلك، حملتَ الملك، على خليله البريء، الرَّفيق، العالِم، ولم تزل به، حتى اتهمه، فقتله.

لما سمع النمر هذا من كلام كليلة، رجع، ودخل على أم الأسد، وأخذ عليها العهود والمواثيق، أن لا تفشي ما يسر إليها. فعاهدته على ذلك، فأخبرها بما سمع من كلام كليلة ودمنة.

فلما أصبحت، قامت ودخلت على الأسد، فرأته كئيباً، حزيناً، مهموماً، فلمّا عاينت ذلك منه، عرفتْ أنَّه ليس إلَّا على الثور، فقالت: ما شأنك وما بال الحزن قد أخذ منك مأخذا مفرطا، ما هذا الهم الذي قد غلب عليك؟

قال: يحزنني قتل الثور، إذ تذكرت صحبته ومواظبته على خدمتي، وما كنت أسمع من مناصحته.



قالت: إنَّ الأسف والهمّ، لا يردَّان شيئًا، وهما يُنحِلان الجسم، ويُذهِبان العقل، ويُضعِفان القوَّة. إن كنت ترى أن في حزنك هذا، ومواظبته، فرجا، فأعلمنا، لنحزن جميعا، وإن كان لقتلك شربة، فاسمع مني، واقبل مناصحتي. لعمري، إنك ارتكبت في هدر دمه خطأ عظيما، وإنك ركبتَ ذلك منه ظُلمًا، على غير جُرم، وقد قالت العلماء، الضمير قاض عادل.

قال الأسد: ما زلتُ للثور سليمَ الصدر، وقد دخل عليَّ لقتله همٌّ شديد. إني لنادِمٌ على ما كان منِّي، ومتوجِّع، وما أشكل عليَّ الرأيُ أنه كان بريئا مما لُطِخ به، صحيح الاديم غيرُ متَّهم، ولكنه حملني على ما صنعت، تحميل الأشرار، وتمتمتهم، وبَغيهم، وزخرفتهم الكلام الكاذب، الذي لم يكن الثور له خليقا.

قالت أم الأسد: إن أشد ما شهد، امرؤٌ، بلا علم ولا يقين؟

قال الأسد: قد فهمنا ذلك، ولكن، أعلِميني، هل سمعتِ شيئًا، أو حدَّثكِ به أحد؟ فإن للألفاظ شبهات كثيرة؟

قالت أم الأسد: لولا ما قالت العلماء في إذاعة الأسرار، وما فيها من الإثم والشنار (عار)، لذكرت لك، ولأخبرتك بما علمت.

قال الأسد: إن أقوال العلماء، لها وجوهٌ كثيرةٌ، ومعانٍ مختلفةٌ. إني لأعلم صواب ما تقولين، إن كان عندك رأي، فلا تطويه عني، وإن كان قد أسر إليك أحدٌ سراً، فأخبريني به، وأطلعيني عليه، وعلى جملة الأمر.

قالت أم الأسد: إني لم أجهل قول العلماء، في تعظيم العقوبة وتشديدها، وما يدخل على الرجل من العار، في إذاعة الأسرار، ولكني أحببت أن أخبرك بما فيه المصلحة لك. حدَّثني الصادق الأمين، أنَّ دمنة لم يركب من الثور، ما ركب من تحميله إياك عليه، إلا لحَسَده إياه على منزلته منك، ومكانه عندك.

قال الأسد: ومن خبَّرك بذلك؟

قالت أم الأسد: قد استحفظني (ائتمني)، والمستكتَم مُؤتمن، ومن أفشى سرًّا استودعه، فقد خان أمانته، ومن فعل ذلك، كان بشرِّ المنازل في المعاد (الآخرة).

قال الأسد: لعمري لقد صدقتِ، وإن ذلك لعلى ما وصفت، ولكن، ليس هذا مما ينبغي أن يُكتَم، بل يحقُّ على صاحبه أن يُعلِنه، ويُظهِرَ شهادته عليه، ويستكملَ الأجر فيه، ولا يبطلَ حقًّا عليه، ثم لا سِيَّما في دم المظلوم، فإن الكاتم لجُرم المجرم، في ريع (عائِد) منه، مع شركه إياه فيه.

وإنَّ السلطان، لا ينبغي له أن يُعاقب على الظنّ والشبهة، حتى يستضيئ. قال الله تعالى: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا، الآية، فيتبينوا له الامر.

إنَّ الدم عظيم شأنه، وأنا وإن كنتُ أُوطئتُ عشوة (ركوب الأمر على غير تبصر وهدى) في الثور، فأنا أكره أنْ أركب من دمنة مثلها، من غير بيّنة ولا يقين، وقد برى إليكِ من أخبرك بما ذكرتِ، وقذفه في عنقك.

قالت أمُّ الأسد: صدقتَ، ولكني كنتُ أظنُّ أنك تستكفي بما حدَّثتك، وتصدِّقني به، ولا تتهمني عليه.

قال الأسد: ما أنتِ عندي بمردودة القول، ولا أنتِ في نفسي بمتَّهمَة، ولا أنا في نصحك بمرتاب، ولكن، أُحبُّ أن تُعلِميني من هو، فيكون أسعى لصدري، وما عليكِ ألا تُخبريني من ذكر ذلك لك؟ فإنه لا مضرةَ فيه عليك؟

قالت أم الأسد: منقصة ذلك، سقوطي عند من استودعني سره، وانقطاع، ما بيني وبينه من المودة، لإباحتي بسرِّه، الثانية خيانتي ما استُحفِظت من الأمانة، الثالثة وَجل من كان يسترسل إليَّ قبل اليوم، وقطعُهم أسرارهم عني، ومتى أفعلْ ذلك لا يثِق بي أحد، ولا يطمئن إليَّ أحد.

فلمَّا سَمِعَ الأسدُ ذلك منها قال: الأمر على ما قلت.

قالت: لستُ أجهل قول العلماء، في تعظيم فضل العفو عن أهل الجرائم، وكان فيما يُقال: لا ينبغي للولاة، استبقاء الخونة الفُجَّار، أهلِ الغدر والنميمة، والتحيُّل والإفساد بين الناس.

وإن إفساد جُلّ الأشياء، من قِبَلِ خلَّتين: إذاعة السر، وائتمان أهل الفجور.

وإنَّ الذي أنشب العداوة بينك وبين الثور، أنصحِ الوزراء، وخيرِ الأعوان، حتى قتلته غدرًا، دمنةُ، بحيلته، وخِلابه، ومكره وخيانته.

فالراحة لك ولجندك قتلُه، عقوبةً لجريمته، وإبقاءً على جندك من شرِّه، فإنه ليس على مثلها بمأمون.

ولعلك أيُّها الملك، أن تركن إلى ما آثرتَهُ من العفو، عن أهل الجرائم، فإن روَّأت في ذلك، فاعلم، أنه ليس منهم، من يبلغ جُرمه، جرمَ دمنة.

فلما قضت أم الأسد هذا الكلام، نادى في جموعه، فاجتمعوا فأدخلوا عليه، ثم أمر أن يؤتى بدمنة.

ونكَّس الأسد رأسه مستحييًا، لما فعله ظلما من قتل الثور، فلما رأى دمنة ذلك منه، قال لبعض من وقف بين يدي الأسد، متجاهلًا: ما لي أرى الملك مكتئبًا مهمومًا؟ ما الذي حدث؟ وما الذي أحزن الملك؟ هل حدث أمر جمعكم له؟

فالتفتت أم الأسد إليه وقالت: إنما ترى ذلك من حال الأسد، لتركه إياك الى اليوم حيا، بعد صنعك به ما صنعت، من نميمتك، وخداعك، ومكرك، وحملك إياه بتمتمتك وفجورك، على قتل الثور. لقد أحزن الملك بقاؤك، ولو طرفة عين، ولن يدعك بعد اليوم حياً!

قال دمنة: وما الذي جنيت، مما يُستحلُّ به قتلي، ويكرُب الملك بقائي؟



قالت أم الأسد: أعظمُ الحدث حدثك، وأشدُّ الخيانة خيانتك، واستجهالك الملك، وقتلُك البريء من وزرائه.

قال دمنة: ما ترك الأول للآخر شيئاً، وما اسمع الذي يقال إلا حقا، إن الذي يجهد نفسه في طلب الخير، الشر أسرع إليه. لا يكونن الملك وخاصته وجنوده المثل السوء، وقد قيل: من صحب الأشرار، وهو يعلم حالهم، كان أذاه من نفسه. لذلك، انقطعت النساك بأنفسها عن الخلق، واختارت الوحدة على المخالطة، وحب العمل لله، على حب الدنيا وأهلها. ومن يجزي بالخير خيراً، وبالإحسان إحساناً، إلا الله؟ وإن من طلب الجزاء على الخير من الناس، كان حقيقا أن يحظى بالحرمان، إذ يخطئ الصواب في خلوص العمل لغير الله تعالى، وطلب الجزاء من الناس.

إن أحق ما رغبت فيه رعية الملك، هو محاسن الأخلاق، ومواقع الصواب، وجميل السير، وما أحدٌ أحقٌّ بالصفات الجميلة، من الملك الموفَّق، الذي لا يُصانع أحدًا، لحاجة به إليه، ولا لعاقبةٍ يتخوَّفُها منه، فإنَّ أحقَّ ما عظمت فيه رغبة الملوك من محاسن الصواب، المكافأة لأهل البلاء الحسن عندهم، ومن يرقى إليهم نصيحته، وهذا أقرب من أمري.

فإنه حملني النصح للملك، والإيثار له علي، أن أطلعته سرِّ الخائن الكفور، وما كان ربَض في نفسه، وارتفعت إليه همته، من الغدر بالملك، والوثوب عليه، وأعلمته ما رأى من العلامات والشامات، فاستبان ذلك له، ولم يأته إلا عن بصيرة، وإن هو أيضًا تحرَّى الأمر، وسأل عنه، ونظر فيه، عرف مصداق ما كنتُ قلتُ له، وإنَّ جُرم المرء، إذا فُحِص عنه وتبين، ازداد استنارة واستبانة.

ولقد علم الملك، ومَن حضر، أنَّه لم يكن بيني وبين الثور، أمرٌ أضطغنه عليه، ولا أبغيه به غائلة (شرٌّ)، وما كان يملك من ضرٍّ ولا نفعٍ لي، وإني لأعرف، أنه يتخوف مثلها منِّي غيرُ واحدٍ من أهل الغشِّ، والعُدوان، والعداوة للملك، فنصبوا لمصيبتي واجتمعوا على هلاكي.

أيها الملك، لستَ بحقيق بمعاجلة أحد بالعقوبة، عن قول الأشرار، دون الفحص والتثبُّت، وإني لواثقٌ عن فحصك، ببراءتي وتصديق مقالتي، ولو كنتُ مُجرمًا سرَّني تركُك التفتيش عنِّي، ولو كنتُ مذنبًا، لهربتُ في الأرض، وكان لي فيها مذهب، ونجوت، ولَمَا كُنت مُرابِطًا بباب الملك. ولكني، لثقتي، وبراءتي، ونصيحتي، لم أبرحه ولم أفارقه، وأنا أرغب إليه، إن كان في شك من ذلك، أن لا يأخذ في الحق لومة لائم، ولا يكون عنده محاباة لأحدٍ، ويرفعُ إليه عذري، وما يسمع من غيري، فينظرُ فيه، ولا يأخذ بأقاويل البُغاة الحَسَدة. فإن أخذ بالأقاويل، فلا ملجأ لي إلا الله، الذي يعلم السر، وخفى الضمير، وقالت العلماء، إنَّ الذي يعمل بالشبهة، ولا يتثبت فيها، صدق ما ينبغي أن يكذب، وكذب ما ينبغي أن يصدق. فينبغي ألا يعجل الملك في أمري بشبهة.

ولست أقول ما تسمع، شفقا من الموت، فإنه، وإن كان كريهاً، لا منجى منه، ولا محيص عنه، وكل حيٌ هالكٌ. ولو كانت لي مائة نفس، وأعلم أن هوى الملك في إتلافهن، لطبت له بذلك نفساً.

قال بعض جند الملك: إنك لم تنطق بهذا لحبِّ الملك، ولا لكرامته، ولكن نطقت به لخاصه بنفسك، والتماس العذر مما وقعت فيه.

قال دمنة: ويلك! وهل علي في التماس العذر لنفسي عيب؟ وهل أحدٌ أقرب إلى الإنسان من نفسه؟ فإذا لم يلتمس لها العذر، فلمن يلتمسه؟ قد ظهر منك ما لم تكن تملك كتمانه من الحسد والبغضاء، ولقد عرف من سمع قولك أنك لا تود لأحدٍ خيراً، وأنك عدو نفسك، فمن دونها، ومثلك لا يصلح أن يكون مع البهائم، فضلاً عن أن يكون مع الملك، وأن يكون ببابه.

فلما أجابه دمنة بذلك، خرج مستخفيا، مستحييا، منكسرا.

قالت أم الأسد لدمنة: إن أعجب العجب، إطلاق لسانك بالجواب، وقلة حيائك، وكثرة وقاحتك، وقد كان الذي كان منك.

قال دمنة: لأنك تنظرين إلي بعينٍ واحدة، وتسمعين مني بأذن واحدة، وكذلك سعى، لقد سعوا إلى الملك بالنميمة علي، فليس أحدٌ يتكلم إلا بالهوى، وقد صار من بباب الملك، لما بلوا من حلمه، ولين عركته، وصحفه وتجاوزه، لا يتقون فيما وافق الحقّ، لاستخفافهم به، وطول كرامته إياهم، ولا يدرون في أي وقت ينبغي لهم الكلام، ولا متى يجب عليهم السكوت.

قالت أمُّ الأسد: ألا تنظرون إلى هذا الغادر الفاجر، الذي ركب من الأمر العظيم ما ركب، وهو يريد أن يأخذ بأعين الناس، ليُبطله، ويبرئ نفسه منه!

قال دمنة: إنما صاحب ذاك، الذين يعملون غير أعمالهم، وليسوا على شيء، كالضيف الذي يقول أنا رب البيت، وكالذي ينطق بين الجماعة، بما لا يسأل عنه. وإنما الشقي، من لا يعرف الأمور، ولا أحوال الناس، ولا يقدر على دفع الشر عن نفسه، ولا يستطيع ذلك.

قالت أُمُّ الأسد: لو تعرف سوء عملك، فتقتصر عما أسمع من قولك؟

قال دمنة: إنَّ الذي يعمل على الشر، لا يحب للناس الخير، ولا دفع الشر عنهم.

قالت أم الأسد: أيها الفاجر، إنك لتجترئ على مثل هذا القول عند الملك! العجب كيف تترك حيًّا!

قال دمنة: إنَّ صاحب ما وصفتِ، الذي يؤتى بالنصيحة، ويمكَّن من عدوه، فإذا استمكن منه قتله، ثم لا يشكر ذلك، ولا يعرفه لمن فعله، ويُريد قتله بغير ذنب اجترمه.

قالت أم الأسد: الكاذب الذي يقول ما لم يكن، ولم يفعل، أيها الغادر الكذوب، أتظن أنك ناجٍ من عاقبة كذبك؟ وأن محالك هذا ينفعك مع عظم جرمك؟

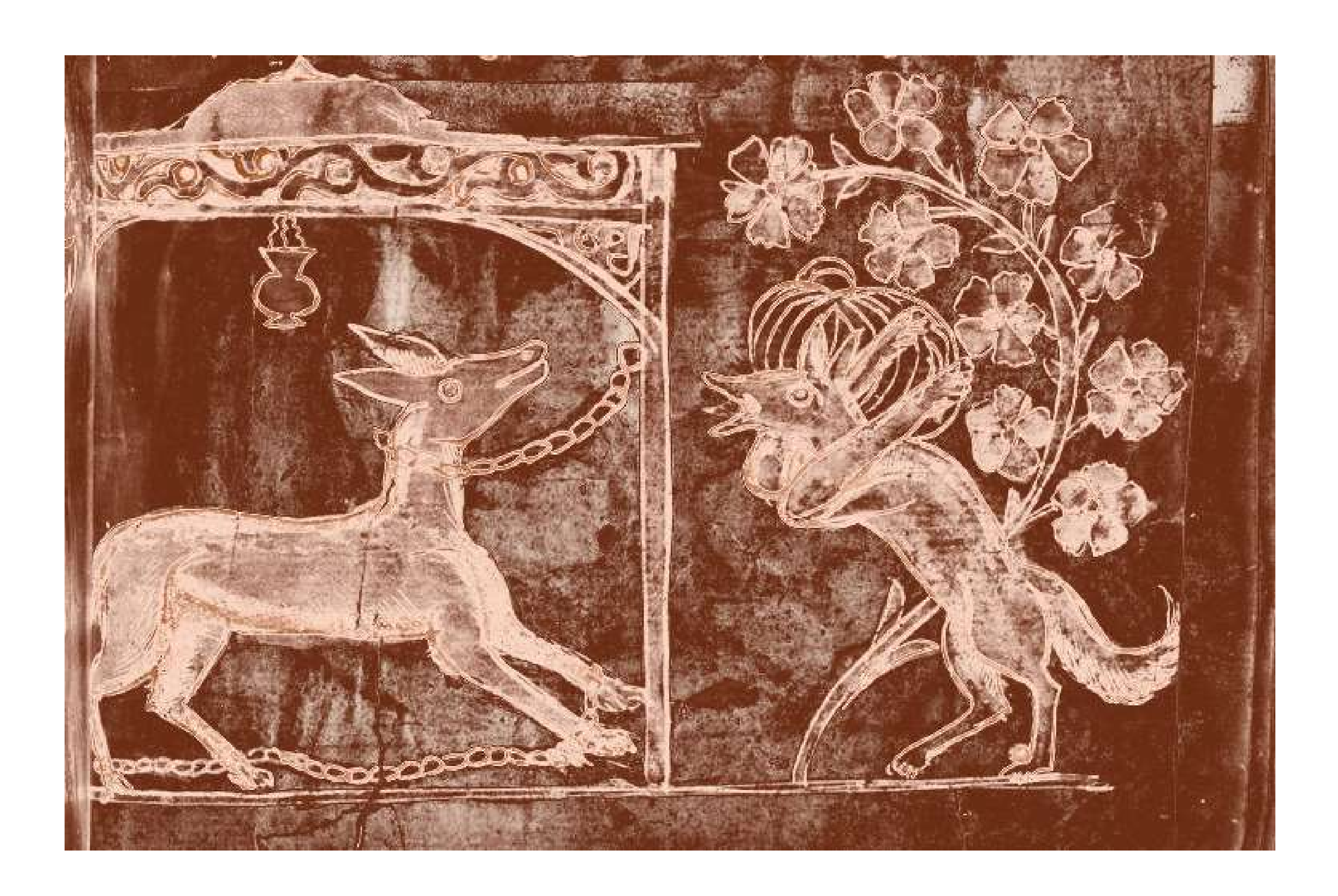
قال دمنة: أنا فعلت الذي كان، وصدقت قولي بفعلي، وجئت عليه بالثَّبَت والحُجَّة، الملك يعلم أني لو كنت كاذبًا، لم أقُلْ هذه المقالة عنده، وإني أرجو أن يستبين له صدقي، وبراءتي، وصحة ما قلت.

فلمَّا رأت أم الأسد، أن الأسد لا ينطق بشيء، قالت: لعله مكذوب عليه.

فأمر الأسد عند ذلك، بالنظر بأمر دمنة، وأمر بحبسه، فألقي في عنقه حبلٌ، وانطلق به إلى السجن.

فقال الأسد: إني ناظر في أمره، وفاحص عنه، فإنه لبيب، داهية، عالم، فطن، وأنا متثبت فيه، غير عاجل عليه، ولا أشتري ضر نفسي بإتباع هوى غيري، مما لا أدري صدقه من كذبه.

فلمَّا ذهبت هدأةٌ (جزء) من الليل، بلغ كليلةَ أنَّ دمنة قد حُبِس، فانطلق إليه يهمس همسًا، فلمَّا رآه موثقًا، بكى بكاءً شديدا، وقال: لا أغلظ لك في القول، ولا أستقبلك بما تكره منه، وهل تذكر الذي كنت أشير به عليك، فلم تلتفت إليه، ولم تأخذ به، غير أن العجب دخل منك مدخلاً قهر رأيك، وغلب على عقلك، وذهب بقوتك وحلمك وفطنتك.



ما وصلت إلى ما وصلت إليه، إلا لاستعمالك الخديعة والمكر، وإضرابك عن العظة، ولقد كنتُ رأيتُ ذلك وأبلغتُ في الموعظة، وكنت أضرب لك الأمثال كثيراً، وأذكرك قول العلماء، وقد قالت: لكل مقامٍ مقالٌ، ولكل موضعٍ مجالٌ، ولو كنت قصرت في عظتك حين كنت في عافية، لكنت اليوم شريكك في ذنبك.

فقال دمنة: إنك لم تَزَلْ تتكلم بالحقّ، وتأمر به، ولكن، لم أقبل منك، وغلبني ما كان فيَّ من الشَّرَهِ والشهوة، لما كنت عليه من البلاء والشقاوة، ولولا ذلك، كان فيما وعظتني به خلوص، وحمدت عاقبته، وقد قالت العلماء: إنَّ الذي لا يسمع من نُصَحائه يصير أمره إلى النَّدامة، وقد حلَّ ذلك بي، ودخل علي، ولكن ما عسيتُ أن أصنع؟ فإنَّ الحرص وطموح النفس، يغلبان رأي الحكيم، ونظر العالِم، كالمريض، الذي قد عرف أنَّ شهوته من الطعام، مُضِرَّة به، مُشدِّدة للوجع عليه، فلا يدع تناولَها والإصابةَ منها، فيزداد مرضا، فلعلَّه يموت منه.

ولستُ أحزَن اليوم على نفسي، ولكن أحزن عليك، لأني أخافُ أن تؤخذ فيَّ، بسبب الذي بيني وبينك من القرابة، فتعذَّب، فلا تجد بدًّا من إطلاعهم على أمري، فأُقتَل لتصديقهم إياك، ولا تنجو بعدي.

فقال كليلة: قد فكَّرتُ في ذلك كله، وقد يُضطرّ الرجل إذا نزل به البلاء، إلى أن يقذف نفسه بما لم يفعل، ولم يعلم، رجاءَ الحياة والتخفيف عنه. وقد طال مقامي عندك، وأنا منطلق خيفة أن يدخل أحد فيراني عندك، أو يسمع تحاورنا مستمع، وأنا أُشير عليك أن تعترف بذنبك وتقر بجرمك، فإنك ميّتٌ لا محالة، وإنك إن تُقتل في الدنيا بما كان منك، خيرٌ لك من العذاب الدائم، في الآخرة.

قال دمنة: قد عرفت صدق مقالتك، والعمل به شاقٌّ، ولكني، ناظر في الذي يصير إليه آخر أمري.

ثم إنَّ كليلة انصرف إلى منزله، فوقع في همٍّ وحزن، مخافةَ أن يؤخذ بذنب دمنة، فاسْتَطْلَقَ (استعجل) الأَمْر، فمات.

وكان بقربهما في السجن فهدٌ معتقلٌ، يسمع كلامهما، ولا يريانه، فعرف معاتبة كليلة لدمنة على سوء فعله، وما كان منه، وأن دمنة مقرٌّ بسوء عمله، وعظيم ذنبه، فحفظ ذلك وكتمه.

ودخلت أم الأسد، حين أصبحت، على الأسد، فقالت له: يا سيد الوحوش، حوشيت أن تنسى ما قلت بالأمس، وأرضيت به رب العباد، فإنك أمرت به لوقته، وإنه لينبغي للمرء أن لا يتوانى في الجد للتقوى، وإني لا أعرف أمرًا أعظم أجرًا، من أن يدافع بذنب الأثيم، و إنَّ المُعين لذي الآثام شريك.

فلما سمع الأسد كلام أمه، أمَرَ النّمر، والقاضي، أن ناديا في الجند، صغيرهم وكبيرهم، أن يحضروا، وينظروا في حال دمنة، ويبحثوا في شأنه، ويفحصوا عن ذنبه، ويثبتوا قوله وعذره في كتب القضاء، ولا يَدَعا من ذلك شيئًا، إلَّا يرفع إليه.



فخرجا لذلك، وجمعا الجند، وبعثوا إلى دمنة، فلمّا مضى من اليوم الذي جلسوا فيه ثلاث ساعات، أُتيَ به، وتوسَّط مَحفِلهم، فانتصب النمر، وجهر بصوته وقال: أيها الجمع، إن الملك، لم يزل منذ قتل الثور، مهموما كئيبا وجِلًا، أن يكون قد قتل الثور على غير ذنب، وأن يكون دمنة شَبَّه عليه في أمره، بكذبه ونميمته وبغيه، وأن يكون أرهقه فيه، وأَحَبَّ أن يستيقن ذلك، فأنتم أحقٌّ ألَّا تكتموه سرًّا ولا تدَّخِروا عنه نُصحًا، ولا تُخفوا عليه حرفًا، فمن علم منكم شيئاً في أمر دمنة من خيرٍ أو شرٍ، فليقل ذلك، وليتكلم به على رؤوس الجمع والأشهاد، ليكون القضاء في أمره تحسب ذلك، فإنه لا يقتل، إلا بعد الفحص والتثبت واليقين، لا اللهو، ولا المجانة، والعجلة من الهوى، ومتابعة الأصحاب على الباطل ذل.

فقال القاضي: أيها الجمع، انظروا ما يتكلم به الأمين الصدوق، فاتَّبعوه، وقد سمعتم الذي قيل لكم، فلا يكتُمَنَّ أحدٌ منكم شيئًا عَلِمه، لثلاث: الصدق فيما استُشهِدتم به، ومن علم من أمر، فلا يصغر منه شيئا، فإن يسير الحق عظيم، والثانية، عقوبة المذنب بذنبه، وأنه إذا قتل الأشرار، ذوي الفجور، ونُفُّوا من الأرض، في ذلك صلاح الملك، والرعية، والثالثة، ترك مراعاة أهل الذم والفجور، وقطع أسباب مواصلاتهم ومودتهم. فليقُلْ

كل امرئ منكم ما يعلم، ولا يكتم حقا، ولا يثبت باطلا، كي يكونَ القضاء في ذلك على الحق، لا على الهوى والبغي.



فلما سمع ذلك الجند، نظر بعضهم إلى بعض، وأمسكوا عن القول، فإنهم لم يعلموا من أمره عِلمًا واضحًا يتكلمون به، وكرهوا القول بالظنون، تخوُّفًا أن يفصِل قولهم حُكمًا، ويوجبَ قتلًا.

فقال دمنة: ما لكم سكوت؟ تكلموا بما علمتم، واعلموا، أن لكل قول ثوابا، وقد قالت العلماء: من زعم أنه قد رأى ما لا يرى، وعلم ما لم يكن يعلم، أصابه ما أصاب الطبيب الجاهل المتكلف، الذي قال لما لا يعلمه: إني أعلمه.

قالت الجماعة: وكيف كان ذلك؟

١ - مثل الطبيب الجاهل

قال دمنة: زعموا، أنه كان في بعض المدن، طبيب، عالمٌ، له رفق ودواء، فكبر ذلك الطبيب وضعف بصره.

وكان لملك تلك المدينة، ابنة كريمة عليه، قد زوجها لابن أخ له، فعرض لها ما يعرض للحوامل من الأوجاع.

فجيء بهذا الطبيب، فلما حضر، سألها عن وجعها وما تجد، فأخبرته، فعرف دائها ودواءها، وقال: لو كنت بصير، لجمعت الأخلاط على معرفتي بأجناسها، ولا أثق في ذلك بأحد غيري.

وكان في المدينة رجل جاهل سفيه، فبلغه الخبر، فأتاهم، وادعى علم الطب، وأعلمهم انه خبير بمعرفة أخلاط الأدوية والعقاقير، عارف بطبائع الأدوية المركبة والمفردة، فأمره الملك، أن يدخل خزانة الأدوية، ويأخذ من أخلاط الدواء حاجته.

فلما دخل السفيه الخزانة، وعرضت عليه الأدوية، ولا يدري ما هي، ولا له بها معرفة، أخذ في جملة ما أخذ منها، صرة، فيها سمّ قاتل لوقته، وخلطه في الأدوية، ولا علم له به، ولا معرفة عنده بجنسه.



فما إن تمت أخلاط الأدوية، سقى الأميرة منه، فتقطَّعت أمعاؤها، فماتت لوقتها. فلما عرف الملك بذلك، دعا بالسفيه، فسقاه من ذلك الدواء، فمات من ساعته.

وإنما ضربتُ لكم هذا المثل، كي لا تتكلموا بما لم تعلموا، تلتمسون به رضا غيركم، فيصيبَكم ما أصاب ذلك الطبيبَ الجاهل، فإنَّ العلماء قد قالوا: إنما جزاء كل أحدٍ بقوله وفعله، وأنا بريءٌ مما لُطِخت به، قائمٌ بين أيديكم، فاتقوا الله ما استطعتم.

فتكلم رئيس الجبارين، إدلالًا بمنزلته من الأسد وأمّه، فقال: يا أيها الجند، اسمعوا مقالتي، وعوا بأحلامكم كلامي، إن العالم، لم يدع شيئا من آيات الأشياء والأخبار، وأنتم معشر ذوي الاقتدار، بحسن صنع الله لكم، وتمام نعمته لديكم، تعرفون الصالحين بسيماهم، وصورهم، وتخبرون بالشيء

الصغير الشيء الكبير، وإنَّ علاماتِ الفجور في هذا الشقيّ ظاهرةٌ، فاطلبوها على ظاهر جسمه وباطنه، وقد ظهر له مع ذلك، بنا سُوء.

قال عظيم الجند: قد علمت، وعلم الجماعة الحاضرون، أنك عارف بما في الصور، من علامات السوء، ففسر لنا ما تقول، وأطلعنا على ما ترى في صورة هذا الشقي.

فقال رئيس الجبارين: إنا نجد، في كتب العلماء، أنَّ من كانت عينُه اليسرى صغيرة، كثيرة الاختلاج، وأنفه مائل إلى شقِه الأيمن، وما بين حاجبيه من الشعر متباعدًا، ومنابت شعره ثلاث شعرات ثلاث شعرات، وإذا مشى نكَّس رأسه ولا يزال مُلتفتًا ورائه، فإنه شقي خبيث جامع للخب (الخبث والخداع والغش) والفجور، وهذه العلامات كلُّها، في هذا الشقي ظاهرة.

قال دمنة: نحن كلنا تحت السماء، وأنتم ذوو حلم، وتقيسون الكلام بالعلم، وقد فهمتم ما قال هذا، فاستمعوا منّي، فإنه لا يظن أنه أحد أعرفُ بالأمور منه، وأنه لا عِلم إلَّا عِلمُه، فإن كان ما ذكر من العلامات حقًّا، فلا يستطع أحد أن يعمل خيرًا ولا شرًّا إلَّا بها، وإنَّما تجازُون بذلك وتعاقِبون عليها، وليس لأمرئ من رأيه شيء، فليس بمُجتهد وإن حرَص على الخير، ولا مسيء وإن أذنب.

وقد شقيتُ أنا بالعلامات التي وجدت في جسدي، وليس إلا إن كانت، وأعوذ بالله أن تكون، ولو كان إلى الناس من ذلك شيئا، جعلوا فيهم أفضل ما يقدرون عليه من الآيات والشامات، ولم يكن مني غير العافية، ولم أركب غير الحقِّ، وقد استبان لمن حضر قلةُ عقلك، وقلةُ علمك بالأمور وبصرك بها، وقد قال رجل لامرأته: احفظي نفسك، ودعي الناس، وأصلحي عيوبك التي أنتِ بها أعرف، وذلك مَثَلُك.

فقال رئيس الجبارين: وكيف كان ذلك؟

قال دمنة: انطلق رجل، وامرأتان ذات يوم يحتطبون، فوجدت إحداهما خِرقة بالية، فقالت الأخرى: ألا تنظر إلى هذه؟ فقال لها: ويحك، ألا تنظرين أنت إلى نفسك؟ أو تعيبين؟

وأنت أيضًا، وشأنك من أعجب العجب، وما في جسدك من القروح، والنتن، وأنت تقوم بين يدي الملك، وتلي طعامه، وقد علم عيوبك غيري من الجند، ولم يكن يمنعني من الكلام إلا لكرامتي إياك، وكنتُ لك أخًا، وكنتُ أحفظك لذلك، فأمَّا إذ باديتني بالعداوة، ونطقت بالبهتان، فأنت لا ينبغي لك أن تكون للملك، إلا دباغا وحجاما، وما ينبغي لك أن تكون بالمنزلة التي أنت بها.

قال رئيس الجبارين: ما تقول؟ ألي تقول هذه المقالة، وتلقاني بهذا الملقى؟

قال دمنة: أقول ما تسمع، وحقاً قلت فيك، وإياك أعني، أيها الأعرج، المنفوخ البطن، السيءِ المنظر والمخبر.

فلما قال ذلك دمنة، تغير وجه رئيس الجبارين، وتلجلج (تَرَدَّدَ في كَلامِهِ، وَلَمْ يُبَيِّنْهُ) لسانه، وخنقته العَبرة (الدمعة قبل أن تفيض)، فبكى لجُرأته عليه، وإغلاظه له، فقال دمنة: إنه ينبغي لك أن تبكي وتُرسل دموعك، فإنَّ الملك، لو قد اطَّلع عليك، وعلى أمرك، وعلم الذي أنت عليه، أقصاك وأبعدك.

فلمَّا سمع ذلك أمين الأسد، الذي كان أمره بحفظ ما يقولون، رفعه إلى الاسد، فعزل الاسد رئيس الجبارين عن عمله، وأمر بإخراجه وأقصي عنه. وكتب النمر والقاضي ما قال دمنة، وما قيل له، وختما عليه، وبعثا به إلى السجن.

ثم إن شغبر (ابن آوى)، كان بينه وبين كليلة إخاء ومودة، انطلق إلى دمنة فأخبره بموت كليلة، فبكى بكاءً شديدًا، وقال: ما أصنع بالدنيا بعد مفارقة

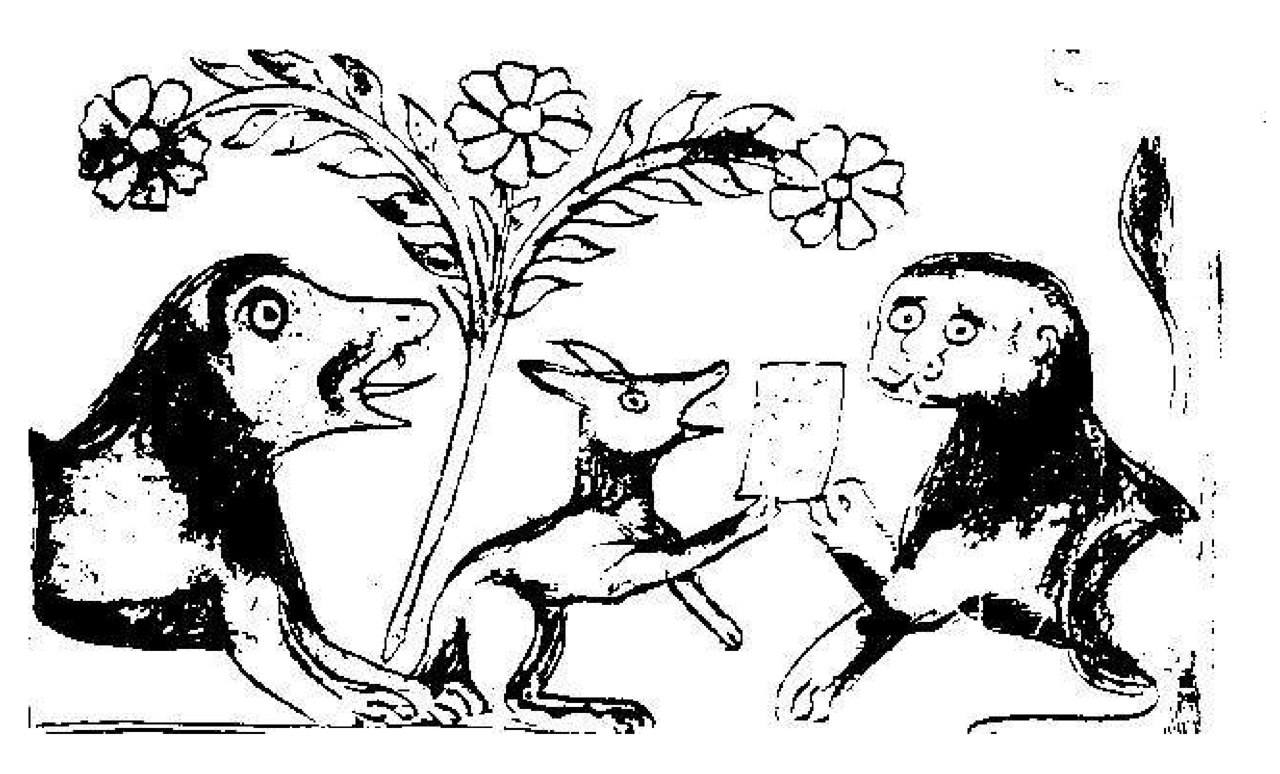
أخي وصَفِيّي؟



لقد صدق القائلُ: إنَّ الإنسان إذا ما ابْتلي، أتاه الشرُّ من كل جانب، واكتنفه الهمّ والحزن، وقد رأيت ما دخل عليَّ من موت مؤدِّبي، وشاهدي بما فيه رشدي، وقد أخلف الله لي منك أخًا، ليس بدونه، بل أرجو أن تكون أفضل عطفًا عليّ، ونظرًا لي، وأن تهتَمَّ في أمري بما يعتني به أخو الحفظ، فإن رأيت أن تنطلق إلى منزل كليلة، فتأتيني بما كان لي وله فيه فافعل، فلما جاء به، أعطاه نصيب كليلة كله، وقال: أنت أحقُّ به من غيرك، وطلب إليه أن يَحضُره عند الأسد بخير، وأن يأتي فيُعلِمه، ما تذكرُ منه أمُّ الأسد منه ، فوعده ذلك، وقبل منه ما أعطاه.

ثم إن الأسد بكّر من الغد، فجلس حتى إذا مضى من النهار ساعتان، فاستأذن عليه أصحابه فأذن لهم، فدخلوا عليه، ووافق ذلك دخول الشغبر. فوضعوا الكتاب بين يديه، فنظر فيها، وأمر كاتبه بنَسخِها، ودفعها إلى النمر، وقال له وللقاضي: انطلِقا بدمنة، ثم ارفعا إليَّ ما يكون منه، وعُذرَه في ذلك.

فلمَّا خرجوا من عند الأسد، دعا أمه، فقرأ عليها تلك الكتب، فقالت: إن أنا أغلظت في القول، فلا تَلمني، فإني لا أراك تعرف ضرك من نفعك. إنك لمغرور بقول هذا الفاجر المحتال، فاسترح منه، فإنك إن استبقيته، أفسد عليك جُندك، وفرَّق جمعهم، وانصرفَتْ من عنده وهي غَضْبا.



ثم إنَّ الشغبر أتى دمنة، فأخبره بذلك، فبينما هم في حديثهم، إذ أتاهم رسولُ القاضي، فانطلق به إليه.

فلما مثل بين يدي القاضي، قال عظيم الجند: يا دمنة، قد أنبأني بخبرك الأمين الصادق، وليس ينبغي لنا أن نفحص عن شأنك أكثر من هذا، لأن العلماء قالوا: إنَّ الله جعل لكل شيءٍ، من أمر الآخرة، علما، ومصداقًا في الدنيا، دلَّت عليه أنبياؤه ورسله، ولولا ما أمرنا به الملك، لرأفته ورحمته بالرعية، لكان القضاء بيّنًا عليك.

قال دمنة: إنَّ منطقك ليس بذي وجه، ولا رأفة، ولا نظر في أمر مظلوم، ولا طلب للحق والعدل، ولكني أراك راكبًا لهواك، تريد قتلي، ولم يستضئ لك شيءٌ من أمري وما قُذِفتُ به، ولم أبلغ ثلاثة أيام بَعد، ولستَ بملومٍ بذلك عندي، لأنَّ الفاجر لا يُحِبُّ الصلاح وأهله، ولا من يعمل أعمال أهل التقوى.

قال القاضي: إن نجد في كتب الأولين، أن حقًّا على القاضي العادل، أن يُجازِي المرء بصلاحه، ويَعرِفه له ويكرمه عليه، لأنَّه أهل كل خير، وأن يُنكِّل بالمجرم عن إساءته، ويعذِّبه، ويُعاقبه عليها، ليزداد أهلُ الخير في الصلاح رغبة، وأهل الجرائم عن الإساءة نُزوعًا، ولَعَمْرِي، لَأَنْ تُعاقب في الدنيا، خيرٌ لك من أن تُعذَّب في الآخرة غدًا، فأقِرّ بذنبك، وبُؤْ بإساءتك، واعترِف بصنيعك، فإنه أفضل لك في عواقب الأمور، إن أنت هُدِيت إلى ذلك، ووُفِّقت له.

فقال دمنة: أيها القاضي الصالح، نطقت بالعدل، وقلت مقالة الحكماء، ولعمري، إنَّ من خسران المرء، بيع آخرته بدنيا منقطعة، وأن يشتري رَوْحًا يسيرًا، بعذابٍ طويل، وأنا بريء مما لطخت به، وأنا مظلوم، لم أنطق بكذب، ولم ألتبس به، ولا يعرف ذلك مني.

فمعاذ الله، أن أبوء بما لم أجتني، فأكون معينا على نفسي وشريكا لمن أراد قتلي، فإنك قد تعرف عقاب من فعل ذلك في الآخرة. كيف آمُر بقتل نفسي، وأُعِينُ عليها، وأنا مظلوم؟ بل أنطق بكذب لم أتفوه به، ولم يُعرف مني!

فإن أردتم قتلي، مظلومًا فكفى بالله ناصرًا، ولعل ذلك إن فعلتموه، ألَّا يكون شرّ أمر لي، عاجلًا وآجلًا، وأنا أقول اليوم مقالتي بالأمس: اذكروا حساب الآخرة وعقابها، لا غدا حين لا تنفع الندامة.

وإنَّ القضاة لا تقضي بظنونها، وأنا أعلم بنفسي منكم، وعلمي بنفسي يقين لا شك فيه، وعلمكم بي كل الشك، وإنما قبح أمري عندكم، أني سعيت بغيري، فما عذري عندكم إذا سعيت بنفسي، كاذبا عليها، فأسلمتها للقتل والعطب، على معرفة مني ببراءتي، وسلامي مما قرفت به؟
وإياكم، أن يُصيبكم ما أصابَ القائلَ بما لا يعلم، وما لم يُحِطْ به خبْرًا.

قال عظيم الجند: وكيف كان ذلك؟

٣ - مثل: الفارس، والمرأة، والعبد

قال دمنة: زعموا أنه كان فارس، وكانت له امرأة حسناء لبيبة، وكان له عبدٌ، قد هَوِيَها، وعَرَّض لها مِرارًا، وكل ذلك لا تلتفت إليه، فأضمر في نفسه فضيحتها.

فخرج ذات يوم إلى الصيد، فصاد فرْخَيْ ببَّغَاء، فهيَّأ لهما وكرا، وجعل يعلِّم أحدهما أن يقول: رأيتُ البوَّابَ مضاجعًا مولاتي، وعلَّم الآخر أن يقول: أمَّا أنا، فلستُ بقائلٍ شيئًا، فحفظ الطيران ذلك، بلسان، لم يكن أهلُ تلك البلاد يعرفونها. فخرج ذات يوم إلى الصيد، فصاد فرْخَيْ ببَّغَاء، فهيَّأ لهما وكرا، وجعل يعلِّم أحدهما أن يقول: رأيتُ البوَّابَ مضاجعًا مولاتي، وعلَّم الآخر أن يقول: أمَّا أنا، فلستُ بقائلٍ شيئًا، فحفظ الطيران ذلك، بلسان، لم يكن أهلُ تلك البلاد يعرفونها.

فلمَّا كان ذات يوم، إذ آتا مولاه بهما، فصاحا عنده، فأعجب الفارس، ولم يدر ماذا يقولان، وأمر امرأته بالاحتفاظ بهما، والإحسان إليهما، وألطف العبد وأحسن إليه.

ومكثا عنده زمانًا، ثم إنه قدم عليه أناسٌ، فصنع لهم طعامًا وشرابًا، فأصابوا من ذلك، ثم دعا بالطيرين، فصاحا بتلك الكلمتين، فلمَّا سمعوا صياحهما، نظر بعضهم إلى بعضٍ، ونكَّسوا رءوسهم حياءً منه، ثم قالوا له: هل تعلم ما يقولان؟

فقال: لا.

فقال بعضهم: لا تَحرد إن نحن أخبرناك بما يقولان، فإنَّ أحدهما يزعم، أنَّ البواب يَفجُر بامرأتك، وأمَّا الآخر فيقول: أمَّا أنا فلست بقائل شيئًا، وإن من سنتنا، ألَّا نُصيب في بيت امرأة فاجرة، طعامًا.

فنادى العبد من خارج: أنا أشهد على مقالتهما أنها حق، وأنِّي قد رأيتُ ذلك غير مرة.



فأمر الفارس بقتل امرأته، فأرسَلَت إليه، افحص عمَّا ذُكِر لك، فسيبدو لك مَنِ الفاجر الكذَّاب؟ ومُرْ هؤلاء، فليسألوهما، ولينظروا، هل يعلمان غير هاتين الكلمتين؟ فإن هذا من عمل العبد، لأنَّه راودني عن نفسي، فامتنعت منه، ففعل ذلك.

فكلَّمُوهُما، فإذا هما لا يُحسِنان غيرهما، فعرفوا أنَّ ذلك من تعليم العبد، فأرسل إليه، فأتاه وعلى يده بازٍ، فقالت له المرأة: ويلك! أنت رأيتني على ما قذفتني به؟

قال: نعم!

فقالت: اللهم إن كان كذب علي، فعجل عقوبته. فوثب البازي عليه، فنزع عينيه بمخالبه. فقالت المرأة: لقد عجَّل الله لك النكال بكذبك، فإنك زعمت أنك عاينت ما لم ترى، وشهدتَ عليَّ بزورٍ وباطلٍ.

وإنما ضربتُ لك هذا المثل، لتعلم، أنَّ من عمل بمثلِ ما عمل به العبد، من الافتراء والبهتان، كان جزاؤه العقوبةَ، في العاجل، والآجل.

فلما سمع القاضي ذلك من لفظ دمنة، نهض، فرفعه إلى الأسد على وجهه، فنظر فيه الأسد، ثم دعا بأمه، فعرضه عليها.

فقالت حين تدبرت كلام دمنة: لقد صار اهتمامي، بما أتخوف من احتيال دمنة بمكره ودهائه، حتى يقتلك، أو يفسد عليك أمرك، أعظم من اهتمامي، بما سلف من ذنبه إليك في الغش، والسعاية، حتى قتلت صديقك بغير ذنب.

فقال لها: أخبريني عن الذي أخبرك عن دمنة، بما أخبرك، فيكون لي حجة، في قتل دمنة.

فقالت: إني لأكره أن أفشي سر استكتمنيه، ولكني أطالب الذي استودعنيه، أن يجعلني في حل من ذكره لك، ويقوم هو بعلمه، وما سمع منه.

ثم انصرفت، وأرسلت إلى النمر، وذكرت له ما يحق عليه من حسن معاونته الأسد، على الحق، وإخراج نفسه من الشهادة، التي لا يكتمها مثله، مع ما يحق عليه من نصر المظلومين، وتثبيت حجة الحق، في

الحياة والممات: فإنه قد قالت العلماء: من كتم حجة ميت، أخطأ حجته يوم القيامة. فلم تزل به حتى قام فدخل على الأسد، فشهد عنده بما سمع من إقرار دمنة.

فلما شهد النمر بذلك، أرسل الفهد المحبوس، الذي سمع إقرار دمنة، وحفظه، إلى الأسد، فقال: إن عندي شهادة. فأخرجوه، فشهد على دمنة بما سمع من إقراره. فقال لهما الأسد: ما منعكما أن تقوما بشهادتكما، وقد علمتما أمرنا، واهتمامنا بالفحص عن أمر دمنة؟

فقال كل واحد منهما: قد علمنا أن شهادة الواحد، لا توجب حكماً، فكرهنا التعرض لغير ما يمضي به الحكم، حتى إذا شهد أحدنا، قام الآخر بشهادته.

فقبل الأسد قولهما، وأمر بدمنة أن يقتل في حبسه، فقتل أشنع قتلة.

ثم قال الفيلسوف للملك: فلينظر أهل التفكر في هذا، وأشباهه، وليعلموا، أنه مَن التمس منفعة نفسه، بشيء، يريد له هلاك غيره ظلما، فإنه غيرُ ناجٍ من وَبالِ ذلك عليه، وعاقبته ومغبَّته، وأنه مُكافأٌ به، ومَجزِيٌّ بما عمل، عاجلًا وآجلًا، وصائرٌ إلى البوار على كل حال.

باب الحمامة المطوقة

قال الملك للفيلسوف: قد فهمتُ ما ذكرت من مَثَل المتحابَّين، يقطع بينهما الخؤون، الكذوب، وإلى ما تصير عاقبة أمره من بعد، فحدثني إن رأيت، عن إخوان الصفا، كيف يبتدأ تواصلهم، ويستمتع بعضهم ببعض؟

قال الفيلسوف: إن العاقل لا يبدل بإخوان الصفا شيئا، لأنهم الأعوان على الخير كله، والمواسون على ما ينوب من مكروه، ومن أمثال ذلك، مثل الغراب، والحمامة المطوقة، والجرذ، والسلحفاة، والظبي.

قال الملك: وكيف كان ذلك؟

١ - مثل: الغراب، والحمامة المطوقة، والجرذ

قال الفيلسوف: زعموا أنه كان بأرض، مكان كثير الصيد، تختلف إليه القُنَّاص، وكان في ذلك المكان شجرة عظيمة، كثيرة الأغصان، ملتفة الورق، فيها وكر غراب.

فلما كان ذات يوم، والغراب على الشجرة، إذ بَصر برجل من الصيَّادين، قبيحِ المنظر، بشع الحال، على عاتقه شبكة، وفي يده عصا، وهو مُقبِل نحو الشجرة.

فذُعِر الغراب منه وقال: لقد ساق هذا الصياد إلى ها هنا أمرٌ، ما أدري لِحيني، أم لِحين غيري، فلأثبتن مكاني حتى أنظر ماذا يصنع.

ثم إن الصياد نصب شبكته، ونثر عليها حبّا، وكمن قريبا منها. فلم يلبث إلا قليلا، إذ قد مرت به حمامة يقال لها المطوقة، وكانت سيدة الحمام ومعها حمام كثير.

فرأت الحبَّ، فعميت هي وصواحبها عن الشرك، فانقضَّت، وانقضّضن معها جميعا، فعلقن جميعًا في الشبكة، كلهن فيها. وأقبل الصياد، مسرعا، فرحاً، مسروراً، فجعلت كل حمامة تضطرب في حبائلها، وتعالج الخلاص لنفسها.

فقالت المطوقة: لا تَخاذَلن في المعالجة، ولا تكن نفس إحداكن، أهم إليها من نفس صاحبتها، ولكن، نتعاون جميعاً، فلعلنا نَقلع الشبكة، فينجو بعضنا ببعض.



ففعلن ذلك، فانتزعن الشبكة حين تعاونَّ عليها، وطِرْنَ بها في عُلوِّ السماء. ورأى الصيادُ صنيعهنَّ، فأتبعهنَّ يطلبهنَّ، فطلبهنَّ ولم يَقطع رجاءه منهن، وظنَّ أنهنَّ لا يطِرن إلَّا قريبًا، حتى يقعنْ.

قال الغراب: لأتبعهن، وأنظر ما يكون من أمرهنَّ وأمره.

والتفتت المطوقة، فرأت الصياد يتبعهن، فقالت للحمام: هذا الصياد مجد لطلبكن، فإن نحن أخذنا في الفضاء، لم يخف عليه أمرنا، ولم يزل يتبعنا، وإن نحن أخذنا في الشجر والعُمران، لم يلبث أن يخفى عليه أمرُنا، حتى ييأس منَّا فينصرف. ولي بمكان كذا، جرذٌ هو لي أخ، فلو انتهينا إليه، قطع عنا هذا الشرك، وخلَّصنا.

ففعلن ذلك، وخَفِين على الصياد، فأيس منهنَّ وانصرف، وتبعهن الغراب، لينظر هل للحمام من حيلة للخروج مما هنَّ فيه، فيتعلَّمها، وتكون عُدَّة لنفسه، إن وقع في مثلها.

فلما انتهت الحمامة المطوقة إلى الجرذ، أمرت الحمام أن يسقطن، فوقعن، ووجدت الجرذ، قد أعدَّ مائة جُحر للمخاوف، فنادته المطوقة، فأجابها الجرذ من حجره: من أنت؟

قالت: أنا أختك المطوقة.

فنظر، فوجدها على تلك الحالة، فأقبل إليها يسعى، وقال: يا أختي، ما أوقعك في هذه الورطة، وأنتِ من الأكياس؟

قالت المطوقة: ألم تَعلم أنه ليس شيءٌ من الخير والشر، إلَّا وهو محتوم على صاحبه، وما يُصيب بأيَّامه ومُدَّته، وعِلّله، وكُل ما يُبتلَى به من قليله وكَثيره؟ فالمقادير، هي التي أوقَعَتني في هذه الورطة، ودلَّتني على الحَبّ، وأخْفَت عليَّ الشبكة، حتى لججتُ فيها وصُوَيحباتي، وليس أمري وقلة امتناعي من القدَر بعَجَب، فقد لا يمتنع من القدر من هو أقوى مني وأعظم أمراً، فإذا قضي ذلك، تنكسف الشمس، ويصاد السمك، ويهوى

الطير، فالسبب الذي يدرك به العاجز حاجته، هو الذي يحول بين الحازم وطلبيته.

ثم إن الجرذ أخذ في قرض الشباك التي فيها المطوقة، فقالت: ابدأ بقطع عقد سائر الحمام، ثم بعد ذلك ابدأ بعقدي، فأعادت ذلك عليه، وهو لا يلتفت إلى قولها.

فلما أكثرت عليه القول وكررت، قال: لقد كررت القول عليّ، كأنك ليس لك في نفسك حاجة، ولا لك عليها رحمة، ولا ترعين لها حقاً.

قالت المطوَّقة: لا تَلُمني على ما سألتك، فإني قد تكلفت لجماعتهنَّ بالرئاسة، فحقٌّ ذلك عليَّ عظيم، وقد أدَّين حقِّي بالطاعة والنصيحة، وبمعونتهنَّ وطاعتهنَّ بذلك نجَّانا الله من الصيَّاد، وإني تخوَّفت، إن أنت بدأت بقطع عُقدتي، أدركك الملل والفتور، وتكسل عن بعض ما بقي، وعرَفت، أنك إن بدأت بهن، وصرت أنا للآخر، لم تَرْضَ وإن أدرَكك الكَلال والفتور، حتى تُخلِّصني مما أنا فيه.

قال الجرذ: هذا مما يزيد الرغبة، والمودة فيكي.

ثم إن الجرذ، أخذ في قرض الشبكة حتى فرغ منها، فانطلقت المطوقة، وحمامها معها.

فَلمَّا رأى الغراب صنيع الجُرَذ، وتخليصَه الحمام، رغب في مصادقته، وقال: ما آمن أن يُصيبني مثل ما أصابهنَّ، ولا غنا لي عن مصادقة وموَدَّة الجرذ، فدنا وناداه.

فأخرج الجرذ رأسه وقال: مَن أنت، وما حاجتك؟

قال الغراب: أنا الغراب، وكان من أمري إني أتيتك، لما رأيتُ منك في فعلك مع الحمام، ووفاءك لأصدقائك، وإني أريد مصادقتك وإخائك، وجئت أطلب ذلك منك.

قال الجرذ: ليس بيني وبينك تواصل، وإنما العاقل يلتمس ما يرجو أن يكون، ويتركَ طلب ما لا يقدر، لئلا يُعَدَّ جاهلًا، كرجل أراد أن يُجريَ السفُن في البرِّ، ويجُرَّ العَجَل على الماء، وكيف يكون بيننا سبيلٌ، وإنما أنت آكل، وأنا طعام لك.

قال الغراب: اعتَبِر بعقلك، إن أكلي إياك، وإن كنت لي طعاماً، مما لا يغني عني شيئاً، وإنَّ في بقائك ومودتك، أُنسًا لي. واعتبِر بما جرَّبت من طول الدهر، هل تجِد مَن يبتغي منفعته، بمضرَّته، على عِلم منه بذلك؟ وإني ما رغبت فيك إذ رغبتُ، إلَّا لنفسي، والمنفعة لها، فإنَّ بقاءك فيه منفعةٌ لي، من نائبة، أو نازلة تنزل بي.

فإنه حقيقٌ إذ رغبتُ فيك، ألَّا تُبعدني من نفسك، ولا تنازِعَك النفس على سوء الظنّ، مع ما أشرح من نفسي، وأوَثِّق لك من عهدي. وقد ظهر منك حسن الخُلُق، وإن كنت لا تلتمس ذلك، وذو الفضل لا يخفَى فضله، وإن هو أخفاه، وكتمه جهده، كالمسك الذي يختم، ثم لا يمنعه ذلك من النشر الطيب، والأرج الفائح، فلا يفتر عليَّ حلمك، ولا تمنعني ودك.



قال الجرذ. إن أشد العداوة، عداوة الجوهر، وهي عداوتان، منها ما هو متكافئ، كعداوة الفيل والأسد، فإنه ربما قتل الأسد الفيل، أو الفيل الأسد، ومنها ما قوَّته من أحد الجانبين على الآخر، كعداوة ما بيني وبين السنور، وبيني وبينك، وليست لضرٍّ منِّي عليكم، ولكن للشقاء الذي كتب الله عليَّ منكم.

وإن العداوة التي بيننا، ليست تضرك، وإنما ضررها عائد عليَّ، وليس من عداوة الجوهر صُلح، إلَّا رُبَّ يعود إلى العداوة، وليس صُلح العدوِّ بموثوق به، ولا مركون إليه، فإنَّ الماء، وإن هو أحكم إسخانه بالنار، لم يمنعه ذلك من إطفاء النار إذا صُبَّ عليها، ولا تمنعه سخونته من الرجوع إلى أصل جوهره.

وليس ينبغي للعاقل أن يغترَّ بصلح العدوِّ ومصاحبته، وإن مثل المصاحب عدوه، كحامل الحيَّة، الذي وجدها وقد أصابها البَرد، فأخفاها في كُمِّه، فلمَّا دَفئ النهار عليها، ووجدت سخونة الثياب، تحرَّكت فنهشته، فقال لها:

أهذي مكافأتي على جميل فعلي بك، وصنيعي إليك؟ فقالت له: هذا لي دأبٌ، وعادةٌ، وخُلُقٌ، وطِباعٌ، وأحمق الناس، المُريد لإزالة شيء، عن أصله وطباعه، إلى غير أسِّه (أصله) وجوهره، ولا يستأنس العاقل إلى عدوّه الأريب (ذكي متبصر)، بل ما يستوحش منه أكثر.

قال الغراب: قد فهمت ما تقول، وأنت حقيقٌ أن تأخذ بفضل خلقك، وتعرف صدق مقالتي، ولا تصعب عليّ الأمر بقولك ليس إلى التواصل بيننا سبيل، فإن العقلاء الكرام، يبتغون إلى كل معروف، ووُصلة سبيلًا، والمودة بين الصالحين، سريع اتصالها، بطيءٌ انفصالها، كالكوز من الذهب، بطيء الانكسار، سريع الإعادة، هيّن الإصلاح، إن أصابه ثلم أو كسر، والمودة بين الأشرار، سريعٌ انقطاعها، بطيء اتصالها، كالكوز من الفخار، سريع الانكسار، ينكسر من أدنى عيب، ولا وصل له أبداً، والكريم يودّ الكريم، واللئيم لا يودّ أحداً، إلا عن رغبة أو رهبة، وأنت كريم، وأنا إلى ودّك ومعروفك محتاج، وأنا لازمٌ بابك، غيرُ ذائقٍ طعامًا ولا شرابًا، حتى تؤاخيني.

قال الجرذ: قد قبلت إخاءك، فإني لم أردد أحداً عن حاجة قطُّ، وإنما ابتدأتُك بما سمعت، إرادة التوثق، والإعذار لنفسي، فإن أنت غدرت بي، لم تقل: إني وجدت الجرذ ضعيفَ الرأي، سريع الانخداع.

ثم خرج الجرذ من حجره، وأقام عند الباب، فقال له الغراب: ما يمنعك من الخروج إليّ، والاستئناس بي؟ فهل في نفسك بعد ذلك مني ريبة؟

قال الجرذ: إن أهل الدنيا فيما بينهم، ذات النفس، وذات اليد. فالمتباذلون ذات النفس، هم الأصفياء، المتعاونون، المتصافون، وأمّا المتبادلون ذات اليد، فهم الذين يلتمس بعضهم الانتفاع ببعض، ومن كان يصنع المعروف ابتغاء سرور ومنافع الدنيا، فإنما مثله فيما يبذل ويعطي، كمثل الصياد، وإلقائه الحب للطير، لا يريد بذلك نفع الطير، وإنما يريد نفع نفسه.
فتباذُل ذات النفس، أفضل من تبادل ذات اليد. وإني وثقت بذات نفسك، ومنحتك مثل ذلك من نفسي، وليس يمنعني من الخروج إليك سوء ظنٍّ

بك، ولكن قد عرفت أن لك أصحاباً جوهرهم كجوهرك، وليس رأيهم فيَّ كرأيك، وأنا أخاف أن يراني بعضهم وأنا أكلمك، فيُهلكني.

قال الغراب: إنَّ من علامة الصديق، أن يكون لصديق صديقه صديقًا، ولعدوّ صديقه عدوًّا، وليس لي بصاحب ولا أخ، من لم يكن لك مُحِبًّا، ولا فيك راغبًا، وقد تهون عليَّ قطيعةُ مَن كان عدوًّا لك، فإنَّ صاحب الجِنان، إذا نبت في جنانه ما يُفسِدها ويضرُّها، اقتلعه وقذف به.

ثم إن الجرذ خرج إلى الغراب، فتصادقا وتصافيا، وأنس كل واحد منهما بصاحبه، حتى إذا مضت لهما أيام، قال الغراب: إن جحرك قريب من طريق الناس، وأخاف أن يروني معك فيرموني. ولي مكان في عزلة وخِصب من السمك والماء، ونحن واجدون هناك ما نأكل، ولي فيه صديقٌ من السلاحف، فأريد أن أنطلق بك إلى هناك، لنعيش آمنين.

قال الجرذ: أفلا أذهب معك!؟ إني لمكاني هذا كاره.

قال الغراب: وما يُكَرّهه إليك؟

قال الجرذ: إن لي أخبار وقصصاً، سأقصها عليك، إذا انتهينا حيث تريد، فافعل ما تشاء.

فأخذ الغراب بذَنَب الجرذ، وطار به حتى دنا من العين التي فيها السلحفاة، فلمَّا بصرت السلحفاة بغراب ومعه جرذ، ذعرت منه، ولم تعلم أنه صاحبها، فغاصت في الماء.

ووضع الغراب الجرذ على الأرض، ووقع على شجرة قُربها، ونادى السلحفاة. فعرفت السلحفاة صوته، وخرجت إليه، ورحبت به، وسألته من أين أقبل.

فأخبرها الغراب بقصته حين تبع الحمام، وما كان من أمره وأمر الجرذ حتى انتهى إليها، فعجبت السلحفاة من عقل الجرذ ووفائه، ودنت منه ورحبت

به، وقالت له: ما ساقك إلى هذه الأرض؟

ثم إنَّ الغراب قال: اقصص عليّ الأخبار التي زعمت أنك تحدثني بها، فأخبرني بها، مع جواب ما سألت السلحفاة، فإنها عندك بمنزلتي.

٣ - مثل: الجرذ، والناسك، والضيف

قال الجرذ: كان منزلي أول أمري، في بيت رجل ناسك، لم يكن له أهل وعيال. وكان يؤتى في كل يوم بسلة من الطعام، فيأكل منها حاجته، ويعلق الباقي. وكنت أرصد الناسك حتى يخرج، وأثب إلى السلة، فلا أدع فيها طعاماً إلا أكلته، ورميتُ به إلى الجرذان.

فجهد الناسك مراراً، أن يجعلها في مكان لا أناله، فلم يقدر على ذلك، حتى نزل به ذات ليلة ضيف، فأكلا، ثم أخذا في الحديث، فقال الناسك: من أي أرض أقبلت؟ وأين تريد الآن؟

وكان الضيفُ رجلًا قد جال الآفاق، ورأى الأعاجيب، فأنشأ يحدث الناسك عمّا وطئ من البلدان، ورأى من الأمور، وجعل الناسك خلال ذلك، يصفق بيديه، لينفّرني عن السلة، فغضب الضيف من ذلك وقال: أنا أحدثك وأنت تهزأ بي!؟ ما حَمَلك على أن تسألني وأنت تفعل هذا؟

فاعتذر إليه الناسك وقال: إني قد تلذذت بحديثك، وإنما أصفق بيدي، لأنفّر جرذاً، لست أضع في البيت شيئاً إلا أكله، وقد تحيرت في أمره.

قال الضيف: جرذٌ واحد يفعل ذلك، أم جرذان كثيرة؟

قال الناسك: جرذان البيت كثيرة، وفيها واحدٌ هو الذي قد أضر بي، ولا أستطيع له حيلة.

قال الضيف: إن هذا الامر، ما هذا إلّا لشيء، وإنّه ليُذكِّرني قولَ الرجل: لأمرٍ ما باعت هذه المرأة السمسم المقشور، بغير المقشور.

قال الناسك: وكيف كان ذلك؟

٣ - مثل: المرأة التي باعت السمسم المقشور، بغير المقشور

قال الضيف: نزلت مرة على رجل، فتعشينا جميعًا، ثم فرش لي، وانصرف إلى مضجعه مع زوجته، فسمعته يقول في آخر الليل لامرأته: إني أريد أن أدعو غداً رهطا ليأكلوا عندنا، فاصنعي لهم طعاماً.

قالت المرأة: كيف تفعل ذلك، وليس لك فضلٌ عن عيالك، وأنت رجل لا تستبقي شيئًا، ولا تدخره؟

قال الرجل: لا تندمي على شيءٍ أطعمناه، وأنفقناه، فإن الحرص على الجمع والادخار، ربما كانت عاقبة صاحبه، كعاقبة الذئب.

قالت المرأة: وكيف كان ذلك؟

٤ - مثل: الصياد، والظبي، والخنزير، والذئب

قال الرجل: زعموا أنه خرج ذات يوم، رجل قانصٌ، ومعه قوسه ونشابه، فلم يجاوز بعيدًا، حتى رمى ظبيًا، فأصابه، فحمله، ورجع طالباً منزله.

فعرض له في طريقه خنزير، فحمل عليه، فوضع الرجلُ الظبي، وأخذ القوس، ورماه بالسهم فأنفذه. وأدركه الخنزير، فضربه بنابه ضربة، أطارت القوس والنشّاب من يده، فوقعا جميعًا مَيْتَين.

فأتى عليهم ذئب، فلمّا رآهما، وثق بالخِصب في نفسه، وقال: أنا جاعلٌ ما وجدتُ كنزًا، هذا الرجل، والظبي، والخنزير، يكفيني أكلهم مدة، ولكن أبدأ بهذا الوتر فآكله، فيكون قوت يومي.



فعالج الذئب الوتر، فلما قطعه، طارت القوس، فأصابت مقتلا من حلقه.

وإنما ضربتُ لكِ هذا المثل، لتعلمي، أنَّ الحرص على الجمع والادِّخار، وخيمُ العاقبة.

قالت المرأة: نعم ما قلت، وعندي من الأرز والسمسم، ما فيه كفاية لإطعام ستَّة رَهْط، أو سبعة، وأنا غاديةٌ على اصطناع الطعام، فادع من أحببت غدًا.

وأخذت المرأة حين أصبحت، سمسماً فقشرته، وبسطته في الشمس ليجف، وقالت لغلام لهم: اطرد عنه الطير والكلاب.

وتفرغت المرأة لبعض صنيعها، فغفل الغلام عن السمسم، فجاء كلبٌ، فعاث فيه، فاستقذرته المرأة، وكرهت أن تصنع منه طعاماً ما. فذهبت المرأة به إلى السوق، فأخذت به سمسماً غير مقشور، مثلاً بمثلٍ، وأنا

أُبصِر ذلك، فسمعتُ رجلًا يقول: لأمرٍ ما، باعت هذه المرأة سمسمًا مقشورًا، بغير مقشور.

وكذلك قولي في هذا الجرذ، الذي ذكرتَ أنه يثب في السلَّة، حيث تضعها دون أصحابه، إنه من عِلة على ما ذكرت، فالتمس لي فأسًا، لعلّي أحفِر جُحره، وأطَّلع على بعض شأنه.

فاستعار الناسك من بعض جيرانه فأساً، فأتى بها الضيف، وأنا حينئذٍ في غير جحري، أسمع كلامهما. وكان في جُحري ألفُ دينار، لا أدري من وضعها، فكنت أفترشها وأفرح بها، وأعِزُّ بمكانها، وأتقلَّبُ عليها. وإن الضيف احتفر الجُحر، حتى انتهى إليها، فاستخرجها، وقال: ما كان هذا الجرذ يقوى على الوثوب حيث كان يثب، إلا بهذه الدنانير، فإن المال جعل له قوة، وزيادة في الرأي والتمكن، وسترى أنه بعد أخذنا إياها، أنه لا يقوى، ولا يستطيع أن يصنع ما كان يصنع، ولا يكون له فضل على سائر الجرذان.

فعلمت أنه قد صدق، وأحسست من نفسي بنقصان القوة حين أُخرِجت الدنانير من جُحري، وانتقلت إلى موضع آخر.

فلمَّا كان من الغد، اجتمع إلي الجرذان اللاتي كنَّ يُطِفن بي، فقُلن: قد أصابنا جوع، وفَقَدنا ما كنتَ عوَّدتنا، وأنت رجاؤنا، فانظر إلينا، و انظر في أمرنا.

فانطلقتُ إلى المكان الذي كنت أثِب فيه إلى السلة، فأردتُ الوثوب مرارًا، كل ذلك لا أقدر عليه، فاستبان لي أنَّ حالي قد تغيَّرت، وزهِد فيَّ الجرذان، وسمعتُ بعضهن يقولُ لبعض: قد هلك هذا آخرَ الدهر، فانصرِفنَ عنه، ولا تطمَعن فيما عنده، فإنا نرى حالته، وإنه قد احتاج إلى من يعوله.

فتركني، ولحقن بأعدائي وجفونني، وأخذن في غيبتي عند من يعاديني ويحسدني، وجعلن لا يقربنني ولا يلتفتن إليَّ.

فقلت في نفسي: ما الإخوان، ولا الأهل، ولا الاعوان، ولا الحشم، ولا التبَع، إلّا بالمال، ولا تظهر المُروءةُ، ولا الرأي، ولا القوة، ولا المودَّة، إلّا بالمال، فإن من لا مال له، إذا أراد أمراً، قعد به العدم، عمّا يريده.

ووجدت، من لا إخوان له لا أهل له، ومن لا ولد له لا ذكر له، ومن لا مال له لا عقل له، ومن لا عقل له، فلا دُنيا ولا آخرة له، والرَّجل إذا أصابه الضرُّ والحاجة رفضه إخوانه، وقطع ذوو قرابته وُدَّه، وهان عليهم، واضطرته المعيشة، وما يُعالج منها لنفسه وعياله، إلى التماس الرزق، فيما يُغرِّر فيه بنفسه ودينه، وهلاك آخرته، فإذ هو قد خسر الدنيا والآخرة، فلا شيء أشدُّ من الفقر.

وإنَّ الشجرة النابتة في السباخ (من الأرض: ما لم يفلح ولم يعمر لملوحته)، المأكولةَ من كل جانب، كحال الفقير، المحتاج إلى ما في أيدي الناس.

فالفقر، رأس كل بلاء، وهو داع إلى صاحبه المقت، ومسلبه العقل والمُروءة، ومَذهب للعلم والأدب، ومعدنٌ للتهمة، ومجمعة للبلايا، ومَن نزل به الفقر، لم يجد بدًّا من ترك الحياء وتضييعه، ومن ذهب حياؤه ذهبت مُروءته، ومن ذهبت مُروءته مُقِت، ومن مُقِت أوذي، ومن أوذي حزِن، ومن حزن فقدَ عقله، واستنكر فهمه وحِفظه، ومن أصيب في ذلك، كان أكثرُ قوله عليه، لا له.

ووجدت الرجل إذا افتقر، اتهمه من كان له مؤتمناً، وأساء به الظن من كان يظنُّ به حَسَنًا، فإن أذنب غيره، كان هو للتهمة موضعاً، وليس من خلة هي للغني مدح، إلا وهي للفقير ذمٌ، فإن كان شجاعاً سمي أهوج، وإن كان جواداً سمّي مبذراً، وإن كان حليماً سمي ضعيفاً، وإن كان وقورا سمي بليداً، وإن كان لَسِنًا سُمِّي مهذارا، وإن كان صَموتا سُمِّي عَيِيّا، فالموت أهون من الفاقة (الحاجة)، التي تضع المرء بمواضع الهوان، وتدنيه بعد ارتفاعه، وتقصيه بعد تقرُّبه، وتُبعده بعد توسُّطه، وتُزري به وتَمقُته بعد المحبة، ويضطرُّ صاحبها إلى المسألة، ولا سيما مسألةُ

الأشِحّاء الأدنياء اللؤماء، فإن الكريم، لو كلف أن يدخل يده في فم الأفعى، فيخرج منه سماً، فيبتلعه، كان ذلك أهون عليه، وأحب إليه، من الطلب إلى اللئيم.

وقد قيل، من ابتُلي بمرضٍ في جسده لا يفارقه، أو بفراق الأحبَّة والإخوان، أو بالغُربة، حيث لا يعرف مبيتا ولا مقيلا، ولا يرجو إيابا، أو بفاقةٍ تضطره إلى المسألة، فالحياة له موت، والموت له راحة.

وربما كره الرجل المسألة، وبه حاجة تحملّه على السرقة والغصب، وهما شرٌّ من التي زاغ عنها، فإنَّه قد كان يُقال: الخَرَسُ خير من اللَّسَن المُطَعَّم بالكذب، والفاقةُ خيرٌ من السَّعة من أموال الناس، والاجتهادُ في الكفاف، خير من الإسراف والتبذير، فيما لا يحلُّ.

وقد كنت رأيت الضيف، حين أخرج الدنانير من الجحر، قاسمها الناسك، ثم وضع نصيبه منها في خريطة عند رأسه، فطمِعت أن أُصيب منها شيئا، يرد إلي بعض قوَّتي، ويراجعني به أصدقائي، فلما جنّ الليل، انطلقت حتى انتهيت قريبا من الضيف، ووجدته يقظان، وبيده قضيب، فضربني به ضربة على رأسي، أوجعتني، فسعيتُ هاربا إلى جحري، حتى دخلته.



فلمَّا سكن عنّي ما كان بي من الوجع، نازعني الحِرص والشَّرَه، وغلباني على عقلي، فخرجت طمعاً كطمعي الأول، وإذا الضيف يرصدني، فعادوني بالضرب على رأسي، وسالت منه الدماء، وتقلبتُ ظهرًا لبطن، وانجررت حتى دخلت جُحري، فوقعن مَغشِيًّا عليَّ، لا أعقِل ولا أدري.

وأصابني من الوجع، ما بغض إلي المال حتى لا أسمع بذكره، إلا يُداخِلُني من ذكره رُعب وذُعر. ثم نظرت، فوجدت البلايا في الدنيا، إنما يسوقها الحرص والشره، فلا يزال صاحبها يتقلَّب في تعبٍ منها، ووجدتُ، ركوب الأهوال الشديدة، وتجشُّم الأسفار البعيدة، في طلب الدنيا، أهونَ على المرء من بسط يده بالمسألة، ووجدت الرضا والقنوع، هما جميع الغنى، وسمعتُ العلماء يقولون: لا عقل كالتدبير، ولا وَرَع كالكفّ، ولا حَسَب كحُسنِ الخُلق، ولا هناء كالقناعة، وأحقُّ ما صُبِر عليه، ما ليس إلى تغييره سبيل، وكان يُقال: أفضلُ البرِّ الرحمة، ورأسُ المودَّةِ الاسترسال، وأنفعُ العقل المعرفة بما يكون وما لا يكون، وطيبُ النفس وحُسنُ الانصراف عمَّا لا سبيل إليه، فصار أمري إلى أن قنِعتُ ورضيت، وانتقلت من بيت الناسك، إلى البرِّيَّة.

وكان لي صديق من الحمام، قد سبقت صداقته الغراب، فسيقت إلي بصداقته صداقة. ثم ذكر لي الغراب ما بينك وبينه من المودة، وأخبرني أنه يريد إتيانك، فأحببت أن أكون معه، وكرهت الوَحدة، فإنه ليس من سرورِ الدنيا شيء، يَعدِل صحبة الإخوان، ولا فيها همٌّ، يَعدِل غمِّهم وفقدانهم.

وقد جرَّبت، فعلمت أنه لا ينبغي للعاقل، أن يلتمس من الدنيا غير الكفاف، الذي يدفع به الحاجة والأذى عن نفسه، وهو اليسير من المطعم والمشرب، إذا أُعين بسعة النفس، وصحة البدن، ورفاهة البال. فأقبلت مع الغراب إليك على هذا الرأي، وأنا لك أخ، فلتكن منزلتي عندك كذلك.

فلما فرغ الجرذ من كلامه، أجابته السلحفاة، بكلام، رقيقٍ لطيف، وقالت: قد سمعت كلامك، وما أحسن ما تحدثت به، إلا أني رأيتك تذكر بقايا أمورٍ هي في نفسك، منها من اغترابك شيء، فتناسَ ذلك، ولا يكونن من رأيك، واطرحَنَّه عنك.

واعلم، أن أحسن الكلام لا يتم إلا بالعمل، فإنَّ المريض الذي قد علم دواء مرضه، إذا هو لم يعالج به نفسه، لم ينفعه غيره، ولم يجد له راحة ولا شفاء، فاستعمل علمك.

ولا تحزن لقلة مالك، وإن الرجل ذا المروءة، قد يكرم على غير مال، كالأسد الذي يهاب وإن كان رابضاً، والغني الذي لا مروءة له يهان، وإن كثر ماله، كالكلب لا يحفل به ويُهان، وإن طوق وخلخل بالذهب.

ولا تُكبِرنَّ في نفسك اغترابَك، فإنَّ العاقل لا غُربة له ولا وحشة، ومعه ما يكتفي به من علمه ومُروءته، كالأسد، الذي لا يتقلَّب إلَّا ومعه قُوَّته، التي بها يعيش حيثما توجَّه.

فلتحسن تعاهدك لنفسك، فإنك إذا فعلت ذلك، أتاك الخير يطلبك، كما يطلب طيرُ الماء الماء. وإنما جُعلَ الفضل، للبصير الحازم المتفقد، وأما

الكسلان المُتواكل، فإنَّ الفضل قلَّما يصحبه.

ولا يحزُنك أن تقول: كنتُ ذا مال فأصبحتُ مُعدما، فإنَّ المال وسائر متاع الدنيا، سريعٌ إقبالُه إذا أقبل، وشيكٌ إدباره إذا أدبر، كالكُرة، سريع ارتفاعها ووقوعها.

وقد قالت العُلماء في أشياء ليس لها ثبات ولا بقاء: ظلٌّ الغمام، وخلة الأشرار، وعشق النساء، والثناء الكاذب، والبناء على غير أساس، والمال الكثير.

فإنه ليس يفرح عاقل بكثرة ماله، ولا يحزن لقلته، ولكن الذي ينبغي أن يفرح به عقله، وما قدَّم من صالح عمله، لأنَّه واثقٌ أنه به لا يُسلَب ما قدم، ولا يؤاخَذ بغيره. وهو حقيقٌ ألَّا يَغفُل عن أمر آخرته، والتزوُّد لها، فإنَّ الموت لا يأتي إلَّا بغتة، وليس له وقت معين.

وأنت عن موعظتي غنيٌّ بما عندك من العلم، وبما ينفعك بصير، ولكن قد رأيتُ أن أقضيَ من حقك الذي يجب، لأنك أخونا، وما عندنا من النصح مبذول لك.

فلما سمع الغراب ذلك من قول السلحفاة، وردها على الجرذ، وإلطافها إيَّاه، وحسن مقالتها، سرَّه ذلك وأفرحه، وقال: لقد سررتني وأنعمت، وأنتِ جديرة أن يأخذ بكلمتك، تفرح نفسك مما لهجت (أولع بِهِ).

وإن أولى أهل الدنيا بكرم العيش، وشدة السرور، من لا يزال رحله مع إخوانه وأصدقائه من الصالحين معمورا، ولا يزال عنده منهم جماعة يسرهم ويسرونه، ويكون من وراء أمورهم وحاجاتهم بالمرصاد.

وإنَّ الكريم إذا عَثَر، لم يستقِل إلَّا بالكرام، كالفيل إذا وحِل، لم يستخرجه إلَّا الفِيَلة، ولا يرى العاقلُ معروفا يصطنعه كثيرا، وإن كثر، وإن خاطر بنفسه وغرَّر بها في بعض وجوه المعروف، لم يرَ ذلك عيبا، بل يعلم أنه إنما باع

الفاني بالباقي، واشترى العظيم بالصغير، ولا يُعدُّ غنيًّا من لا يُشارَك في ماله، ولا العزم عزما إن ساق غنما.

فبينما الغراب في كلامه، إذ أقبل نحوهم ظبي يسعى، فذعروا منه، فغاصت السلحفاة في الماء، ودخل الجرذ جُحرًا، وطار الغراب فوقع على شجرة.

ثم إن الغراب حلّق في السماء، لينظر هل للظبي من طالب، فلمّا لم يرَ شيئا، نادى الجرذ والسلحفاة ليخرجا، وقال: ليس ها هنا شيء تخافانه.

فخرجا واجتمعوا، وقالت السلحفاة للظبي حين رأته ينظر إلى الماء: اشرب إن كان بك عطشا، ولا تخف، فإنه لا خوف عليك.

فدنا الظبي منها وحيَّاها، فرحبت به السلحفاة وقالت: من أين أقبلت؟

قال الظبي: كنت أكون في هذه البرية، حتى رأيت اليوم شَبَحا، فأشفقتُ أن يكون قانصا، فأقبلتُ خائفا مذعورا.

قالت السلحفاة: لا تخف، فإنا لم نرى هاهنا قانصاً قط، ونحن نبذل لك ودّنا، ومكاننا، والماء والمرعى كثيران عندنا، فارغب في صحبتنا.

فأقام الظبي معهم، وكان لهم عريش يجتمعون فيه، ويلهون، ويتذاكرون الأحاديث والأمور. فبينما الغراب، والجرذ، والسلحفاة، ذات يوم في العريش، غاب الظبي، فتوقعوه ساعة، فلم يأت. فلما أبطأ، أشفقوا أن يكون قد أصابه آفة، فقال الجرذ والسلحفاة للغراب: طر فانظر، هل ترى مما يلينا شيئاً؟

فحلق الغراب في السماء، فنظر، فإذا الظبي في الحبائل مقتنصاً، فانقض مسرعاً حتى أخبرهما بذلك.

فقالت السلحفاة والغراب للجرذ: هذا أمر، لا نرجو فيه غيرك، فأغِث أخانا وأخاك.

فخرج الجرذ يسعى، حتى انتهى إلى الظبي، فقال: كيف وقعت في هذه الورطة، وأنت من الأكياس؟

قال الظبي: وهل يغني الكيس مع القدر؟

فبينما هما كذلك، إذ وافتهما السلحفاة، فقال الظبي: ما أصبت بمجيئك إلي ها هنا، فإن القانص إن هو انتهى إلينا، وقد فرغ الجرذ من قطع الحبال، سبقته عدواً، وللجرذ أحجارٌ كثيرة، والغراب يطير، وأنت ثقيلة لا سعي لك ولا حركة، وأخاف عليك القانص.

قالت السلحفاة: إنه لا يعد ذو عقل، لما كان في فراق الاحبة، وإذا فارق الأليف أليفه، فقد سلب فؤاده، وحرم سروره، وغشي بصره، وإنَّ من المعونة على تسلية الهمّ، وسكونِ النفس عند نزول البلاء، لقاء المرء أخاه، وإفضاء كلِّ واحدٍ منهما إلى صاحبه.

فلم تفرغ السلحفاة من كلامها، حتى طلع القانص، ووافق ذلك قطعَ الجرذ وثاق الظبي، فنجا الظبي بنفسه، وطار الغراب محلقاً، ودخل الجرذ بعض الأحجار، ولم يبق غير السلحفاة.

فلمَّا دنا الصياد من حباله، ورآها مقطوعة، عجب، وجعل ينظر فيما حوله، فلم ير غير السلحفاة، فأخذها وربطها. ولم يلبث الغراب، والجرذ، والظبي، أن اجتمعوا، فنظروا القانص قد ربط السلحفاة، فاشتد حزنهم.

قال الجرذ: ما نرى أنَّا نجاوز من البلاء عَقَب، إلَّا وقعنا في أشد منها. لقد صدق الذي قال: لا يزال الإنسان مستمراً في إقباله، ما لم يعثر، فإذا عثر لجَّ به العثار (الشر)، وإن مشى في جدد (جديد) الأرض.

وما كان شؤمي، الذي فرّق بيني وبين قطيني (صيغة مبالغة من قطَنَ)، وأهلي، ومالي وولدي، ليرضى حتى يفرِّق بيني وبين ما كنتُ أعيش فيه، من صحبة السلحفاة، التي لم تكن مودّتها للمجاراة ولا لالتماس المكافأة، ولكنها خُلّة الكرم والوفاء والعقل، ومودّتها أفضل من مودة الوالد ولده، المودّة، التي لا يزيلها إلّا الموت.

ويحٌ لهذا الجسد، الموكل به البلاء، الذي لا يزال في تصرف وتقلب، ولا يدوم له شيء، ولا يلبث معه أمر، كما لا يدوم للطالع من النجوم طلوع، ولا للآفل منها أفول، وهذا الحزن الذي أنا فيه، وتذكُّري إخواني، كالجُرح المندمل، تصيبه الضربة، فيجتمع على صاحبها ألمان، ألم الضربة وألم انتقاض الجُرح، وكذلك من خفّت كلومه (جرح) للقاء إخوانه، ثم فقدهم، انتكأت قروحه.

قال الظبي والغراب: إنّ حُزننا وحُزنك، وكلامُنا وكلامك، وإن كان بليغاً، لا يغني عن السلحفاة شيئاً، فدع هذا، والتمس المخرج والحيلة، وإنه يقال: إنما يُختبَر الناس عند البلاء، وذو الأمانة عند الأخذ والعطاء، والأهل والولد عند الفاقة، وكذلك يختبر الإخوان عند النوائب.

قال الجرذ: إنّ من الحيلة أن تذهب أنت أيها الظبي، فتقع بمنظر من القانص كأنك جريح، ويقع الغراب عليك، كأنه يأكل منك، وأسعى أنا فأكون قريباً من القانص، مراقباً له، فعلّه أن يرمي ما معه من الآلة، ويضع السلحفاة، ويقصدك طامعاً فيك، راجياً تحصيلك. فإذا دنا منك، ففر عنه رويداً، بحيث لا ينقطع طمعه منك، ومكنه منك مرة بعد مرة، حتى يبعد عنا، وانْحُ منه هذا النحو ما استطعت، فإني أرجو ألا ينصرف، إلا وقد قطعت الحبائل عن السلحفاة، وأنجو بها.

ففعل الظبي ذلك هو والغراب، وتبعهما القانص، فاستجره الظبي حتى أبعده عن الجرذ والسلحفاة، والجرذ مقبلٌ على قطع الحبائل، حتى قطعها، ونجا بالسلحفاة.

وعاد القانص إلى حباله، فوجدها مقطعة، ففكر في أمره مع الظبي المتظالع (منحن)، والغراب الواقع عليه كأنه يأكل منه وليس يأكل، وتقريض حباله قبل ذلك، فاستوحش من الأرض، وظن أنه خولط في عقله، وقال: إنْ هذه إلَّا أرضٌ سَحَرة أو جن، فانصرف مذعورا لا يلتمس شيئاً.

واجتمع الغراب، والظبي، والجرذ، والسلحفاة، إلى عريشهم سالمين آمنين، كأحسن ما كانوا عليه.

ثم قال الفيلسوف للملك: فإذا بلغت حيلةُ أضعف الخلق، مع صغره، في مودته، وخلوصها وثبات قلبه عليها، ومعاونته بعضه بعضا، وصبرِه، على التخلص من مرابط الهلكة مرة بعد أخرى، فكيف بالناس لو فعلوا مثل ذلك، وترافدوا (تعاونوا وتبادلوا العطاء) عليه؟ فهذا مثل إخوان الصفا، في الصحبة.

باب البوم والغربان

قال الملك للفيلسوف: قد فهمت مثل إخوان الصفا، وتعاونهم، وعظيم منفعة الإخاء والفائدة فيه، فأخبرني عن العدو، وهل يرجع صديقا؟ وهل يوثق بشيء من أمره؟ وكيف العداوة وما ضرها؟ وكيف ينبغي للملك أن يصنع، إذا جاءه أمر من عدوه، الذي يتخوفه على نفسه وجنده، وإن كان ملتمس الأمان والصلح، ويظهر المودة؟ فاضرب لي مَثَلَ المغترّ بالعدوّ، إن أظهر تضرعاً وملقاً.

قال الفيلسوف: ليس أحدٌ بحقيق، إذا أتاه أمر من عدوِّه الذي يتخوفه، على نفسه وجنده، وإن كان يلتمس الأمان والصلح، ويظهر المودة لجنده، والسلامة لأصحابه، أن يثق به، ويطمئن إليه، ويغترّ بقوله، فإنَّه قد يكون بأشباه ذلك، يطلب النُّهزة والفُرصة، ومن يَسترسل إلى عدوِّه، ويطمئن إليه، يصيبه الشرُّ، ما أصاب البومَ من الغربان.

قال الملك وكيف كان ذلك؟

١ - مثل: البوم والغربان

قال الفيلسوف: زعموا أنه كان في جبل من الجبال، شجرة عظيمة، كثيرة الغصون، شديدة الالتفاف، فيها وكر ألف غراب، عليهم والٍ من أنفسهم، وكان في ذلك الجبل كهف فيه ألف من البوم، عليهم ملك منهم.

فخرج ملك البوم ذات ليلة، بمن معه من جنده، وفي نفسه العداوة لملك الغربان، وفي نفس الغربان وملكها مثل ذلك للبوم، فأغار على الغربان وأكثر فيهم القتل والجراح، ولم يعلم ملك الغربان بذلك حتى أصبح، فلما كان الغد، ورأى ما لقيَ جنده، اهتم وحزن.

واجتمعت الغربان إلى ملكها، فقلن له: قد علمت ما لقينا الليلة من ملك البوم، وما منّا لإلا أصبح قتيلاً، أو جريحاً، أو مكسور الجناح، أو منتوف الريش، أو مقطوف الذنب، وأشد مما أصابنا ضراً علينا، جراءتهن علينا، وعلمهن بمكاننا، وهنّ عائدات إلينا غير منقطعات عنّا لعلمهنّ بمكاننا، فإنما نحن لك، ولك الرأي أيها الملك، فانظر لنا ولنفسك.

فكر ملك الغربان في أمره، وكان في الغربان خمسة ذوي تجربة، وعلم بالأمور، ونظر، ومكر، وخداع، وحيل، ورفق، فخلا بهن، وسألهن عن رأيهن فيما أصابهن، وقال لأولهن: ماذا تشير به، فإنه قد كان ما قد رأيت؟



قال الاول: الحيلة في ذلك، ما كانت الحكماء تذكره، فإنه كان يقال، إذا أتاك العدو الذي لا يقوى على قتاله، فإن أمثل الرأي لك في أمره، الهرب منه، والنجاة إلى الموئل (المَلْجأ والمَنْجى).

ثم سأل الملك الثاني، فقال: ما رأيك أنت في هذا الأمر؟

قال الثاني: رأي ما رأى هذا من الهرب.

قال الملك: لم تقولا شيئا، ولا أرى لكما ذلك رأياً، أن نرحل عن أوطاننا، ونترك أثقالنا ومعايشنا ونهرب، ونخليها لعدونا، ولا نبدأ بالهرب، وإضاعة الأموال والأثقال، فيكون ما أصابوه من ذلك علينا لهم عونا.

ثم قال الملك للثالث: ما رأيك أنت؟

قال الثالث: لعمري، ليس ما تدافعه الليالي، بمستقيم لنا، إلا أن نبعث منا، من له نظر، وفضل، ورفق، فيكون قريبا منهم، ويتجسسوا الاخبار، ويعلموا ما يريدون، وهل يرضين صُلحا، أو فديةً، أو خراجا، نؤديه إليهنَّ، فإن فعلن، فنحن أحق بالقدم في ذلك، والاقرار به، والاستسلام له، ونقيم بمكاننا ووطننا آمنين، غير متخوفين لهن، فإنَّ من الرأي للملوك، إذا اشتدت شوكة عدوِّهم، وخافوا على أنفسهم ورعيتهم الهلكة والفساد،

التماس الأمان، وأن يجعلوا الأموال جُنَّة للرعية والبلاد، وتعجيل ما أشرت إليه، أفضل من تأخيره.

قال الملك للرابع: فما رأيك فيما قال صاحبك؟

قال الرابع: لا أرى ذلك، فإنه صغار وذل، بل أن نفارق أوطاننا، وننطلق الى البرية، فنسكنها، ونعالج فيها سقط المعيشة، حتى يفرغ الله لنا أفضل وأمثل.

وأن نصبر على الغربة، وشدة المعيشة، خيرٌ من أن نضيع أحسابنا، ونخضع للعدو الذي نحن خيرٌ منه وأشرف، وإنه يقال، من رضي بالذل، فقد وضع نفسه، وأعان عدوه عليها، وجعل ذلك ذريعة إليها.

وأني قد عرفت، أنَّا لو عرضنا ذلك على البوم، لم يقبَلن منّا إلا بالشَّطط (الْجَوْرِ)، وقد يُقال: قارِب عدوَّك بعض المقاربة، لتنال حاجتك، ولا تقاربه كل المقاربة، فيجترئ عليك، وتضعف وتذلَّ نفسك.

ومَثَلُ ذلك، مَثَلُ الخشبة القائمة في الشمس، فإنْ أمَلْتَها قليلًا زاد ظلُّها، وإذا جاوزت بها الحد في إمالتها، نقص الظلّ، وليس عدوُّنا براضٍ منَّا بالدون في المقاربة، فالرأي لنا ولك المحاربة والصبر، فنُجمِع أمرنا، ونستعد لعدوّنا، ونذكي العيون ما بيننا وبينهم، ونحترس من الغِرَّة والعودة، فإذا أقبل علينا عدوّنا، لقيناه مستعدِّين لقتاله، فقاتلناه غير مراجعين (مترددين) ولا مقصرين، مزاحفة تلقى أطرافنا أطرافه، ونتحرز منه تحرزا حصينا، ونُدافع الأيام حتى نصيب فرصتنا وبغيتنا، ولعلّنا نظفر به.

قال الملك للخامس: ماذا ترى أنت، وما تقول في القتال؟

قال الخامس: إنه ينبغي لنا أن لا ننصب للبوم القتال، ما وجدنا لغيره سبيلا، لأنهن أقوى عليه منا، وقد قيل أن من لم يعرف قدر نفسه وقوله، وقاتل من لا يقوى عليه استضعافا، حمل نفسه على هلاكها وضرها،

واغترّ، ومن اغترَّ أمكن مِن نفسه ولم يسلم، فليس أحد بحقيق أن يزدري عدوه، وإن كان مهينا.

وأكيَسُ الأقوام، مَن كره القتال لجل النفقة فيه، ولم يلتمس الأمر بالقتال، ما وَجَد إلى غير القتال سبيلا، وإنَّ النفقة في القتال من الأنفس والأموال والعمل، وما دون القتال نفقة فيه من أموال وقول وعمل، وأنا للبوم شديد الهيبة، ولو أنها أضربت عن قتالنا، وقد كنَّا نهابها قبل إيقاعها بنا.

والملك المشاوِر، يُصيب في مشاورته، ذوي العقول من نصحائه، من الظفر، ما لا يُصيبه بالكثرة والعدد، ولا ينفكّ يعرضُ الأمور على نفسه أمرا أمرا، يتروَّى في الإقدام على ما يريد منها، والأعوان الذين يستعين بهم عليها، والعُدَد التي يعدُّ لها، فمن لا يكون له رأي في ذلك، ولا نصيحة من الوزراء الذين يُقبل منهم، لم يلبث.

فنهض الملك من ساعته، وخلا به، فكان أول ما سأله عنه الملك، أنه قال: هل تعلم ما كان سبب عداوة، ما بيننا وبين البوم؟

قال: نعم، كلمة تكلم بها غراب.

٢ - مثل: كلمة تكلم بها غراب

قال الملك: وكيف كان ذلك؟

قال الغراب: زعموا أن جماعة من الطير، لم يكن لها ملك، فأجمعت أمرها على بومٍ، لتُملِّكه عليها.

فبينما هي في ذلك، إذ وقع لها غراب، فقالت: لو جاءنا هذا الغراب، لاستشرناه في أمرنا. فلم يلبثن دون أن جاءهن الغراب، فاستشرنه فيما قد أجمعن عليه من تمليك البوم.



قال الغراب: لو أنَّ الطير كلَّها فُقِدت وبادت، فلم يبق طاووس، ولا بط، ولا حمام ولا نعام، لم يكن ينبغي تمليك البوم، فإنه قبيح المنظر، سيئ المخبر، فسد المروءة، قليل العلم، ناقص العقل، سريع الغضب، برد الرحمة، لا يبصر بالنهار، ومن شرِّ أموره سوء تدبيره، ولا يطيق طائر يقرب منه، لصلفه، وخُبث نتْنه، وسوء خلقه، إلا أن ترين أن تكن أنتن تدبرن الأمور، برأيكن وعقولكن، وإن المُلْك، إذا كان قرابينه ورسله صالحين، استقام كما فعلت الأرانب، وعملت برأيها.

قال الطير: وكيف كان ذلك؟

٣ - مثل: الارنب، والفيل، والقمر

قال الغراب: زعموا، أن أصاب الفِيَلة، سنة لم يمطروا فيها، فنقصت المياه، وهلك النبات، وغارت العيون، ويبس الشجر، فشق ذلك على الفيلة، وشكت ذلك إلى ملكها، فقلن: إن العشب والماء قد غار، وإن استطعت أن تحتال لنا فافعل ذلك، فإن إقامتنا هلكة.

فأرسل الملك رسُله في طلب الماء، في كل ناحية، فرجع إليه بعض الرسل، فأخبره بأنَّه وجد في بعض الأمكنة عيناً تدعى القمَرية، كثيرة الماء، والعشب منها قريب، ولنا فيها شرب ومرعى.

فأجمع ملك الفِيَلة التحول إليها، فتوجَّه بفيلته، وكانت العين في أرض للأرانب، فجعلن الفِيَلة يطأن الأرانب في أحجرتهن، فيقتلن فيها، فأهلكن منهن كثيرا.

فلما صدت الفيلة عن الماء، وذهبن الى المرعى، اجتمعت الأرانب فقلن: قد علمتم ما أصابنا من الفيلة، وإنَّ العاقل يلتمس المخارج عند وقوع البلاء، وقبله، وعند ما يتخوف منه، ونحن مشفقون من رجوعهن إلينا، فليحضرن منكن كل ذي رأي، رأيه.

قال أرنب منهن، معروفا بالدهاء وحسن الرأي والأدب: لا تخفن الفيلة، وابعثن معي أميناً، يرى ويسمع ما أقول، ويرفعه إليكن.

قالت الارانب: أنت واثق عندنا، ولسنا نريد عليك شاهدا، ولست بالمتهم، ونرضى بقولك، فانطلق إلى الفيلة، وانظر الذي ترى، واعمَل برأيك، واعلم، أن الرسول هو الذي يصلح الامر أو يفسده، ويقرب السوء أو يبعده، ويخبر عن عقل المرسل، وهو الذي يلين الصدور إذا رفق، ويخشن الصدور إذا خرق.

فانطلق الأرنب في ليلةٍ، القمرُ فيها طالع، حتى انتهى إلى موضع الفِيَلة، وفكر حين دنا منهن وقال: أنا خفي صغير، وهن عظام، فأخاف إن دخلت بينهن، أن يطأني بعضهم، فيقتلني، وإن لم يُرِدْن ذلك، وقد قيل، أنه من مسح الحية، فلم تنهشه، فهو حري أن يسيل عليه شيء من لعابها، فيقتله، ولكن، ينبغي لي أن أصعد على مكان مشرف عليهم، فأكلمهم بالذي أريد.

ففعل ذلك، وأشرف على تلٍّ فنادى: يا ملك الفيلة، إن القمر بعثني إليك، والرَّسول، مبلِّغ غير ملوم، لا يقتل ولا يؤسر، وإنْ أَغْلَظَ في القول، لأنه

إنما عليه البلاغ.

قال ملك الفيلة: وما بعثك به القمر؟

قال الارنب: يقول لك، إن من عرف فضل قوته على الضعفاء، فاغتر بذلك بالأقوياء، قياساً لهم على الضعفاء، كانت قوته وبالاً عليه.

وإنك قد عرفت فضل قوَّتك على الدواب، فغرَّك ذلك منِّي، فعمدت إلى العين التي تسمى باسمي، فشربت منها، وكدّرتها أنت وأصحابك.

فأنذرك، ألا تعود إلى مثل ذلك، وإنك إن فعلت، أُغشِي بصرك، وأتلف نفسك، وإن كنت في شكٍّ من رسالتي، فهلم إلى العين من ساعتك، فإني موافيك بها.

فعجب ملك الفيلة من قول الأرنب، وانطلق إلى العين مع الرسول. فلما نظر إليها، رأى ضوء القمر في الماء، فقال له الارنب: خذ بخرطومك من الماء، واغسل وجهك، واسجد للقمر.

فأدخل الفيل خرطومه في الماء، فتحرك، فخيل للفيل أن القمر ارتعد، فقال: ما شأن القمر ارتعد؟ أتراه غضب مني ؟



قال الأرنب: نعم، فاسجد له.

فسجد الفيل للقمر مرة أخرى، وتاب إليه مما صنع، وشرط له، ألّا يعود هو، ولا أحدٌ من فيلته إلى العين.

قال الغراب: ومع ما ذكرت لكم من أمر البوم، فإنَّ من شأنها الخِبّ (الغش) والخديعة، وشرُّ الملوك المخادع، لا يستطاع الدنو منه، ولا المشاورة له لفجوره، وحمله، وكثرة شره، ومن ابتلى بسلطان مخادع، وخدمه، أصابه ما أصاب الأرنب، والصفرِد (طائر أَعظم من العُصفور، وفي المثل، أَجْبَنُ من صِفْرِدٍ)، اللذينِ حكَّما السِّنَّور (القِطِّ الوَحْشِيّ).

فقالت جماعة الطير: وكيف كان ذلك؟

٤ - مثل: الارنب، والصفرد، والسنور

قال الغراب: كان لي جارٌ من الصفارِد، وكره في أصل شجرة، قريبة من وكري، وكان لي وادا محبا، ثم فقدته، فلم أعلم أين غاب، وطالت غيبته عني، واهتممت لغيبته، وتخوفت أن يكون قد قتل.

وجاءت أرنب إلى مكانه لتسكنه، فكرهت أن أخاصِمها في مكان الصِّفرِد، ولا أدري ما فعل به الدهر، فلبثت الأرنب في ذلك المكان، زمانًا.

ثم إن الصفرد، أتى منزله بعد زمان، فلمّا وجد فيه الأرنب قال لها: هذا المكان مكاني، فانتقلي عنه.

قالت الأرنب: المسكن في يدي، وأنت المدَّعي، فإن كان لك حقٌ، فاثبته عليّ.

قال الصفرد: المكان مكاني، ولي على ذلك البيّنة.

قالت الأرنب: نحتاج إلى القاضي قبل البيّنة.

قال الصفرد: القاضي منا قريب، فهلمي بنا إليه.

قالت الأرنب: ومن القاضي؟

قال الصفرد: سنوراً متعبداً، يصوم النهار، ويقوم الليل كله، ولا يؤذي دابة، ولا يهرق دماً، عيشه من الحشيش، فإن أحببت، تحاكمنا إليه، ورضينا به.

قالت الأرنب: إذا كان كما وصفت، فاذهب بنا إليه.

فتوجها إليه، وتبِعتُهما لأنظر إلى الصوَّام، وقضائه بينهما، فلما ابصرهما، انتصب قائمًا يُصلِّي، وأظهر الخشوع والتنسك. فعجبا لما رأيا من حاله، ودنوا منه هائبين له، وسلما عليه، وسألاه أن يقضي بينهما. فأمرهما أن يقصا عليه القصة، ففعلا.

فقال السنور: لقد أدركني الكِبَر، وثَقُل سمعي، فما أكادُ أسمع، ولست أفهم خصومتكما، فادنُوَا منّي لأسمع منكما. فَدَنَوَا، وأعادا عليه قصتَّهما، وسألاه الحكم.

قال السنور: قد سمعت مقالتكما، وإني بادئكما بالنَّصيحة قبل القضاء.

فأنا آمركما بتقوى الله، وألَّا تطلبا إلَّا الحق، فإنَّ طالب الحق، هو الذي يُفلِح، وإن قُضيَ عليه، وطالب الباطل مخصوم، وإن قُضيَ له، وليس لصاحب الدنيا من دنياه شيء، لا مالٌ ولا صديق، إلَّا عملٌ صالح قدَّمه فقط، فإنه يبقى له أجره.

والعاقل، حقيقٌ أن يكون سعيه، فيما يبقى ويعود عليه نفعه غداً، ويمقت ما سوى ذلك من أمور الدنيا، ومنزلةُ المال عند العاقل منزلةُ المدر (الطين)، ومنزلةُ النِّساء منزلة الأفاعي، ومنزلة الناس عنده فيما يحب لهم من الخير، ويكره لهم من الشر، منزلة نفسه، فلم يزل يقصُّ عليهما، ويدنوان منه، ويستأنسان به، فوثب عليهما حين تمكن منهما، فقتلهما.

ثم قال الغراب: وإنما ضربت لكم هذا المثل، لأن البوم سريع المكر، صاحب خديعة، وهو من سباع الطير، يأكل الحيوان، ولسنا نثق به، ولا نطمئن الى ما قبله، فلا يكوننَّ تمليك البوم من رأيكن.

فلما سمع الطير ذلك منه، صدقته، وأضربن عن تمليك البوم، وكان هناك بوم حاضر، قد سمع ما قالوا، فقال: ما الذي حرَّ (عطش) إليك من المضرة، وما الذي دعاك الى ما نطقت به، ولا أعلم أنه سلف مني إليك سوء، أوجب هذا.

وبعد، فاعلم أن الفأس يقطع به الشجر، فتنبت وتعود، والسيف يقطع به اللحم، والعظم، فيندمل ويلتئم، واللسان لا يندمل جُرحه، ولا يلتئم ما قطع.

واعلم أن النَّصل من النُّشَّابة، يغيب في الجوف، ثم يُنزع، وأشباه النصال من القول، إذا وصلت إلى القلب، لم تُنزع، ولم تُخرَج. ولكل حريق مطفئٌ، فللنار الماء، وللسم الدواء، وللحزن الصبر، وللعشق الوصال، ونار الحقد لا تخبو أبداً. وإنكم معشر الغربان، قد غرستم بيننا وبينكم، شجرة عداوةٍ وحقدٍ، هي باقيةٌ ما بقيَ الدهر.

فتكلم بذلك طويلا، ثم انصرف غضبان موتورا، ففكر الغراب في أمره، فعرف أنه قد اسرف فيما نطق به، وندم على ما فرط منه، وقال في نفسه: ليتني لم أخبرها بهذه الحال، ولا أعلمتها بهذا الأمر.

لقد خرقِتُ (جَهْلت) فيما كان من قولي، الذي جلبت به العداوةَ على نفسي وقومي، ولم أكن أحقَّ الطير بهذه المقالة، ولا أعناها بأمر ملكها، ولعلَّ كثيرا منها قد رأى الذي رأيت، وعلم أضعاف ما علمت، فمنعها من ذلك الاتقاء، لما لم أَتَوَقَّه، والنظر فيما لم أنظر فيه من حذار العواقب.

وإن الكلام، الذي يرمي به صاحبه، في غير حينه ومكانه وموضعه، فهو، وان مدح في اول امره، مذموما في آخره، ويقبح عليه، ثم لا سيما إذا كان

الكلام مواجهة، يلقى منه سامعه وقائله المكروه، مما يورث الحقد والضغينة، فلا ينبغي لأشباه هذا الكلام، أن تسمى كلاماً، ولكن سهاماً وسُمّا.

والعاقل، وإن كان واثقاً بقوته، وفضله، وقوله، لا يحمله ذلك على أن يجني على نفسه عداوة، اتكالا على ما عنده من ذلك، كمَا أنَّ الرَّجل، وإن كان عنده الترياق والأدوية، لا ينبغي له أن يشرب السمّ، اتكالًا على ما عنده من ذلك، والمناهزة بالعلم، أفضل من العالم بالقول، فإنَّ صاحب العمل بيّنٌ فضلُه عند الخبرة وعاقبة الأمر، وصاحب القول، وإن هو أحسن وأعجَب ببديهته، لم يُحمد ذلك منه بالعمل.

وأنا صاحب القول، الذي لا عاقبة له محمودة، أوليس من سفهي اجترائي على التكلم في الأمر الجسيم، لا أستشير فيه أحدا؟ ومن لم يستشر النصحاء الألبّاء، وعمل برأيه، من غير تكرار النظر والروية، لم يغتبط بمواقع رأيه. فما كان أغناني عما كسبت يومي هذا، وما وقعت فيه من الهم، وعاتب الغراب نفسه بهذا، وذهب.

قال الخامس: فهذا أصل الحقد، والعداوة، التي بيننا وبين البوم، فاعمل رأيك.

قال الملك: قد فهمتُ هذا، فخذ بنا فيما نحن أحوج إليه اليوم، وأشِر علينا برأيك، الذي ترى أن تَعْمَل به، فيما بيننا وبين البوم.

قال الغراب: قد استشرتني، في أمر جوابك منّي عنه، في بعضه علانية، وفي بعضه سر، وإني قد كنت أعلمتك لأي شيء لا ينبغي لنا ان نقاتل البوم، وللأسرار منازل، منها ما يدخل فيه الرهط، ومنها ما يستعان فيه بالقوم، ومنها ما يدخل فيه الرجلان، ولست أرى لهذا السر، على قدر منزلته، أن يشترك فيه إلا أربع آذانٍ ولسانان، ومن حصَّن سرَّه، فإنه من تحصينه إياه في أحد أمرين، إما ظفَر بما يريد، وإمَّا سلامة من عيبه وضره.

وإنَّ العاقل، لا يأمن عدوَّه على كل حال، إن كان بعيدًا، لم يأمن سطوته ومعاودته، وإن كان متكشِّفًا لم يأمن استطراده، وإن كان قريبًا لم يأمن مواثبته (المسارعة والمبادرة)، وإن كان وحيدًا لم يأمن مكره.

وإن الفضل، وُكِّل بالعاقل، المستمع، من ذوي العقول، وإذا كان ليس بعالم، كانت مشاورته جهالا، وننظر، لعلنا نقدر ان نحتال ما يكون فيه الفرج، إن شاء الله تعالى، فإنه ربَّ قوم قد احتالوا بآرائهم، حتى ظفروا بما أرادوا، ومن ذلك، حديث الجماعة، الذين احتالوا بمكرهم وخديعتهم، حتى شككوا الناسك في أمره، وهو به مستيقن.

قال الملك: وكيف كان ذلك؟

٥ - مثل: الناسك الذي شك في أمره

قال الغراب: زعموا أنَّ ناسكا، اشترى ماعزا، ليجعله قُربانًا، فانطلق به يقودُه، فبصر به قوم من المكرة، فائتمروا بينهم ليخدعوه عنه.

فعرض له أحدهم فقال له: أيها الناسك، ما هذا الكلب الذي معك؟

ثم عرض له الآخر، فقال لصاحبه: إني لأظن أنَّ هذا الرجل، الذي عليه لباس النسَّاك، ليس بناسك، فإن الناسك لا يقود الكلاب.

ثم عرض له آخر فقال: أنت تريد الصيد بهذا الكلب؟

فلم يزالوا على هذا، وأشباهه، حتى شككوه، وظن أنه كلب، وقال: لقد خدعني الذي باعه لي. فأطلقه من يده، فأخذه الجماعة المحتالون، ومضوا به.

وإنما ضربت لك هذا المثل، لما أرجو أن نصيب من حاجتنا، بالرفق والحيلة. فأنا أرى أن يغضب عليَّ الملك، فيأمر بي على رءوس جنده، فأُضرَب حتى أتخضب بالدم، وينتف ريشي وذنبي، ثم أطرح في أصل

هذه الشجرة، ويرتحل الملك هو وجنوده، إلى مكان كذا، فأرجو أنّي أصبر، وأطلع على أحوالهم، ومواضع تحصينهم وأبوابهم، فأخادعهم، وآتي إليكم لنهجم عليهم، وننل منهم غرضنا، إن شاء الله تعالى.

قال ملك الغربان في نفسه: أفعل ذلك، وآخذ في رأيه. ففعل به ذلك، وذهب بغربانه إلى المكان الذي وصف له.

فلما كان اليل، جاءت البوم لتهلك الغربان، فلم تجدها، ولم تفطُن بالغراب في أصل الشجرة، فهمت بالانصراف، ففكر الغراب في أمره، فجعل يئِنّ ويهمِس، حتى سمعه بعض البوم، فلمَّا رأينه، أخبرن به ملِكهنّ، فعَمد نحوه في بومات، يسأله عن الغربان.

قال الغراب: أنا فلان بن فلان، وانت ترى ما نزل بي من البلاء الذي ارتكبته الغربان، فإنهن لم يفعلن ذلك، الا وهن يظننن ان نفسي قد تلفت، ولست أدرى اين هربت، ولا اعلم بمكانهن، الذي انتهين اليه.

قال ملك البوم: هذا مشورة ملك الغربان، وصاحبُ رأيه، فسلوه بأيِّ ذنبٍ صُنِع به هذا؟

قال الغراب: سفهُ رأيي فَعل بي ما ترى.

قال الملك: وما ذلك السفه؟

قال الغراب: انكن لما أوقعتن أذى بالغربان، واصبتن منهن ثم انصرفتن، دعانا ملكنا فقال اشيروا علي.

فكان رأي جماعة قتالكم، وكنت من الملك بمنزلة وبمكان، وأمرته بالرفق، وقلت له: انكن الى الضعف والعجز ما أنتن، وان البوم اهل نبالة وبأس، ولا أرى لكم طاقة بقتالهن، ولكنّ الرَّأي لكم أن تطلبوا الصّلح، وتؤدوا الخراج، والبعوضة تريد اختلاس النار، ولا تتقيها، فتحترق منها.

فقال الملك: نراك واطأت عدونا.

فقلت: إنَّهنَّ أشدُّ بطشا، وأجرأ قلوبا، ومن قاتل من لا يقوى عليه، فقد غرر بنفسه، وكان خليقاً أن يسلب صحيح ما أوتى من الخير.

فقال الملك: الاستجداء!؟ إن ذلك العار الشديد، وإن المرء العالم، إذا كانت عيشته في حسن وذكر، وإن كانت قصيرة، خير من طول في عار، بل مالأتَ (ساعَدْت وعاوَنْت) البوم علينا وغششتنا.

وغضب من قولي، ورد رأي ونصيحتي، وعذبني بهذا العذاب، ولا علم لي بهن بعد ذلك.

فلما سمع ملك البوم ما قال الغراب، أرسل إلى أهل مشورته فقال لأحدهم: ما ترى في هذا الغراب؟

قال: لستُ أرى أن نناظر هذا، وليس لك في أمره نظرٌ، إلَّا المُعاجلة بالقتل، فإنَّ هذا أفضل عُدد (ما يُعَدُّ لأمرٍ ما) الغربان، وفي قتله لنا فتح عظيم، وراحة من مكيدته، وفقده على الغربان شديد، وقد كان يُقال: مَن استمكن من الأمر الجسيم. فأضاعه، لم يقدر عليه ثانيةً، ومَن التمس فرصة العمل، وأمكنته، ثم غفل عنها، فاته الأمر، ولم تَعُد إليه الفرصة، ومَن وجد عدوَّه ضعيفًا، فلم يستَرِحْ منه، أصابته النَّدامة حين يقوى العدوّ ويستعدّ، فلا يقدر عليه.

قال الملك لآخر من وزرائه: ما ترى أنت في هذا الغراب؟

قال: أرى ألا تقتله، ولكن استبقيه، فانه قد لقي من أصحابه ما لقي، وقد ضيعوه، وركبوا منه، ما لعله يعطفه على النصيحة لك، فيكون في ذلك دليل لك على عوراتهن، ومعينا على ما فيه هلاكهن، كالتاجر الذي عطَّف عليه السارقُ امرأتَه، بأمر لم يتعمده.

قال الملك: وكيف كان ذلك؟

٦ - مثل: اللص، والتاجر وزوجته

قال الوزير: زعموا أنَّ تاجرًا كان كثير المال، وكانت امرأته حسناء، ذات جمال، وكانت له مُبغضة، لا تمكِّنه من نفسها، وكان لها عاشقًا، لا يزيده ذلك إلَّا حُبًّا لها.



ثم إنَّ سارقا، أتى بيت التاجر ليلة، فلمَّا دخل البيت، وافق التاجر نائما، وامرأته مُستيقظة، فذُعِرت من السارق، ووثبت إلى التاجر فالتزمته.

فاستيقظ التاجر وقال: ليت شعري، ما بدا لك فيّ؟

فلما رفع رأسه، وبَصُر بالسارق، عرف أن الخشية منه، هو الذي دعاها الى ما صنعت، فقال: أيها اللص، قد أتيت الي ما شكره جدير، اذ وفقت ما انا له محب، وهو لي مباعد، فخذ من متاع البيت ما بدا لك.

ثم إنَّ الملك سأل الثالث من وزرائه عن رأيه في الغراب، فقال الثالث: إنَّ من إحكام تمكُّن الرجل من أعدائه، أن يستدخل منهم أعوانًا على الباقين، والعاقل يرى معادات بعض أعدائه بعضاً ظفراً حسناً، ويرى اشتغال بعض

أعدائه ببعض، خلاصاً لنفسه منهم، ونجاة، كنجاة الناسك من اللص والشيطان، حين اختلفا عليه.

قال الملك: وكيف كان ذلك؟

٧ - مثل: الناسك، واللص، والشيطان

قال الوزير: زعموا أن ناسكًا أصاب مرة، بقرة حلوبا، فانطلق بها يقودها إلى منزله، وتبعه لِصّ، فحدَّث نفسه بسرقتها، واتبعه شيطان يريد اختطافه.

فقال الشيطان للص: من أنت؟

قال اللص: أنا لص، أريد أن أسرق البقرة من الناسك إذا نام، فمن أنت؟

قال الشيطان: أنا الشيطان، أريد اختطافه إذا نام، وأذهب به.

فاتفقا على هذه الحال، حتى انتهيا إلى منزل الناسك مُمسيينِ، فدخل الناسك، ودخلا خلفه، وأدخل بقرته، وربطها في زاوية المنزل، ثم تعشَّى ونام.

فأقبل اللص والشيطان، يأتمران فيه، واختلفا على من يبدأ أولاً، فقال الشيطان للص: إن أنت بدأت بأخذ البقرة، فربما استيقظ وصاح، واجتمع الناس، فلا أقدر على أخذه، فأنظرني ريثما آخذه، ثم عليك بالبقرة.

فأشفق اللص، إن بدأ الشيطان باختطافه، فربما استيقظ، فلا يقدر على أخذ البقرة، فقال: لا، بل انتظر حتى أخرِج البقرة، ثم عليك بالرجل.

فأبى كل واحدٍ منهما على صاحبه، فلم يزالا في اختلاف، حتى نادى اللص الناسك، أنِ انْتَبِه، فهذا الشيطان يُريد أن يأخذك، ونادى الشيطان الناسك: أيها الناسك، إنَّ هذا اللص يريد أن يسرق بقرتك.

فانتبه الناسك وجيرانه لصوتهما، وهرب الخبيثان.

فلمَّا فرغ الثالث من كلامه، قال الأول من أهل مشورة البوم، الذي أشار بقتل الغراب: أظن أن الغراب قد خدعكنَ، ووقع كلامه في نفس الغبي منكنّ موقعه، وغركم قوله وتضرُّعه، حتى اطمأننتم إليه، واسترسلتم، فتردن أن تضعنّ الرأي في غير موضعه، فمهلاً مهلاً أيها الملك، فإني أخاف عاقبة كينونته بيننا، وانظُر نظَرَ ذوي اللبّ، الذين يعرفون أمورهم وأمور عدوِّهم، ولا يثنِكنَّ عن رأيِكنّ، فتكونوا بما تسمعون، أشدّ تصديقًا منكم بما تعلمون، كالنَّجار الذي كذَّب ما رأى، وصدَّق بما سمع، فاغترَّ وانخدع.

قال الملك: وكيف كان ذلك؟

٨ - مثل: النَّجار الذي كذَّب ما رأى، وصدَّق بما سمع

قال الوزير: زعموا أنه كان رجل نجار، وكان له امرأة يحبها، فعلقها جار له، وقيل له في معناه، ففطن فقال: لست أصدق شيئا عليها، حتى أعاينه.

فأحبَّ أن يتيقن ذلك، ليقابل امرأته بحق، فقال لها: إني أريد الذهاب إلى قرية، هي منَّا على فراسخ، لأعمل هنالك عملًا لبعض الأشراف، وإني غائبٌ عنكِ أياما، فأعِدِّي لي زادا.

ففرحت المرأة بذلك، وأعدَّت له زادا، فلمَّا أمسى قال لها: استوثِقي من باب الدار، واحفظي بيتك حتى أرجع إليك.

فخرج وهي تنظر إليه، حتى جاوز الباب، ثم دخل من مكانٍ خفيّ، من منزل جارٍ له، واحتال حتى كمن تحت سريره.

وأرسلت المرأة إلى خليلها، أن ائتِنا، فإنَّ الرجل النجَّار قد خرج في حاجة له، يغيبُ فيها أياما، فاتاها، وخلا بها على الفراش، ليلا طويلا، فوق زوجها المخدوع.



ثم إنَّ النجَّار غلبه النعاس فنام، فخرجت رجله من تحت السرير، فرأتها امرأته، فأيقنت بالشرّ، فسارَّت خليلها، أن ارفَع صوتَك فسلني: أيما أحبُّ إليكِ، أنا أو زوجك، وإذا امتنعت فألِحّ عليَّ.

فسألها عما قالت عليه، فردَّت عليه: يا خليلي، ما حاجتك إلى هذه المسألة؟

فألحَّ عليها كما أوصته، فقالت له: يا خليلي، ما ضرك الى هذه المسألة، أظننت أن أحدا من الناس أحب إليّ من زوجي، أو أكرم علي، ألست تعلم، أنَّا معشَرَ النِّساء، إنَّما نُريد الأخِلَّاء لقضاء الشهوة، ولسنا نلتفت إلى أحسابهم، ولا أنسابهم، ولا إلى ما يتغير من أمورهم، فإذا قضينا من أحدهم أرَبا، كان كغيره من الناس، وأمَّا الزَّوج، فإنه بمنزلة الوالد والاخ، وأفضل، فكده وسعيه، إنما هو لها. فقبح الله امرأة، لا يكون زوجُها عندها، كعِدل نفسها، أو أحبَّ إليها منها، ولا متعتك بعد هذا بلذة.

فلمَّا سمع النجار هذه المقالة، قال: إني أرى امرأتي شديدة الحب لي، ووثِقَ من زوجته بالمودَّة، ورق لها.

فلما اسحرت، أخرجت المرأة صديقها، وتناومت على السرير، ولما أصبحت، خرج زوجها من تحت السرير، فقعد عند رأسها يروح عليها، فلما انتبهت، قال لها: يا حبيبة قلبي نامي، فإنك بتِّ الليلة ساهرة، ولولا كراهة ما يسوئك، لكان بيني وبين ذلك الرجل، صخب وأمر شديد.

وانما ضربت لك هذا المثل، بإرادة أن لا تكون ذلك النجار، الذي كذب بما رأى، وصدق ما سمع، لهواه إمرأته، وجهله، وقلة عقله، فالغراب ليس أهل أن يصدق.

واعلموا، أنَّ كثيرا من العدو، لا يستطيع ضررَ عدوّه بالمُباعدة، حتى يلتمسه بالمقاربة والمسامحة، وإني لم أخَفِ الغربان حتى رأيت هذا الغراب، ولعل، هو لنا، حلول بلاء، ووقوع محظور، والرأي للملك قتله، وتعجيل ذلك.

فلم يلتفت ملك البوم إلى قوله، ثم إنَّه أمر، أن يُحمَل الغراب إلى مجمع جنده ومكانهن، فيوصَى به خيرا، ويُكرَم، ويُحسَن إليه.

فقال الوزير المشير بقتله: إذا لم يَقتُل الملكُ هذا الغراب، فلتكنْ منزلتُه منكم، منزلةَ العدوّ، المخوف المحترَس منه، واقصه عن نفسك وجندك، فإنَّه عالِم دهيّ، ذو مكر وخدائع، ولا جاء إلينا إلَّا لما يُصلحه، ويُفسدنا.

ثم إن الغراب قال ذات يوم للملك، وعنده جماعة من البوم، وفيهن الوزير الذي أشار بقتله: أيها الملك، قد لقيت من الغربان ما علمتم، وأردنا قتلي، فحقد ما فعلن بي، في قلبي، غير ذاهب، ولا تطب نفسي حتى أرى حرابكن لهن هلاكا، ولا يستريح قلبي إلا بأخذي بثأري منهن، وأدعو ربي أن يحولني بوماً، فأكون أشد عداوة، وأقوى بأساً عل الغربان، لعلي أنتقم منهن.

قال البوم الذي كان يُشير بقتله: أرأيت جوهرك وطباعك متغيرة؟ أليست أخلاقك تدور معك حيثما درت، وتعود إلى أصلك وطباعك، كالفأرة، التي

وجدت من الأزواج، الشمس، والريح، والسحاب، والجبل، فلم يقع اختيارها إلا على الجرذ، وتركت ذلك كلَّه.

فلم يلتفت ملك البوم، ولا غيره منهنَّ، إلى ذلك القول، ولم يزددن له إلَّا كرامة، حتى نبت ريشُه، ورجعت إليه قوته، وعرف أمر البوم والحيلة لهن، فطار مستخفيا، حتى أتى جماعة الغربان، بما رأى وسمع، فقال للملك: إني قد فرغت مما كنت أريد، وإنما بَقي ما قِبَلك وقِبلَ أصحابك.

قال الغربان وملكهم: نحن متأهبون مستبشرون.

قال الغراب: إن البوم بمكان كذا وكذا، وهنَّ بالنَّهار يجتمعن في مغار في الجبل، والحطب هنالك كثير.

فليحمل كل غراب منكم ما استطاع منه بمنقاره ورجليه، إلى ذلك النقب، وأنا آتيكم بالنار، ففي ذلك الموضع راعي غنَم، وأنا مصيبٌ منه نارًا فألقيها في الحطب.

وتعاونوا أنتم ضربًا بأجنحتكم، أي نفخًا وترويحًا للنار، حتى تضطرم وتتأجج، فما خرج من البوم احترق بالنار، وما بقيَ مات خنقًا بالدخان.



ففعلوا ذلك، فهلك جميع البوم، ورجع الغربان إلى أوطانهن آمنات.

ثم إن ملك الغربان، قال لذلك الغراب بعد أيام: كيف صبرت على صحبة البوم، فإنه يقال، إن لدع النار، أيسر للأخيار من صحبة الأشرار الفجرة، والكينونة معهم؟



قال الغراب: إنَّ ذلك لعلى ما وصفت أيها الملك، ولكن المرء اللبيب، إذا كان بين أظهر عدوه، وهو يريد من الامر ما يرجو به الظفر عليهم، والقدرة على هلاكهم، يصبر على ما يحل به من البلاء، ويصل إليه من الأذى، واحتمل أقاويلهم، ونطق بأهوائهم، ولم تكره نفسه الخضوع لمن هو دونه، ولم يجد لذلك مساءة، حتى يبلغ حاجته، فيغتبط بخاتمة أمره، وعاقبة صبره خيرا.

قال الملك: لقد احتملت مشقّة شديدة، في تصنعك للبوم، وتضرعك لهنّ.

قال الغراب: كان اعتماد ذلك كله، وصبري عليه، للذي رجوت من الفرج فيه، وإنه يصبر من احتمل مشقة يرجو فيها منفعة، كما صبر الأسْود، على حَمل الضفدَع.

قال الملك: وكيف كان ذلك؟

٩ - مثل: الأسود والضفدع

قال الغراب: زعموا أنَّ أسْود (حيَّة عظيمة، سوداء اللون)، كَبِر وهرِم، ولم يستطِع الصيد، فدبَّ مُتحاملًا حتى انتهى إلى غديرٍ كثيرِ الضفادع، كان يأتيه فيتصيد من ضفادعه، فوقع قريبا من العين، شبيها بالكئيبِ الحزين.

فقال له أحد الضفادع: ما شأنك أيها الأسود، نراك مهموما؟

قال الأسود: ومالي لا أكون حزينا، وإنما كان خيرُ عيشي، مما كنت أصيد من هذه الضفادع، فابتُليت ببلاء، فحُرِّمت عليَّ الضفادع، حتى إني لو أصبت بعضها، لم أجترئ على أكله.

فانطلق الضفدع إلى ملك الضفادع، فبشره بما سمع من الأسود، فأتى الملك إلى الأسْود، وسأله عن ذلك.

قال الأسود: إني لا أستطيع أن آخذ من الضفادع شيئًا، إلَّا ما يتصدَّق به الملك عليَّ.

فسرَّ الملك ما سمعه، وقال: ولِمَ ذلك؟ وكيف كان أمرك هذا؟

قال الأسود: سعيت منذ أيام، في إثر ضِفدع لآخذه، فاضطررته إلى بيت ناسك، فدخل البيت ودخلتُ في أثره، وفي البيت ابن الناسك، فأصبت إصبَع الغلام، وظننته الضفدع، فلدغته فمات.

وخرجت هاربا، فتبعني الناسك، ودعا عليَّ، ولعنني وقال: كما قتلت هذا الغلام ظلمًا له، أدعو عليك أن تذلّ وتخزَى، وتكون مركباً لملك الضفادع، فلا تستطيع أخذها، ولا أكل شيء منها، إلا ما يتصدق به عليك ملكها.

فأتيت إليك لتركبني، مقراً بذلك، راضياً به.

فرغب ملك الضفادع بركوب الأسود، وظن أن ذلك فخراً له، وشرفا، ورفعة، فركِب الأسْود أياما، واستطاب له ذلك.

فقال له الأسود: قد علمت أيها الملك، أني محروم ملعون، ولا أقدر على الصيد، إلَّا ما تصدقت به عليَّ من الضفادع، فاجعل لي رزقًا أعيش به.

قال ملك الضفادع في نفسه: إذا كان الأسود مركبا لي، كان أعظم لسلطاني، وأفخم لملكي، فأمر له بضفدعين، يؤخذان في كل يوم، ويدفعان إليه.



فعاش الأسود بذلك، ولم يضره خضوعه للعدو الذليل، بل انتفع بذلك، وصار له رزقاً ومعيشة، وكذلك كان صبري على ما صبرت عليه، التماساً لهذا النفع العظيم، الذي اجتمع لنا فيه الأمن، والظفر، وهلاك العدو، والراحة منه.

قال الملك: كيف كانت سيرةُ ملك البوم في جنده؟

قال الغراب: سيرة بطَر، وأشَر، وفخر وخيلاء، وعجب وضعف رأي.

قال الملك: أخبرني عن عقول البوم، علمهن ورأيهن.

قال الغراب: ما كان عندهن من ذلك شيئا، إلا البوم الذي كان يحثهن على قتلي، فلم يذكرن أني قد كنت ذا منزلة في الغربان، وأني أعد من ذوي الرأي، ولم يتخوفن مكري وحيلتي، ولا قبلنّ من الناصح الشفيق، ولا أخفين دوني أسرارهن، وقد قال العلماء: ينبغي للملك أن يحصن أموره، ولا يطلع أحداً على مواضع سره، وقد قيل إنه ينبغي للمرء أن يحترس من كل شيء، حتى الماء.

قال الملك: وما رأيت منه مما استدللت به على عقله؟

قال الغراب: لِخَلّتين، إحداهما رأيُه في قتلي، وتخويفهن من الهلكة والمضرة، والأخرى، أنه لم يكن يكتُم صاحبَه نصيحة، وإن استثقلها، ولم يكن كلامه مع هاتين، كلامَ خُرقٍ ومكابرة، ولكن كان كلامَ رِفق ولين، حتى رُبَّما أخبر ملكه بعيبه، ولا يصرح له، ولا يغضبه، إنما يَضرب له الأمثال، ويحدِّثه عن عيبِ غيره، فيعرفُ به عيبه، ومن قلة عقولهن، لا يسمعن منه، ولا يلتفتن إلى قوله، ولا يتفكرن فيه، فكن أضعف شيء رأياً.

قال الملك: ما أهلك البوم إلا ضعف رأي الملك، وموافقته وزراء السوء.

قال الغراب: صدقت أيها الملك، فإنه قلما ظفر أحد بسلطان، فلم يبطر، وقلَّ مَن أكثر من الطعام، فلم يسقَم، وقلَّ من ابتُلي بوزراء السوء، إلَّا وقع في المهالك، وكان يقال: لا يطمعنّ ذو الكبر، والصلَف (التَّكبُّر والعُجب)، في الثناء الحسن، ولا يطمعَنّ الخبّ في كثرة الصديق، ولا السيئ الأدب في الشرف، ولا الشحيح في البرّ، ولا الملِك المتهاون بالأمور، الضعيف الوزراء، في بقاءِ مُلكه.

قال الملك: وجدت صرعة المكر، أشد استئصالاً للعدو من صرعة المكابرة، فإن النار، لا تزيد إذا أصابت الشجرة، على أن تحرق ما فوق الأرض منها، والماء ببرده، يستأصل ما تحت الأرض منها، ويقال، في ثلاثة أشياء لا يُستقَلّ، المرض، والعداوة، والدين.

قال الغراب: كلٌّ ما كان في ذلك، فبرأي الملك، وسعادة جدّه، فإنه قد كان يُقال: إذا طلب اثنان أمرا، ظفر به أفضلُهما مُروءة، فإن استويا في المروءة، فأفضلهما أعوانا، فإن استويا في ذلك، فأسعدُهما جَدّا.

وكان يقال: من حارب الملك الحكيم الأريب، الذي لا تبطره السراء، ولا تدهشه الضراء، كان هو داعي الحتف إلى نفسه، ولا سيما إذا كان مثلك أيها الملك، العالم بفروض الأعمال، ومواضع الشدة واللين والفُرَص، والغضب والرضا، والمعاجلة والأناة، الناظر في أمر يومه وغده، وعواقب أعماله.

قال الملك: بل بنصيحتك، ورأيك، وعقلك كان هذا، فإن الرجل الواحد العاقل، أبلغ في هلاك العدو، من كثير العدد من الجنود، وإنَّ من أعجب أمرك عندي، طول لبثك عند البوم، وأنت تسمع الغيظ وتراه، ثم لا تسقطُ عندهم بكلمة.

قال الغراب: لم أزل متمسكاً بأدبك، أيها الملك، أصحب البعيد والقريب، بالرفق واللين، والمتابعة والمواتاة.

قال الملك: وجدتك صاحب عمل، ووجدت غيرك من الوزراء، أصحاب أقاويل، ولقد منَّ الله بك علينا مِنَّة عظيمة، لم نكن نجدُ قبلها لذة الطعام، والنوم، والقرار، وكان يقال: لا يجد السقيم، لذة الطعام والنوم حتى يبرأ، ولا الرجل الشَّرِه، الذي أطمعه السلطان في مال أو ولاية، حتى يُنجَز له ذلك، ولا الرجل الذي قد ألح عليه عدوه، وهو يخافه صباحاً ومساء، حتى يستريح منه، وكان يُقال: مَن أقلعت عنه الحُمَّى، استراح بَدَنه وقلبه، ومَن وُضِع عنه الحِمل الثقيل، استراح مَنكبه، ومَن أمِن عدوَّه ثلج صدره.

قال الغراب: أسأل الله الذي أهلك عدوك، أن يمتعك بسلطانك، وأن يجعل في ذلك صلاح رعيتك، ويشركهم في قرة العين بملكك.

ثم قال الفيلسوف للملك، كان حكيماً أريباً (ذا دهاء وفطنة)، صنع الغربان بالبوم، قلما يرى مثله في علو الهمة، وجودة الرأي، وفي احتراز الأعداء، والحذر، وقلة الثقة والطمأنينة لهم، فإنه شر الصناعات، وأخبث الذخائر الاستكثار من الأصدقاء، والرغبة في احتراز مودتهم، وإن العدو المباين بالطبع، كعداوة الماء النار، لا ينبغي أن يغتر به، وإن هو أظهر توددا وتضرعا.

باب القرد والغيلم

قال الملك للفيلسوف: قد فهمت ما ذكرت، فأخبرني، أطلب الحاجة أيسر، أم الاحتفاظ بها.

قال الفيلسوف: من لم يحسن المحافظة على حاجته، كما حافظ على طلبها، سلبها، ونزعت منه، وأصابه ما أصاب الغيلم، الذي ضيَّع القِرد، بعد أن استمكن منه.

قال الملك: وكيف كان ذلك؟

١ - مثل: القرد والغيلم

قال الفيلسوف: زعموا أنَّ ملك القردة، لما هرم، وذهب شأنه، وضعفت قوته، وثب عليه قرد شاب من أهل بيته، فقال للقردة: قد هرم هذا، وليس يقوى على الملك، ولا يصلح له، ومالأه على ذلك الجند، فنَفَوا القِرد الهَرِم، وملَّكوا الشاب.

فانطلق القِرد الهَرِم هارباً، فلحق بساحل البحر، فانتهى إلى شجرةٍ من شجر التين، فارتقى إليها، فجعل يأكل من تينها، فسقطت منه تينة في الماء، فأبصرها غَيلَم، فأخذها، فأكلها، فاستطابها، فسمع لها القِرد صوتاً وإيقاعاً، فجعل يأكل ويرمي في الماء، فأطربه ذلك، فأكثر من طرح التين في الماء، فأخذها الغيلم فأكلها، فنظر كل واحد منهما صاحبه، فأعجب به، فخرج الغيلم إلى القرد، فتصافحا وتصادقا، وألِف كل واحدٍ منهما صاحبه، ولبثا زمانًا لا ينصرف الغيلم إلى أهله.



وطالت غيبة الغيلم (ذكر السلحفاة) عن زوجته، فجزعت عليه، وحزنت، وشكت ذلك إلى صاحبها، فقالت: ما ترين، ألعلَّه عَرَض له عارضٌ من شرّ؟

قالت صديقتها: إن زوجك قد آخى قردا بالساحل، فهو مؤاكله ومشاربه، فذلك الذي حبسه عنك، فلا تذكرينه إن نسيك، ولا تشتاقين إليه وقد اختار غيرك عليك، واحتالي على هلاك الذي حال بينك وبينه، حتى يخلص لك زوجك.

قالت الزوجة: وكيف أصنع؟

قالت صديقتها: إذا وصل إليك فتمارضي، فإذا سألك عن حالك فقولي: إن الحكماء وصفوا لي قلب قرد.

ثم إن الغيلم اشتاق إلى أهله، فانطلق بعد مدة إلى منزله، فوجد زوجته سيئة الحال، شاحبة اللون، فقال لها: يا أخت، مالي أراك هكذا؟

فأعرضت عنه ولم تجبه، وأجابته صديقتها: إن الذي ترى بها، عن وجع أصابها.

قال الغيلم: إني أبتغي لها الأطباء.

قالت صديقتها: أمَّا مَرَضها فشديد، وأمَّا الدواء فأشدّ، فهل لشدَّة الداء، وعدم الدواء، إلَّا الموت؟

قال الزوج: وما هو، لعلِّي أقدر عليه؟

قالت صديقتها: هذا المرض، ليس له دواء، إلَّا قلبٌ قرد.

فلما سمع ذلك السلحفاة منها، فكر في صديقه وقال: هذا أمرٌ عسير، من أين أقدر على قلب قرد، إلا أن أخدع صديقي، وأغدر به، وأعظم منه وأفظع، هلاك صاحبتي، أفغادِرٌ بصديقي، أم مُهلِك زوجتي؟ كل ذلك لا عذرَ ليَ فيه.

ثم غدا متوجِّهًا نحو القرد، وهو يقول: إذا لم يستطع الرجل عظيمًا، إلَّا باحتمال صغير، كان حقيقًا ألَّا يلتفت إلى الصغير، وحقٌّ الزوجة بعدٌ عظيم، والمنافع فيها كثيرة، والمعونة منها على أمر الدنيا والآخرة غيرٌ واحدة، وأنا حقيقٌ أن أوثِرها ولا أُضيِّع حقَّها، وإنَّ إهلاكي أخًا وفيّا، وَصولا في سبب امرأة، لمن الأمور التي تُخاف عواقبها، وليست لله رضا.

فلما رَآهُ القرد مقبلا، رحب به، وفرح بمجيئه، وقال له: أين كنت يا أخي، وما أبطئك عني؟

قال الغيلم: ما منعني منك، مع شوقي إليك، الا الحياء، لأني لم أكافئك بشيء من صنيعك وإحسانك إليّ، وأنت خليقتك خليقة الكرام الأحرار، الذين يُنيلون الخير مَن لم يُنِلهم إياه فيما مضى، ولا يرجونه منه فيما بقي، والذين لا ينسون جزاءه، فإني أرى حقًّا عليَّ التماس مكافأتك، وإن

كنت قد عرفت أنك لا تلتمس مني جزاءً بمعروفك، وإنه قبيح بي أن لا أجازيك ببعض ما كان.

قال القرد: ما ينبغي لك أن تذكر مثل هذا، فإنه يسير حقير، والمكافأةُ منك بأحسن ما رأيت، وقد سقطتُ إليك من وطني شريدا طريدا، وكنتَ لي سَكَنا وإلفا، أذهبَ الله عنِّي بك، الهمَّ والحزن.

قال الغيلم: إن أفضل ما يلتمس المرء من أخلائه وأصدقائه، أن يغشوا منزله، ويصيبوا من طعامه وشرابه، ويعرفهم ولده وأهله، وأنت لم تطأني رجلا، وذلك منقصة وعار وشين يلزمني.

قال القرد: إنما يود المرء من أخيه، أن يبذل له وده، ويسلم له صدره، ويحبه بقلبه كله، فأما ما وراء ذلك، فقد تعلم أن كثيرًا من الخيل، والبِغال، والحَمير، يجتمعن على الأكل، والسارق يدخل البيت، بغير محبة أهله، ولا صيانة لهم، إلَّا إرادة مالهم ومتاعهم، والذي يلعب على الخشبة، يلتمس النظر، وإنما ينبغي للصديق، أن يلتمس من صديقه ذات نفسه.

قال الغيلم: صدقت، لعمري ما يود المرء من أخيه، إلا وده وحفظه، ولا يُكثرنَّ الرجل على إخوانه حمل المُؤْنات (الشدّة والثقل)، حتى يؤذيهم ويبرمهم، وأريد أن تتم إحسانك إليّ، بزيارتك إياي في منزلي، فإنه في جزيرةٍ كثيرة الشجر، طيبة الفواكه، فاركب ظهري لأسبح بك.

فرغب القرد في ذلك، فنزل وركب ظهر الغيلم، فسبح به، حتى إذا لجَّج به في البحر، عرض في نفسه قبح ما يريد، وفجورُه، وغدرُه، فنكس رأسه، واحتبس مفكِّرًا يقول في نفسه: إن الذي أريد لكفر وغدر، وما أنا بحقيق أن أركبه مع أخي وصفيي، وما الإناث بأهل أن يُوثَق بهنَّ، ويُسترسَل إليهنَّ، لسوء عهدهن وزوال مودتهن، وقد قيل: إنَّ الذَّهب يجرب بالنار، والرجال بالأخذ والعطاء، والدواب بالحمل الثقيل.

فلما رأى القرد احتباس الغيلم، ارتاب وقال في نفسه: ما احتباس الغيلم وإبطاؤه إلّا لأمر، فلعله انصرف قلبه عن مودتي، وأراد بي سوءا، فإنه لا شيء، أخف وزنًا، ولا أشد تغيُّرا، ولا أسرع انقلابا، من القلب، وقد قيل: لا يَغفل العاقل عن التماس عِلم ما في نفس الصديق، والعدو، والولد، والزوجة، عند كل أمر، وفي كل كلمة، وعند كل حال، فإنَّ ذلك شاهدٌ على ما في القلوب، وقد قالت العلماء: إذا دخل قلب الصديق، من صديقه ريبة، فليأخذ بالحزم في الحفظ منه، فإن كان ما يظن حقاً ظفر بالسلامة، وإن كان باطلاً لم يضره ذلك.

ثم قال القرد للغيلم: مالي أراك مهموما؟

قال الغيلم: يهمّني أنك تأتي منزلي، فلا توافق فيه كلّ الذي أحبُّه لك، فإن زوجتي عليلة.

قال القرد: لا تهتم، فإن الهم لا يغني عنك شيئاً، ولا ينتفع به، ولكن التمس ما يصلح زوجتك من الأدوية والأغذية، فإن ذلك أمثل، وإنه يقال: ليبذل ذو المال ماله في ثلاثة مواضع، في الصدقة، وفي الحاجة، وعلى البنين والأزواج.

قال الغيلم: صدقت، وقد قال الأطباء، أنه لا دواء لها، إلا قلب قرد تأكله.

قال القرد في نفسه: قاتل الله الشهوة، والشره، والحرص، والطمع، أهلكت صاحبها، فإنه حملتني قلة قناعتي، بما كانت عليه حالي، على أن وقعت في ورطة لا مجال منها إلا الحيلة، وقد قيل: يعيش القانع الراضي، آمنا، مُطمَئنّا، مستريحا، وذو الحرص والشره والمتسخط، لا يعيش ما عاش، إلّا في تعبٍ، ونَصَبٍ، وخَوفٍ، وكدر من الأشياء، وإني احتاج الآن إلى عقلي، في التماس المخرج مما وقعت فيه.

ثم قال القرد للغيلم: إنه ليس ينبغي للصاحب، أن يدخر عن صاحبه نصيحة، ولا منفعة، وإن أضرَّ ذلك به في نفسه، ما منعك إذ كان الامر

على ما ذكرت، أن أعلمتني، ولو كنت علمت بهذا، كنت قد جئت بقلبي معي.

قال الغيلم: وأين قلبك؟

قال القرد: تركته في منزلي.

قال الغيلم: وما حَمَلك على ذلك؟

قال القرد: سنَّة فينا معشَرَ القرود، إذا خرج أحد لزيارة أخٍ أو صديق، خلّف قلبه عند أهله أوفي موضعه، فإن شئتَ، ارجع بي إلى الشجرة، حتى آتيك به.

فقال الغيلم: لئن فعلت ذلك، فلقد أنعمت علي وأحسنت. وفرح بطيب نفسِ القرد، وانقلب به راجعًا. حتى إذا بلغ الساحل، وثب القرد إلى الشجرة، فصعِدها، وأقام الغيلم ينتظره، فلمَّا أبطأ ناداه الغيلم: يا خليلي، عجِّل، احمل قلبك وانزل، فقد حبستني.

قال القرد: هيهات، أتظن أنّي كالحمار، الذي زعم ابن آوى، أنه لم يكن له قلب ولا أذنان.

قال الغيلم: وكيف كان ذلك؟

٣ - مثل: ابن آوى، والأسد، والحمار

قال القرد: زعموا أنَّ أسدًا كان في أجمة، ومعه ابن آوى، يعيش من فُضولِ صيده، فأصاب الأسد جَرَبٌ شديد، حتى ضعف، فلم يستطع الصيد، فقال له ابن آوى: يا سيّد السباع، ما شأنك؟ قد تغيَّر حالُك، وقلَّ صيدُك، فأنَّى ذلك؟

قال الأسد: هذا الجرب الذي قد أجهدني، وليس له دواء، إلا أن أُصيب قلب حمار، وأذناه.

قال ابن آوى: قد عرفتُ ههنا، مكانَ حِمار، يجيء به قصَّار (المبيض للثياب)، إلى مرجٍ قريب منَّا، يحمل عليه ثيابه التي يغسلها، فإذا وضع عنه الثياب، خلَّاه في المرج، فأنا أرجو أن آتيك به.

قال الأسد: إن قدرت على ذلك فافعل، ولا تؤخِّرنَّ، فإنّ الشفاء لي فيه.

فانطلق ابن آوى إلى الحمار، وسلم عليه، وقال له: مالي أراك مهزولاً؟

قال الحمار: أنا لهذا القصَّار الخبيث، فهو يُسيءُ علفي، ويُديم إتعابي، ويُثقِل ظهري.

قال ابن آوى: وكيف ترضى المقام معه على هذا؟

قال الحمار: فما أصنع؟ وأين أذهب؟ فلست أتوجه جهة، إلا أخذني إنسان، وكدني وأجاعني، فكيف أفلت من أيدي الناس؟

قال ابن آوى: أنا أدلُّك على مكانٍ منعزل، خصيب المرعى، لم يطأه إنسانٌ قطّ، فيه أتان، لم ينظر الناس إلى مثلها قط، حُسنا وتماما، وهي ذات حاجة إلى الفحل.

فطرب الحمار عند ذكر الأتان، وقال: وما يحبسنا؟ ألا إنطلق بنا، فإني لو لم أرغب في إخائك، لكان ذلك حاملي على الذهاب معك.

فانطلق به ابن آوى، وتقدم ودخل الغابة على الأسد، فأخبره بمكان الحمار، فخرج الأسد إليه، فوثب على الحمار من خَلفِه فلم يضبطه، وتخلص الحمار منه، فأفلت هلعاً على وجهه.

قال ابن آوى: قد هَلكنا، أعجزت يا سيد السباع؟

قال الأسد: ردّ الحمار إليّ، فإن جئتني به، فلن ينجو مني أبداً.

فمضى ابن آوى إلى الحمار، فقال له: ما الذي جرى عليك؟ إن الاتانة لشدة علتها، وثبت عليك.

فلما سمع الحمار بذكر الاتانة، نهق، وأخذ طريقه إلى الأسد، فسبقه إبن آوى إلى الأسد، وأعلمه بمكانه، وقال: استعد له، فلا يدركنَّك الضعف، فإن أفلت، فلن يعود معي أبداً.

فخرج الأسد إلى موضع الحمار، فلما بصر به، عاجله بوثبة افترسه بها.



حتى إذا فرغ منه، قال الأسد: إنه وٌصِف لي هذا الدواء، على أن أغتسل، فاحتفظ به حتى أعود، فآكل قلبه وأذنيه، وأترك ما سوى ذلك قوتاً لك.

فلما ذهب الأسد ليغتسل، عَمَدَ ابن آوى إلى أُذُنَي الحمار وقلبه، فأكلها رجاءَ أن يتطيَّر الأسد، فلا يأكل من بقيَّة الحمارِ شيئًا.

فلمَّا رجع الأسد قال: أين قلب الحمار وأذناه؟

قال ابن آوى: أوَ ما شَعَرتَ أنَّ هذا الحمار، لم يكن له قلبٌ، ولا أُذُنان؟

قال الأسد: ما سمعتُ بأعجب من مقالتك!

قال ابن آوى: لو كان له قلب وأذنان، لم يرجع إليك ثانية، بعد أن صنعت به ما صنعت.

وانَّما ضربت لك هذا المثل، لتعلم أني لست كذلك الحمار، الذي زعم ابن آوى أنه لم يكن له قلب وأذنان، ولكنك احتلت عليَ، وخدعتني، فخدعتك بمثل خديعتك، واستدركت تفريطي، وما كنت ضيَّعت من نفسي، وقد قيل: إن الذي يفسده الحلم، لا يصلحه إلا العلم.

قال الغيلم: أنتَ الصادق البارّ، وذو العقل، يُقِلُّ الكلام، ويبالغ في العمل، ويعترف بالزلَّة، ويتثبت في الأمور قبل الإقدام عليها، ويستقيل عثرة عمله بعقله، كالرجل الذي يعثر على الأرض، وعليها ينهض ويستقيم.

قال الفيلسوف للملك: فهذا مثل الذي يطلب أمرا، حتى إذا استمكن منه، أضاعه.

باب الناسك وابن عرس

قال الملك للفيلسوف: قد فهمت ما ذكرت، من تقلب الخيرات، إذا لم يكن صاحبه يحسن الاحتفاظ به، فأخبرني عن العجل، الغير المتثبت، ولا الناظر في العواقب، واضرب لي في ذلك مثلا.

قال الفيلسوف: إن الذي على ما ذكرت أيها الملك، صار أمره، إلى مثل ما رجعت إليه حال الناسك، الذي قتل إبن عرس، كان له وادا محبا، لشيء ظنه به، ولم ينتهي إلى حقيقته، ولم يكن في أمره متثبتاً، ولم يبرح نادماً.

قال الملك: وكيف كان ذلك؟

١ - مثل: الناسك، وابن عرس

قال الفيلسوف: زعموا أن ناسكاً من النساك، كانت له امرأة جميلة، فمكثا زمناً لم يرزقا ولداً، ثم حملت منه بعد الإياس (انقطاع الرجاء)، فسرت المرأة، وسر الناسك بذلك، فحمد الله تعالى، وقال لزوجته: أبشري وقري عينا، فإني أرجو أن تلدي غلاما، يكون لنا فيه متاع ومنافع، وأختار له أحسن الأسماء.

قالت المرأة: لم تتكلم فيما لا تدري، اضرب عن هذا، وارضَ ما قسم الله لنا، فإنَّ العاقل لا يتكلم فيما لا يدري، قلَّ أن يكون أصابه ما أصاب الناسك، الذي أراق على رأسه السمن والعسل.

قال الناسك: وكيف كان ذلك؟

٣ - مثل: الناسك، والسمن، والعسل

قالت المرأة: زعموا أن ناسكاً كان يجري عليه في كل يوم، رزق من السمن والعسل، فكان يأكل منه قوته وحاجته، ويرفع الباقي، ويجعله في جرة، فيعلقها في وتد في ناحية البيت، حتى امتلأت.

فلما كان ذات يوم، وهو مستلق على سريره، والجرَّة فوق رأسه، إذ نظر إليها، فذكر غَلاء السمن والعسل، فقال: أنا بائعٌ ما في هذه الجرَّة بدينار، فأشتري بالدينار عشرة أعنُز، فيحملن ويلدن، حتى يصير لي خمسين عنزا، ولا يمضي عليّ خمس سنين، حتى تصير أكثر من أربعمائة عنْز، ثم أبيعها، فأشتري بأثمانها مائة من البقر، بكلِّ أربعة أعنز ثورا، وأصيب بذرا، فأزرع على الثيران، فلا يأتي عليَّ خمسٌ سنين، إلّا وقد أصبت منها ومن الزرع مالا كثيرا، فأبني بيتا فاخرا، فإذا فرغتُ من ذلك، تزوَّجت امرأةً جميلة، ذات حسَب، فتحبل، ثم تلد ابنًا سويّا مباركا، فأختار له أحسن الأسماء، وأؤدَّبه أدبا حسنا، وأشتدُّ عليه في الأدب، فإن لم يقبل الأدب منِّي، ضربته بهذه العصا هكذا، ورفع العصا يُشير بها، فأصابت الجرَّة فانكسرت، وانصبَّ السمنُ والعسل، على رأسه ولحيته.

وإنما ضربت لك هذا المثل، لكيلا تعجل في شيء، لا تدري أيكون أم لا، ولتنتهي عن الكلام فيما لا تدري، واعبد الله وتوكل عليه.

فاتعظ الناسك بقولها، ثم إن المرأة ولدت غلاماً جميلاً، ففرح به أبوه وأمه، حتى إذا كان بعد أيام، قالت المرأة لزوجها: اقعد عند الصبي، حتى أغتسل وأرجع إليك.

فلم يلبث الناسك إلا قليلا، حتى جاءه رسولُ الملك، فذهب به، ولم يُخلِّف مع ابنه أحدا، غير ابن عرس داجن، كان قد رباه صغيراً.

وكان في بيته جُحر أسْود (حيَّة عظيمة، سوداء اللون)، فخرج يريد الغلام، فوثب عليه ابن عِرس، فقطَّعه قِطَعا، وامتلأ فمه من دمه.

ثم جاء الناسك، وفتح الباب، فالتقاه ابن عرس مبشرا، بما صنع من قتل الحية، فلما نظر إليه الناسك متلطِّخًا بالدم، هام، ولم يظن إلّا أن ابن عرس قد قتل ولده، فلم يتأنَّ ولم يتثبت في أمره، فضرب ابن عِرس بعصا كانت معه، فقتله.



ودخل الناسك منزله، فرأى الغلام حياً، والأسْود مقتولًا، فعرف القصة، وتبين له سوء فعله، فندم ندامة شديدة على ما فرط منه. فلما رجعت امرأته، ودخلت عليه، ووجدته على تلك الحال، قالت له: ما يبكيك؟ وما شأن هذا الأسْود، وابن عِرس مقتولين؟

فأخبرها بالأمر، وقال: هذه ثمرة العجلة، وعاقبة من لم يتأن، وعمل بالعجلة ولم يتثبَّت، وندم حيث لا ينفع الندم.

ثم قال الفيلسوف للملك: إن أهل العقل، بحسن النظر، وبالمودة، والتأني وترك العجلة، وموافقة الأشياء، بما في ذلك من النفع والدفع، ولما في خلافه من الضر والنقض، فليعرف اللبيب ذلك، وليأخذ نصيبه من العمل.

باب السنور والجرذ

قال الملك للفيلسوف: قد فهمت ما ذكرت، فاضرب لي مثل الرجل، إذا كثر أعداؤه، وأحدقوا به من كل جانب، فأشرف على الهَلَكة، فالتمس المخرج بموالاة بعض العدوّ، ومصالحته، فسلِم ممّا يتخوَّف، ووفى لمن صالح منهم، وأخبرني عن موضع الصلح، كيف يكون.

قال الفيلسوف: إن المودة، والعداوة، والبغضاء، لا تثبت على حالة واحدة، وليس كلها تدوم، وكثير من المودة تتحول بغضا، وكثير من البغض يتحول مودة، عن حوادث العلل والأمور، وذُو الرأي والعقل، يُهيئ لكل ما حدث من ذلك رأيا، من الطمع فيما يحدث من ذلك، قِبَل العدوّ، واليأس مما عند الصديق.

ولا تمنع ذا العقل، عداوة كانت في نفسه لعدوه، من مقاربته، والاستنجاد به على دفع مخوف أو جر مرغوب، فذو الرأي، يتحرك لكل ما يطرأ عليه من ذلك عملا، ومن أبصر الرأي في ذلك ظفِر بحاجته، ومن أمثال ذلك، مثل الجرذ والسنور، اللذين اصطلحا حين كان ذلك الرأي لهما صوابا، وكان في صلحهما صلاحهما ونجاتهما من الورطة الشديدة.

قال الملك: وكيف كان ذلك؟

١ - مثل: السنور والجرذ

١ - مثل: السنور والجرذ

قال الفيلسوف: زعموا أنه كان بأرض شجرة عظيمة، كان في أصلها جحر لسنّور، وكان قريباً منه جحر لجرذ.

وكان الصيادون يتداولون ذلك المكان، يصيدون فيه الوحش والطير، فمرّ ذات يوم صياد، فنصب حباله قريباً من موضع السنور، فلم يلبث أن وقع السنور فيها.

وخرج الجرذ يبتغي ما يأكل، وهو مع ذلك حَذِر، يلتفت وينظر، فلمَّا بصر بالسنَّوْر في الشرك، سرّ واستبشر، ثم التفت خلفه، فإذا هو بابن عرس قد تبعه، فكمن له، فنظر فوقه، فإذا هو ببومه على شجرةٍ ترصُده، فتحيّر في أمره، وخاف إن انصرف راجعا، أن يثب عليه ابن عرس، وإن ذهب يميناً أو شمالاً اختطفه البوم، وإن هو تقدم، افترسه السنور.

فقال الجرذ في نفسه: هذا بلاء قد اكتنفني، فلا يكونن من شأني الدهش (تحيَّر وذهب عقلُه، من وَلَهٍ، أو فَزَع، أو حياءٍ)، ولا مَفْزع لي، إلَّا إلى عقلي وحيلتي، فإنَّ العاقل لا يتفرَّق عليه رأيه، ولا يعزُب عنه عقله على حال، وإنما عقول ذوي الرأي، كالبحر الذي لا يُدرَك غَورُه، ولا يبلغ البلاء من ذي الرأي مجهود عقله فيُهلِكه، ولا الرخاء ينبغي له أن يبلغ منه مبلغا، يُبطره، ويُسكِره، ويُعمي عليه أمره.

فلا يذهب قلبي شعاعاً (طَارَتْ نَفْسُهُ خَوْفاً وَفَزَعاً، وخَفَّتْ هِمَّتُهُ)، ولا أرى حيلةً أمثَلَ من التماس صلح السنَّوْر، فإنَّ السنَّوْر قد نزل به بلاء، مثل ما قد نزل بي أو بعضه، ولعل إن سمع كلامي الذي أكلّمه به، ووعى عنّي فَصِيحَ خطابي، ومحض صدقي الذي لا خلاف فيه، ولا خداع معه ، أن يفهم عنِّي، ويطمع في معرفتي، ويسلَس بذلك لصلحي، ولعلَّه يكون له ولي في ذلك نجاة.

ثم إن الجرذ دنا من السنّور، فقال له: كيف حالك؟

قال السنور: كالذي تهوى، في الضنك والضيق.

قال الجرذ: لا تكذيب لك، لعمري قد كان يسرُّني ما ساءك، وأرى ما ضيق عليك لي سعة، ولكن أنا اليوم شريكك في البلاء، ولا يسرني ضيق مكانك

ولا موتك، فلا أرجو لنفسي خلاصا إلّا بالأمر الذي أرجو لك به الخلاص، فذلك الذي عطفني عليك.

وكلامي هذا، ليس فيه كذب ولا خديعة، فإنه قد ترى مكان ابن عرس كامنا لي، والبومة تُريد اختطافي، وكلاهما لي ولك عدوّ، وهما يخافانك ويهابانك، وانا ضعيف لا أطيق دفعهما.

فإن أنت جعلت لي أن تُؤمِّنني، إن أنا دنوت منك، فأنجو بذلك منهما، فإني مُخلِّصك مما أنت فيه، فاطمئِنّ إلى ما ذكرت، وثق به منِّي، فإني كما أحببت بحياتي حياتك، فكذلك أنت حقيق، أن تحب بحياتك حياتي، وخلاص نفسي.

وإنه ليس أحدٌ أبعد من الخير، من اثنين، منزلتُهما واحدة، وصفتُهما مختلفة، أحدهما من لا يثق بأحد، والآخر من لا يثق به أحد، ولك عندي الوفاء بما جعلتُ لك من نفسي، فاقبَل منِّي واسترسِل إليّ، وعجِّل ذلك ولا تؤخِّر، فإنَّ العاقل لا يؤخِّر عمله، وكما ان نجاة الناس من البحر بالسفن، وبهم تنجوا السفن، فكذلك نصير بالتعاون، الى الخلاص جميعا من هذه البلية.

فلمَّا سمع السنَّوْر مقالة الجرذ، سُرَّ بها، وعلم أنه صادق، فقال: إن قولك هذا، لشبيه بالحق والصدق، فأنا راغبٌ في هذا الصلح، الذي أرجو لنفسي، ولك فيه الخلاص، ثم أشكر لك ذلك ما بقيت، وأحرص على جزائك ومكافئتك.

قال الجرذ: دعني أدنو منك، فإذا دنوت، فليَرَ ابن عِرس والبومة، ما يعرفان به صلحنا، فينصرفان آيسينِ (يائس منقطع الرجاء)، فإذا امنت منهما قطعت وثاقك.



ففعل ذلك به السنور، وأخذه فالتزمه، فلمَّا رأت البومة وابن عِرس ذلك انصرفا خائبين، واخذ الجرذ في قطع الشرك، فجعل يقطعه سلكا سلكا.

واستبطأه السنَّوْر فقال: ما منعك أن تجتهد في قطع الشرك، والفراغ له، لعل الذي يمنعك من ذلك، أنك قد صرت إلى حاجتك من الامن، فإن قد كنت ظفرت بحاجتك، فتبدَّلت عما كنت عليه، وتوانيت في حاجتي، فما ذلك من فعل الصالحين.

وإن كريم الخلق، لا يتوانى في حاجة صاحبه، إذا استمكن من حاجة نفسه، وقد كان لك في مودَّتي، من عاجل المنفعة والاستنقاذ من الهلكة ما قد رأيت، وأنت حقيق أن تكافئني بذلك، ولا تذكر العداوة التي بيني وبينك.

فالذي حدث بيني وبينك من الصلح، حقيق أن ينسيك ذلك، مع ما في الوفاء من الفضل، والأجر، وما في الغدر من سوء العاقبة، فإن الكريم لا يكون إلا شكوراً غير حقود، تنسيه الخلة الوحدة من الإحسان الخلال الكثيرة من الإساءة، وقد يقال: إن أعجل العقوبة عقوبة الغدر واليمين الكاذبة، ومَن إذا تُضُرِّع إليه، وسُئل العفو، لم يعفُ ولم يصفَح.

قال الجرذ: الأصدقاء صديقان، صفي ومضطرّ، كلاهما يلتمسان المنفعة، ويحترسان من المضرة.

فأمّا الصفيّ منهما، فيُستَرسل إليه، ويوثَق به على كل حال، وأمّا المضطر، فإنَّ له حالات يُستِرسل إليه فيها، وحالات يُتَّقى فيها، فلا يزال العاقل يَرتهن منه بعض حاجته، ببعض ما يتقَى وما يخاف.

وليس عامّة التواصل والتحاب بين الناس, إلّا التماس عاجلِ النفع، وأنا واف لك بما جعلت على نفسي، ومحترس من أن يصيبني منك مثل الذي ألجأني إلى صلحك، فإنَّ لكل عملٍ حينا، وإن لم يكن في حينه فلا عاقبةَ له.

وأنا قاطعٌ حبائلك لوقتها، غيرَ أنّي تارك عُقدةً واحدةً أرتهنك بها، فلا أقطعها إلّا في الساعة التي أعرف أنك عنّي فيها في شغل، وذلك عند معاينتي الصياد.

ففعل ذلك، وباتا يتحادثان، حتى إذا أصبحا، إذا هما بالصيّاد قد أقبل من بعيد.

قال الجرذ: الآن جاء موضع الجدّ، في قطع بقية حبالك.

فأجهد الجرذ نفسه في القرض، ولم يدنُ منهما الصياد حتى فرغ الجرذ، على سُوءِ ظنٍّ من السنَّوْر ودَهَش، حتى إذا فرغ، وثب السنور إلى الشجرة، ودخل الجرذ بعض الأحجار، فأخذ الصيّاد حبائله مقطّعة، وانصرف خائبًا.

وخرج الجرذ بعد ذلك من جُحره، فرأى السنَّوْر من بعيد، فكره أن يدنو منه، فناداه السنَّوْر: أيها الصديق الناصح، ذو البلاء الحسن، ما منعك من الدنوّ منّي، لأجزيك بأحسن ما أبليتني؟

هلمَّ إليَّ ولا تقطع إخائي، فإنه من اتخذ صديقاً، ثم أضاع ودَّ إخائه حُرِم ثمرة الإخاء، وأضاع صداقته، وأيس من منفعة الإخوان.

وإنَّ يدك عندي اليد التي لا تُنسى، وأنت حقيقٌ أن تلتمس مكافأة ذلك مني، ومن إخواني وأصدقائي، فلا تخافنّ مني شيئاً، واعلم أن ما قِبلي لك مبذولٌ.

ثم حلف السنَّوْر، واجتهد على صدقه فيما قال.

قال الجرذ: رُبَّ عداوةٍ باطنة، ظاهرُها صداقة، هي أشدُّ ضرًّا من عداوة ظاهرة، ومَن لم يحترس منها، وقع موقع مَن يركب ناب الفيل المغتلِم، ثم يغلبه النعاس، فيستيقظ تحت فراسن الفيل، فيدوسه، فيقتله.

وإنما سمي الصديق صديقاً، لما يرجى من نفعه، وسمي العدو عدواً، لما يخاف من ضرره. والعاقل، إذا رجا نفع العدو، أظهر له الصداقة، وإذا خاف ضرّ الصديق، أظهر له العداوة.

أوَلَا ترى أولاد البهائم، تتّبع أمهاتها رجاء ألبانها، فإذا انقطع ذلك، واستغنت عن الرضاعة، انصرفت عنها. وكما أنَّ السحاب يلتئم ساعة، ويتقطَّع أخرى، ويَهمي ساعة ويُمسِك أخرى، كذلك العاقل يتلوَّن مع متلوِّنات الأمور، عن اختلاف أحوال الأصحاب، فينبسط مرة وينقبض أخرى، ويسترسل مرة ويحترس أخرى.

وربما قطع الصديق عن صديقه، بعض ما كان يصله بفضله، فلم يخف شرّه، لأن أصل أمره لم يكن عداوة، فأما من كان أصل أمره عداوة، وتحدث صداقته لحاجةٍ حملته على ذلك، فإنه إذا ذهب الأمر الذي أحدث ذلك، صار إلى أصل أمره، كالماء الذي يسخن بالنار، فإذا رُفِع عنها عاد باردا، فلا عدوَّ أضرُّ لي منك.

وقد كان اضطرني وإياك، أمرٌ أخرجنا إلى ما صرنا إليه من المصالحة، وقد ذهب الأمر الذي احتجتَ إليَّ واحتجتُ إليك فيه، وأخافُ أن يكون مع

ذهابه، عَود العداوة بيني وبينك، ولا خير للضعيف في قرب العدو القوي، ولا للذليل في قرب العدو العزيز.

ولا أعلم لك فيّ حاجة، إلَّا أن تريد أكلي، ولا أرى الثقة بك، فإنِّي قد علمت أنَّ الضعيف، هو أقرب إلى أن يَسلم من العدوِّ القويّ، إذا هو احترس منه، ولم يغترر به، من القويّ إذا اغتر بالضعيف، واسترسل إليه.

والعاقل يصانع عدوّه، إذا اضطُرَّ إليه، فيظهرُ له ودَّه، ويريه من نفسه الاسترسال إليه، إذا لم يجد من ذلك بدّا، ويعجِّل الانصراف عنه، إذا وجد إلى ذلك سبيلا.

والعاقل يفي لمن صالحه من أعدائه، بما جعل له من نفسه، ولا يثق به كل الثقة، ولا يأمنه على نفسه مع القرب منه، وينبغي أن يبعد عنه ما استطاع.

وأنا أودك من بعيد، وأحب لك من البقاء والسلامة، ما لم أكن أحبه لك من قبل، ولا عليك أن تجازيني على صنيعي إلا بمثل ذلك، إذ لا سبيل إلى اجتماعنا، والسلام.

باب الملك والطائر

قال الملك للفيلسوف: قد فهمت ما ذكرت، فاضرب لي مثل أهل الثارات والاحقاد، الذين لا بد لبعضهم من اتقاء بعض.

١ - مثل: الملك والطائر

قال الفيلسوف: زعموا أنَّه كان ملك من الملوك، وكان له طائر كان ناطقا كيّسا، ومعه فرخ له، وأنه أمر بهما، فجعلا عند امرأته، وكانت سيدة نسائه، وأمرها بالاستيصاء، والمحافظة عليهما.

واتفق أن امرأة الملك ولدت غلاماً، فقالت هذا يربى مع ابني، وكلاهما طفلان يلعبان. فألف الفرخ الغلام، وكان الطائر يذهب إلى الجبل كل يوم، فيأتي بثمرتين من فاكهة لا تُعرف، فيُطعِم إحداهما فرخَه، والأُخرى ابنَ الملك، فأسرع ذلك في نشأتهما وقوَّتهما، حتى استبان ذلك للملك، فزاد الطائر عنده كرامة.

حتى إذا كان يوم من الأيام، والطائر غائب في ابتغاء الثمرتين، إذ وثب فرخه في حجر الغلام، فغضب الغلام من ذلك، وضرب بالفرخ الأرض فقتله.

ثم إن الطائر أقبل فوجد فرخه مقتولاً، فصاح وحزن وقال: قبحاً للملوك، الذين لا عهد لهم ولا وفاء! ويل لمن ابتلي بصحبتهم!

إنهم لا حميمَ لهم ولا حريمَ (ما حُرِّم فلا ينتهك)، ولا يحبُّون أحدا، ولا يكرُم عليهم، إلَّا أن يطمعوا فيما عنده من غناه، أو احتاجوا إلى ما عنده من

علم، فيقرِّبوه عند ذلك ويكرموه، فإذا قضوا منه حاجتهم، فلا وُدَّ ولا حِفاظَ، ولا الإحسان يجزون به، ولا الذنب يَعفون عنه، الذين إنما أمرهم الفخرُ والرياء والسمعة، والذين يركبون كلَّ عظيمٍ من الذنوب، وهو عندهم صغير حقير هيِّن.

ثم قال الطائر: لأنتقِمَنَّ اليوم من الكَفور، الذي لا رحمةَ له، الغادر بإلفه وتِرْبه، وصاحب ملاعبته ومواكلته، ثم وثب في شدة حنقه على وجه الغلام، ففقأ عينه برجليه، ثم طار فوقع على مكانٍ مُشرِف.

فلما بلغ الملك ذلك، جزع أشد الجزع، وطمع أن يحتال للطائر بحيلة فيظفر به، فركب إليه، فوقف عليه، فناداه باسمه، فقال: أنت آمِن فأقبِل إلينا.



فأبى الطائر ذلك وقال: إن الغادر لا يُجاز له بغدره، وإنه إن أخطأه عاجل العقوبة، لم يخطئه الآجل، حتى إنه يدرك الأعقاب، وأعقاب الأعقاب، وإن ابنك غدر بابني، فعجلت له العقوبة.

قال الملك: لعمري قد غدرنا بابنك، فانتقمت منا، فليس لنا قِبَلك، ولا لك قِبَلنا، ثأر مطلوب، فارجع إلينا آمنا.

قال الطائر: لست راجعا إليك أبداً، فإن ذوي الرأي قد نهوا عن قرب الموتور، وقالوا: لا يزيدَنك لطفُ الحقود، ولينُه وتكرِمتُه إلَّا وحشة منه، وسوء ظن به، فإنك لا تجد للموتور الحقود أماناً، هو أوثق لك من الذعر، والبعد عنه والاحتراس. وقد كان يقال: إنَّ العاقل إنما يَعُدُّ أبويه من الأصدقاء، ويعدُّ الإخوة من الرفقاء، والأزواج إلفا، والبنين ذِكرا، والبنات خصيمات، والأقارب غرماء، ويعدُّ نفسه فردا وحيدا، وأنا اليوم الفرد الوحيد، وقد تزوَّدت من عندكم من الحزن غما طويلا، وعِبئا ثقيلا، لا يحمله معي أحد، وأنا ذاهب فعليك السلام.

قال الملك: إنك لو لم تكن اجتزيت منا فيما صنعناه بك، بل كان صنيعك بنا، من غير ابتداء منا بالغدر، كان الأمر كما ذكرت. وأما إذا كنا نحن بدأناك، فما ذنبك، وما الذي يمنعك من الثقة بنا؟ هلم فارجع، فإنك آمن.

قال الطائر: اعلم أن الأحقاد لها في القلوب، مواقع ممكنة، موجعة، خفيَّة. فالألسن لا تصدق في خبرها عن القلوب، والقلب أعدل شهادة من اللسان على القلب. وقد علمت أن قلبي لا يشهد للسانك، ولا قلبك للساني.

قال الملك: ألم تعلم أن الضغائن ولأحقاد، تكون بين كثير من الناس، فمن كان له عقل، كان على إماتة الحقد، أحرصَ منه على تربيته؟

قال الطائر: إن ذلك لكما ذكرت، وليس ذو الرأي مع ذلك بحقيق، أن يظنَّ بالموتور أنَّه ناس ما وتره به، ومنصرفٌ عنه، وذو الرأي يتخوف المكر، والخديعة، والحيل، ويعلم أنَّ كثيرا من الأعداء لا يُستطاع بالشدَّة والمُكَابرة، حتى يُصاد بالرفق والمُلاينة، كما يُصاد الفيل الوحشيّ، بالفيل الداجن.

قال الملك: إن الكريم لا يترك إلفه، ولا يقطع إخوانه، ولا يضيع الحفاظ وإن هو خاف على نفسه، حتى إن هذا الخلق يكون في أوضع الدواب منزلة، وقد عرفنا أنَّ ناسًا يذبحون الكلاب ويأكلونها، فيرى ذلك الكلب الذي قد ألفهم، فيمنعه إلفه إياهم، من أن يُفارقهم.

قال الطائر: إن الأحقاد مخوفة حيثما كانت، وأخوفها وأشدها ما كان في أنفس الملوك، فإن الملوك يدينون بالانتقام، ويرون الدرك، والطلب بالوتر، مكرمة وفخراً.

ولا ينبغي للعاقل أن يغترّ بسكون الحقود، فإنما مَثَل الحقد في القلب، ما لم يجد مُتحرَّكا، مثَل الجمر المكنون، ما لم يجد حطبا، فلا يزال الحقد يتطلّع إلى العِلل، كما تبتغي النار الحطب، فإذا وجد عِلَّة استَعَرَ استعار النار، فلا يُطفئه ماءٌ، ولا كلام، ولا لين، ولا رفق، ولا خضوع، ولا تضرُّع، ولا شيء دون تلف الأنفس، مع أنه رُبَّ واترٍ يطمع في مراجعة الموتور، لما يرجو أن يقدر عليه من النفع له والدفع عنه، ولكني أضعف من أن أقدر لك على ما يُذهب ما في نفسك، ولو كانت نفسك لي على ما تقول، كان ذلك عنِّي مغيَّبا، فأنا لا أزال في خوفٍ وسوءِ ظنّ، ما اصطحبنا، وليس الرأي إلَّا الفراق، وأنا أقرأ عليك السلام.

قال الملك: قد علمت أنه لا يستطيع أحدٌ لأحدٍ، ضرّا ولا نفعا، وأنه لا شيءَ من الأشياء، صغيرا ولا كبيرا، يصيب أحدا إلَّا بقضاء معلوم، وقدر مقدور، وكما أنَّ خَلْقَ ما يُخلق، وولادةَ ما يُولد، وبقاء ما يبقى، ليس إلى الخلائق منه شيء، كذلك فناء ما يفنى، وهلاك ما يهلك، فليس لك عندي فيما صنعت بابني ذنب.

قال الطائر: إن القدر لكما ذكرت، ولكن ليس ذلك حقيقًا أن يمنع من توقى المخاوف، والاحتراس من المكاره، ولكنه يجمع تصديقاً بالقدر، وأخذاً بالحزم والقوة.

وأنا أعلم أنك تحدِّثُني بغير ما في نفسك، والأمر بيني وبينك غير صغير، لأن ابنك قتل ابني، وأنا فقأت عين ابنك، وأنت تريد أن تخاتلني (تخادع) عن نفسي، وتشتفي بقتلي، والنفس تأبى الموت.

وقد كان يقال: الفاقة بلاء، والحزن بلاء، وقرب العدو بلاء، وفراق الأحبة بلاء، والسقم بلاء، والهرم بلاء، ورأس البلايا كلها القتل.

وليس أحد بأعلم بما في نفس الموجع الحزين، ممن ذاق مثل ما به، وأنا بما في نفسك منِّي عالم، للمثال الذي عندي من ذلك، ولا خير لي في صحبتك، فإنك لن تتذكر صنيعي بابنك، ولن أتذكر صنيع ابنك بابني، إلا أحدث ذلك لقلوبنا تغييراً.

قال الملك: لا خير فيمن لا يستطيع الإعراض عما في نفسه، وينساه ويهمله، حتى لا يذكر منه شيئاً، ولا يكون له في نفسه موقع.

قال الطائر: إن الرجل الذي في باطن قدمه قرحة، وإن هو حرص على خفَّة المشي، فلا بدَّ أن ينكأها، والرجل الرمِد، إذا استقبل الريح، فقد تعرَّض لإنكاء عينيه، وكذلك الموتور، إذا دنا من عدوِّه، فقد عرَّض نفسه للهَلَكة.

ولا يستطيع صاحب الدنيا، إلَّا توقِّيَ المتالف، وتقديرَ الأمور، وقلَّةَ الاتكال، وقلَّة الاغترار بمن لا يأمن، فإنه من اتكل على قوَّته، حمله ذلك على أن يسلك الطريق المخوف، ومن سلك الطريق المخوف، فقد سعى في حتف نفسه، ومن لا يقدِّر طعامه وشرابه، فحمل على نفسه وأعضائه ما لا يطيق، فرُبَّما قتل نفسه، ومن لم يُقدِّر لقمته، فأعظَمَها فوق ما يسع فوه، غصَّ بها فمات، ومن اغترَّ بكلامِ عدوِّه، وضيَّع الحذر، فهو أعدى لنفسه من عدوِّه.

والعاقل عليه العمل بالحزم، والأخذ بالقوة في أمره، ومحاسبة نفسه في ذلك، ولا يثق بأحد ما استطاع، ولا يقيم على خوف وهو يجد عنه مذهباً.

وأرجو ألا أذهب وجهاً، إلا أصبت فيه ما يغنيني، فإنَّ خلالا خمسا، مَن تَزودهنَّ، بلَّغْنَه في كل وجه وطريق، وقرَّبن له البعيد، وآنسْنَ له الغربة، وأكسَبْنَه المعيشة والإخوان: كفُّ الأذى، حُسنُ الأدب، مجانبةُ الريبة، كرمُ الخلُق، والنبلُ في العملِ.

وإذا خاف الإنسان على نفسه شيئاً، طابت نفسه عن المال والأهل، والولد والوطن، فإنه يرجو الخلف من ذلك كله، ولا يرجو عن النفس خلفاً.

وشرُّ المال ما لا يُنفَق منه، وشرُّ الأزواج التي لا تواتي (طاوَعْتُه) بعلها، وشرُّ الولد العاصي العاق لوالديه، وشرُّ الإخوان الخاذل لإخوانه عند النكبات والشدائد، وشر الملوك الذي يخافه البريء ولا يواظب على حفظ أهل مملكته، وشرُّ البلاد بلادٌ ليس فيها أمن ولا خصب، وإنه لا أمن بي أيها الملك معك، ولا طمأنينةَ لنفسي في جوارِك.

ثم ودَّع الطائر الملك وطار.

قال الفيلسوف للملك: فهذا مثل أهل الثارات والاحقاد، الذين لا ينبغي لبعضهم أن يثق ببعض، فكان هذا الحذر من الطائر حتى يسلم وينجو، والانسان العاقل السميع البصير، أحق بذلك، وأولى أن يعمل به بقدر معرفته بالأمور، وفضل ما أعطي في ذلك، والله ولي التوفيق.

باب الاسد وابن آوى

قال الملك للفيلسوف: قد فهمت ما ذكرت من امر أهل الثارات والاحقاد، الذين لا ينبغي لبعضهم أن يثق ببعض، فاضرب لي مثل الملوك فيما بينهم وبين قرابينهم، وفي مراجعة من يراجع منهم، بعد عقوبة أو جفوة، تكون عن ذنب، أو ظلم.

قال الفيلسوف: إنَّ الملك، لو كان لا يراجع مَن أصابته جفوة أو عقوبة، عن ذنب أو عن غير ذنب، ظلم أولم يظلم، لأضر ذلك بالأمور والأعمال، ولكن الملك حقيقٌ أن ينظر في حال من ابْتُليَ بشيءٍ من ذلك، ويخبر ما عنده من الغَناء الذي يرجو منه النفع، فإنْ كَانَ ممن يُستعان به، ويوثق برأيه وأمانته، كان الملك حقيقًا بالحرص على مراجعته، فإن الملك لا يستطاع إلا مع ذوي الرأي، وهم الوزراء والأعوان، ولا يُنتفع بالوزراء والأعوان إلّا بالمودّة والنصيحة، ولا مودّةَ ولا نصيحة إلّا مع أصالة الرأي والعفاف، والمثل في ذلك مثل الأسد وابن آوى.

قال الملك: وكيف كان ذلك؟

١ - مثل: الاسد وابن آوى

١ - مثل: الاسد وابن آوى

قال الفيلسوف: زعموا أنه كان بأرض ابن آوى، وكان متألِّهًا، زاهدا متعفِّفا، وكان مع ذئاب وثعالب وبنات آوى، ولم يكن يصنع ما يصنعون، ولا يُغِير كما يُغِيرون، ولا يهرق دما ولا يأكل لحما.

فخاصمته تلك السباع، وقُلنَ له: لا نرضى بسيرتك، ولا برأيك الذي أنت عليه، مع أن تألُّهك لا يُغني عنك شيئا، وأنت لا تستطيع أن تكون إلّا

كأحدنا، تسعى معنا، وتفعل فعلنا، فلأي شيء كفك عن الدماء، وعن أكل اللحم؟

قال ابن آوى: إنَّ صحبتي إياكم، لا تؤثِّمني إن لم أؤثِّم نفسي، لأنَّ الآثام ليست من قِبَل الأماكن والأصحاب، ولكنها من قبل القلوب والأعمال.

ولو كان صاحب المكان الصالح، يكون عمله فيه صالحاً، وصاحب المكان السوء يكون صاحبه فيه مسيئا، إذن مَن كان في المسجد لم يأثم، ومن استحيا (تَرَكَ حيّاً) في معارك القتال اثم.

وإني إنما صحبتكن بنفسي، ولم أصحبكن بقولي، وقلبي وأعمالي، لأني أعرف ثمرة الأعمال، فلزمت حالي.

وثبت ابن آوى على حاله تلك، واشتهر بالتألُّه والنسك، حتى بلغ من الصدق، والعفاف، والأمانة، أفضلَ ما بلغ أحدٌ من النسَّاك، وبلغ ذلك أسدا كان ملكَ السباع بتلك الناحية، فرغب في استخدامه لما بلغه عنه من العفاف، والنزاهة، والزهد والأمانة، فأرسل إليه يستدعيه.

فلما حضر ابن آوى، كلمه الاسد وفتَّشه، فوجده في جميع الأمور وفق غرضه، ثم دعاه بعد أيام إلى صحبته، وقال له: إنَّ مُلكي عظيم، وأعمالي كثيرة، وأنا إلى الأعوان محتاج، وقد بلغني عنك نُبل، وعفاف، وعقل وأدب ودين، ثم قدمتَ عليَّ فازددتُ بك إعجابا، وفيك رغبة، وأنا مُوَلِّيك من عملي جسيمًا، ورافعك إليّ منزلة، وجاعلٌ لك منّي خاصة ومكانا.



قال ابن آوى: إنَّ الملوك أحقّ باختيار الأعوان، فيما يهتمُّون به من أعمالهم وأمورهم، مِن غير أن يُكرِهوا على ذلك أحدًا، فإن المكره لا يستطيع البالغة (اجْتَهَدَ) في العمل، وإني لعمل السلطان كاره، وليس لي به تجربة، ولا بأمر السلطان رفق، وأنت ملك السباع، وعندك من أجناس الوحوش عدد كثير، فيهم أهل نبل وقوة، ولهم على العمل حرص، وعندهم به وبالسلطان رفق، فإن استعملتهم أغنوا عنك، واغتبطوا لأنفسهم بما أصابهم من ذلك، وإن أنت استغنيت عنهم اشطوا (ظلم وجار).

قال الأسد: دع عنك هذا، فإني غير مُعفيك من الولاية والعمل.

قال ابن آوى: إنما يستطيع عمل، وخدمة، وصحبةَ السلطان، رجلان، لست بواحد منهما، إما فاجر مصانع، ينال حاجته بفجوره، ويسلم بمصانعته، وإمَّا رجلٌ مَهين، مغفَّل، لا يحسده أحد.

فأمَّا من أراد أن يصحب السلطان بالصدق، والنصيحة، والعفاف، لا يخلط ذلك بمصانعة، فحينئذ قلَّما يسلم، ويستقيم له صحبتهم، لأنه يجمع عليه

عدو السلطان، وصديقه، بالعداوة والحسد.

أما الصديق، فينافسه في منزلته، ويبغي عليه فيها، ويعاديه لأجلها، وأما عدو السلطان، فيضطغن عليه بنصيحته لسلطانه، وغَنائه عنه، فإذا اجتمع عليه هذان الصنفان، فقد تعرض للهلاك.

قال الأسد: لا يكونَنَّ بغيُ أصحابي عليك، وحسدُهم لك، بينك وبين ما يعرض في نفسك، فأنت معي، وإني كافيك ذلك، وبالغٌ بك في الكرامة والإحسان، غاية همّتك.

قال ابن آوى: إن كان الملك يريد الإحسان بي، فليدَعني أعيش في هذه البرية، آمنا من أن أُحسَد، فإني قليل الهمّ، راضٍ بمعيشتي من الماء والحشيش، وإني قد علمت أن صاحب السلطان، يصل اليه من الأذى والخوف، في ساعة واحدة، ما لا يصل إلى غيره في طول عمره، وإن قليلاً من العيش في أمن وطمأنينة، خير من كثير من العيش، في خوف ونصب.

قال الأسد: قد سمعتُ كلامك، فلا تخافنَّ شيئًا مما أراك تذكر، فإنه لا بدَّ من الاستعانة بك.

قال ابن آوى: أما إذا أبى الملك إلا ذلك، فليجعل لي عهداً، إن بغى عليَّ أحدٌ عنده ممن هو فوقي، خوفًا على منزلته، أو ممن هو دوني، لينازعني منزلتي، فكان منه نميمة، فذَكَر عند الملك منهم ذاكرٌ بلسانه، أو بلسانِ غيره، ما يُريد به تحميل الملك عليَّ، ألّا يعجّل عليَّ، وأن يتثبَّت فيما يُرفع إليه، ويُذكر له من ذلك، ويفحص عنه ثم يقضي فيه بما بدا له.

فإذا وثقت منه بذلك، أعنته بنفسي فيما يحب، وعملت له فيما أولاني بنصيحة واجتهاد، وحرصت على ألا أجعل له على نفسي سبيلا.

قال الأسد: لك ذلك عليّ، وزيادة.

ثم ولاه خزائنه، واختصَّه دون أصحابه، بالرأي، والمشورة، والمنزلة، وازداد به على الأيام عجبا، فزاده كرامةً وعملا، فثقل ذلك على من كان يُطيف بالأسد، من قرابينه، وأصحابه وعُمَّاله، وغاظهم وساءهم، فأجمعوا كيدهم، واتفقوا كلهم على أن يحملوا عليه الأسد.

فلمَّا اجتمعوا على ذلك من كيدهم، دبَّوا ذات يوم للحمٍ كان الأسد استطابه، فعزل منه مقدراً، وأمر بالاحتفاظ به، وأن يرفع في أحصن موضع طعامه، وحملوه إلى بيت ابن آوى، فخبئوه فيه، ولا علم له به.

فلما كان من الغد، ودعا الأسد بغدائه، فقد ذلك اللحم، فالتمسه ولم يجده، وابنُ آوى غائبٌ، والقومُ الذين أرادوا المكر به حضور، ثم إن الملك سأل عن اللحم، وشدد فيه، وفي المسألة عنه، فنظر بعضهم إلى بعض، فقال أحدهم قول المخبر الناصح: إنه لا بد لنا من أن نخبر الملك بما يضره وينفعه، وإن شق ذلك على من شقَّ عليه، وإنه بلغني أن ابن آوى، كان ذهب باللحم إلى منزله.

قال الآخر: لا أراه يفعل هذا، ولكن انظروا وفحصوا، فإن معرفة الخلائق شديدة.

قال الآخر: أجَلْ، لعمري ما تكاد السرائر تعرف، وأظنكم إن فحصتم عن هذا، وجدتم اللحم ببيت ابن آوى، وكل شيء يذكر من عيوبه وخيانته، نحن أحق أن نصدقه.

قال الآخر: لئن وجدنا هذا حقاً، فليست بالخيانة فقط، ولكن مع الخيانة كفر النعمة، والجرأةُ على الملك.

قال آخر: لقد أخبرني مخبر عن ابن آوى بأمرٍ عظيم، فما وقع في نفسي حتى سمعت كلامكم.

قال آخر: أنتم أهل العدل والفضل، ولا أستطيع أن أكِذبكم، ولكن يستبين صدق هذا من كذبه، لو قد أرسل الملك إلى بيت ابن آوى، ففتشه.

قال آخر: إن كان الملك مفتشاً منزله فليعجل، فإن عيونه وجواسيسه مبثوثة بكل مكان.

قال آخر: لئن كان هذا المتألِّه المتخشِّع، الذي يرينا أن عمله عملُ النسَّاك، خان هذه الخيانة، إنَّ ذلك لمن أعجب العجب.

قال آخر: قد علمت أن ابن آوى، لو فُتِّش منزله، واطُّلع على عيوبه وخيانته، سيحتال بمكره حتى يُشبِّه على الملك، فيعذره.

ولم يزالوا بهذا الكلام وأشباهه، حتى وقع ذلك في نفس الأسد، فأمر بابن آوى فحضر، فقال له: أين اللحم الذي أمرتك بالاحتفاظ به؟

قال ابن آوى: دفعته إلى صاحب الطعام، ليقربه إلى الملك.

فدعا الأسد بصاحب الطعام، وكان ممن بايع مع القوم على ابن آوى، فقال: ما دفع إليَّ شيئاً.

فأرسل الأسد أميناً إلى بيت ابن آوى ليفتشه، فوجد فيه ذلك اللحم، فأتى به الأسد.

فدنا من الأسد ذئب، لم يكن تكلم في شيء من ذلك، وكان يظهر أنه من العدول، الذين لا يتكلمون فيما لا يعلمون، حتى يتبين لهم الحق، فقال: أما إذا اطَّلع الملك على خيانة ابن آوى، فلا يعفوَنَّ عنه، فإنه إن عفا عنه، لم يَعُد أحد يُطلع الملك على خيانة خائن، ولا ذنب مذنب.

فأمر الأسد بابن آوى، أن يُخرَج من عنده ويُحتفظ به، فقال عند ذلك بعض جلساء الأسد: إني لأعجب من رأي الملك، ومعرفته بالأمور، كيف يخفى عليه أمر هذا المخادع، ولم يعرف خبثه؟

وقال آخر: فأعجب من هذا، أني لا أراه إلَّا سيصفح عنه، بعد الذي ظهر عليه منه.

ثم إنَّ الأسد، أرسل إلى ابن آوى بعضهم، لينظر ما يكون من عذرِه، فرجع إليه الرسول برسالة كاذبة اخترعها، فغضب الأسد من ذلك، وأمر بابن آوى أن يقتل.

وبلغ ذلك أمَّ الأسد، فعلمت أنَّ الأسد قد عَجِل في أمره، فأرسلت إلى الذين أمروا بقتله أن يؤخروه، ودخلت على ابنها فقالت: يا بني، لأيِّ ذنبٍ أمرت بابن آوى أن يُقتل؟

فأخبرها الأسدُ بالأمر، فقالت: يا بنيَّ عجّلت، وإنما يسلم العاقل من الندامة، بترك العجلة، وبالأناة والتثبت، ولا يزال يجتني ثمرة الندامة، وضعف الرأي، من لم يتثبَّت في الأمور.

وليس أحد أحوج إلى التُّؤدة، والتأني، والتثبت، من الملوك، فإن المرأة بزوجها، والولد بوالديه، والمتعلم بالمعلم، والجند بالقائد، والناسك بالدين، والعامة بالملوك، والملوك بالتقوى، والتقوى بالعقل، والعقل بالتثبت، وقد كنتَ بلوت ابن آوى واختبرته قبل استعانتك به، وتفويضك إليه، فلم تزل عنه راضيا، تزيدك الأيام له استصلاحا، وإليه استرسالا، وفيه رغبة، فأمرت بقتله في طبَق من لحم فقدتَه، وما كان الرأي للملك أن يعجل.

واعلم، أن الملوك إذا وَكَلوا إلى غيرهم، ما ينبغي لهم مباشرته بنفوسهم، وألزموا نفوسهم ما ينبغي لهم تفويضه إلى الكُفاة، ضاعت أُمورهم، ودعوا الفساد إلى أنفسهم.

والملوك يحتاجون إلى النظر في وجوهٍ شتَّى، فإذا آثروا النظر في بعض تلك الوجوه، على بعض، لم يأمنوا خطأ البصر، وزلل الرأي، وأنت أيها الملك، حقيق أن تنظر في خطأ ابن آوى، نظر متثبِّت، لتعلم أنه لم يكن ليتعرّض للحم استودعته إياه.

ففحص عن أمره، فإنه لم يزل ذلك عادةَ الأرذال والأنذالِ؛ حسدُ أهل المروءة، والفضل، واستثقالهم، ولم يزل جهَّال الناس يحسدون علماءهم،

ولئامهم يحسدون كِرامهم، وشرارهم يحسدون خِيارهم، ولابن آوى مروءة وفضل، فعسى أعداؤه من أصحابك، فطنوا لموضع ذلك اللحم، فجعلوه في منزله من غير علمٍ منه، فإن الحدأة، إذا كان في رجلها قطعة لحم، اجتمع عليها سائر الطير، والكلب إذا كان معه عظم، اجتمع عليه الكلاب.

وإنَّ خصماء ابن آوى، لم ينظروا فيما يضرُّك، ولم يرغبوا فيه عنك، إلّا لعاجل منفعة أنفسهم، فانظر أنتَ فيما ينفعك لنفسك، إن لم ينظر لك أحد، ولا تمالئهم على ما يضرّك، فإنَّ أعظم الأشياءِ ضررا على الناس عامةً، وعلى الولاة خاصةً، أمران: أن يُحرَموا صالحَ الأعوان، والوزراء والإخوان، وأن يكون وزراؤهم وإخوانهم، غير ذوي مروءة ولا غناء، ولم يزل غَناء ابنِ آوى عنك عظيما، يؤثر منفعتك على هواه، ويشتري راحتك بنصَبه، ورضاك بسَخَطه، لا يطوي عنك أمرا، ولا يكتمك سرّا، ولا يرى شيئًا احتمله منك، أو بذله لك عظيما، فمن كان من الأصحاب هذه صفته، فإنما منزلتُه منزلةُ الآباء، والأبناء، والإخوان.

فبينما أم الأسد تقص عليه هذه المقالة، إذ دخل عليه بعض ثقاته، فأخبره ببراءة ابن آوى، فقالت أم الأسد: بعد أن اطلع الملك على براءة ابن آوى، إن الملك حقيق ألا يرخّص لمن سعى به، لئلا يتجرؤوا إلى ما هو أعظم من ذلك، فيتخذوك مركبًا، فتعوَّدَهم الاحتمال منك، وتجرِّئهم على ضرّك وشينك، ولا تغترنَّ بسلطانك عليهم، فيدعوك ذلك إلى استصغارهم والتهاون بأمرهم، فإن الحشيش الضعيف، إذا جُمَع، فُتِل منه الحبل القوي، الذي يوثَق به الفيل المغتلم الشديد، بل عاقبهم عليه، لكي لا يعودوا إلى مثله، فأنه لا ينبغي للعاقل أن يراجع في أمر الكفور للحسنى، الجريء على الغدر، الزاهد في الخير، الذي لا يوقن بالآخرة، وينبغي أن يجزى بعمله.

والأولى لك، أن تعِد لابن آوى منزلته وخاصّته، ولا يؤيِسنَّك من مُناصحته، ما فرَط إليه منك من الإساءة، فإنَّه ليس كل من أُسيءَ إليه، ينبغي أن يُتَخوَّف غِشُّه، وعداوته، ويؤيَس من نصيحته ومودَّته، لكن ينبغي أن يُنزَل الناسُ في ذلك على اختلاف ما بينهم.

فإنَّ منهم، من إذا ظُفر بقطيعته، كان الرأي أن يُغتنَم ذلك منه، ويُمتنع من معاودته، ومنهم من لا ينبغي تركه وقطعه على كل حال.

فمن عُرِف بالشرارة ولؤم العهد، وقلة الوفاء والشكر، والبعد من الورع والرحمة، والجحود لثواب الآخرة وعقابها، والحسد وإفراط الشره والحرص، والسرعة إلى سوءِ الظن والقطيعة، والإبطاء عن المعاودة والمراجعة، فقطعُه أحزم للرأي.

ومن عُرِف بالصلاح وكرم العهد، والشكر والوفاء والمحبة للناس، والسلامة من الحسد والحقد، والبعد من الأذى، والاحتمال للأصحاب والإخوان، وإن ثقلت عليه منهم المئونة، فهذا حقيقٌ أن تُغتنَم صحبته وصلته، ويُمتنَع من قطيعته.

وقد عرفت ابن آوى وجربته، وأنت حقيق بمواصلته.

فلمَّا ظهر للأسد براءة ابن آوى مما قُرِف به، دعاه، وأعتذر إليه مما كان منه وقال: إني معتذر إليك، وإنَّ الذي كان من الأمر، قد زاد فيما كان من ثقتي بك ثقة، وزاد ظنِّي بك إلى ما كان من حسنه حسنا، فأقم على ما كنتَ عليه من أمرنا وعملنا.

قال ابن آوى: إني قائلٌ لك أيها الملك قولا، فلا يَغلُظنَّ عليك، فإن أحقَّ مَن قَبِل من أهل الحجج الحكَّام، وقد أحدثت أيها الملك سوءَ ظن، وقلة ثقة، لسرعة استماعك لأهل الكذب، وإفسادك الكثير من حُسن البلاء الذي لا تنكره، بالقليل الحقير من القذف الذي لا تعرفه، وتقلبك إليَّ بالبائقة والجائحة قبل التثبُّت والإعذار، فقد صيَّرْتني في حدٍّ لا تثق بي، ولا أثق بك، لما صيَّرت لهم عليَّ من السبُل، لأنه لا ينبغي للمَلك أن يثق بهذه الأصناف: ممن قد عوقب العقوبة الكبيرة عن غير جُرم، ومَن ناله الضرُّ العظيم منهم، ومن عزلوه عن ولاية وعمل كان في يديه، ومن سلبوه أمواله وعقاره، ومن كان في الثقة عندهم فأقصوه وقطعوا طمعه بغير سبب، وذي المروءة والنبل إن نُزِّل غير منزلته، أو قدِّم عليه أكفاؤه

ونظراؤه، والمظلوم الطالب للنصَفة غير المنصَف، ومن يرجو المنفعة والصلاح بمضرَّة السلطان، ومن استُثقِل بما يكره في المحافل، وذي الحرص القليل التبرع، والمذنب الراجي للعفو فلم يُعفَ عنه، فهذه الأصناف أعداء الملك وأعدائي، وقد صار لهم السبيل إليَّ، والاستخفاف بي، والجرأة عليَّ.

قال الأسد: ما أخشن كلامك وأغلظه.

قال ابن آوى: أيها الملك، لا يغلظنَّ عليك، ولا يَخْشُن الحق والصدق، إن خفَّ عليك الكذب والباطل، مما حُمِّلت به عليَّ، ولا تحملنَّ جوابي لك، والغلظة في محاورتي إياك، على سفه رأي، وقلَّة بصر بما أقول، ولكن قد قلت ذلك لخصلتين، منهما، أن في القصاص تسلية الضغائن، وإطلاقًا لمنعقد الحقد، وأحببت أن أُخرج ما في نفسي مما وترتني به، ليسلم لك صدري من الضِّغن، ولتخلص لك منه سلامة العتب، ومنهما، أني أحببت أن تكون أنت الحاكم على نفسك، وألا أكون أنا الحاكم عليك، مع أني لم أجترئ على هذه المقالة، حتى استعهدتك من نفسك.

قال الأسد: أوَلم أحسن التثبُّت في أمرك؟

قال ابن آوى: إنما كان التثبُّت من أمِّ الملك، وكان التعجيل بقتلي من قِبَلك أيها الملك، وإني قد تخوَّفت موضعًا حدث، لأهل المكر، يجدون به فيما بيني وبينك مدخلًا.

قال الأسد: وما ذاك الموضع؟

قال ابن آوى: يُقال لك أيها الملك، قد دخلتْ قلب ابن آوى عليك ضغينة، فيما أدخلتَ عليه من التهمة والوحشة، وما أشربت به قلبه من الإشراف على الهَلَكة، فقال كذا وكذا، وهذا سبب مظنون بالملوك، ممن أصابته منهم عقوبة، أو جفوة، أو تغيُّر منزلة، أو عُزِل عن سلطان، أو أُوثِرَ غيره عليه ممن هو دونه، في المنزلة والحال.

قال الأسد: إنك لست ممن يصدَّق عليه القبيح، وإني قد بلوت طباعك وأخلاقك، وجربت أمانتك ووفاءك وصدقك، فلا يعرض بك تخوُّف، لقبولي فيك قبيحا يأتي به آتٍ، ولا يَسُؤْ ظنك، ما حسن ظننا فيك، وإني منزلك من نفسي منزلة الأخيار الكرماء، والكريم تنسيه الخلة الواحدة من الإحسان، الخلال الكثيرة من الإساءة، وقد عدنا إلى الثقة بك، فعد إلى الثقة بنا، فإن لنا ولك بذلك غبطة وسروراً.

فعاد ابن آوى إلى ولاية ما كان يلي، وضاعف له الملك الكرامة، ولم تزده الأيام إلا تقرباً من السلطان.

باب الملك وامرأته ووزيره

قال الملك للفيلسوف: قد فهمتُ ما ذكرت، فأخبرني عن الملك، من يحق عليه أن يثق به، ويرجو عونه، ومتى ينبغي له أن يصنع المعروف، فضلاً عن التأني عند الغضب، والروِيَّة عند الفكر، الذي إذا عمل به الملك، كرم على رعيَّتِه، وثبَّت ملكه، وحفِظ أرضه.

قال الفيلسوف: إنَّ أفضل ما حَفظ به الملكُ مُلكه، وثبَّت به سلطانه، وكرَّم به نفسه، هو العقل، لأنه رأس الأمور وملاكها، مع مشاورة اللبيب الرفيقِ العالِم.

ومِن صلاح المرء في نفسه ومعيشته، المرأة الصالحة، الفاضلة الرأي، المواتية، وإنَّ الرجل إن كان شجاعا، ولم يكن حليمًا عاقلا، أو كان حليما عاقلا، وشاور غير لبيب، فإنه يبهظه الأمر اليسير، حتى يرى فيه القبح والضعف، بجهالته، وخطأ رأي أصحابه ونُصحائه، وإن أصابوا ظَفرا، أو لقُوا رشدًا، ساقه القدر إليهم، صارت عاقبة أمرهم إلى الندامة، وإذا كان على خلاف ذلك من الفضل، ومن نُبل الوزير، ثم أعانه القضاء، أصاب الفَلَج على من خاصمه، والغلبةَ على من ناوأه، والسرور له، كما زُعِم مما كان بين الملك، وامرأته، ووزيره.

قال الملك: وكيف كان ذلك؟

١ - مثل: الملك، وامرأته، ووزيره

قال الفيلسوف: زعموا أنه كان ملكا، وكان متعبداً، فبينما كان نائما في بعض الليالي، إذ رأى ثمانية أحلام، يستيقظ عند كل منها، فأفزعته.

فلمَّا أصبح، دعا بالدراويش، فقصّ عليهم ما رأى، وأمرهم أن يَعبُروها. فقال الدراويش: لقد رأى الملك أمرا عجبا، مُنكرا، لم يسمع بمثله فيما مضى، فإن أمهلتنا ستَّة أيام، ثم نأتيَك في اليوم السابع بتأويله، فنخبرك به، فلعلَّنا إن استطعنا، أن ندفعَ ما نتخوَّف منه.

قال الملك: قد أمهلتكم، فاعملوا برأيكم وما تعلمون أنه موافق.

فخرجوا من عنده، ثم اجتمعوا في منزل أحدهم، وائتمروا بينهم، وقالوا: قد وجدتم علماً واسعاً، تدركون به ثأركم، وتنتقمون به من عدوكم، وما طال العهد مُذ قتل منَّا اثني عشر ألفًا، وها هو قد أطلعنا على سره، فاستمكنَّا منه، وعرفنا فَرَقه (جزع) من رؤياه، وسألنا التفسير، فلعلَّنا ننتقم، فهلم نغلظ له القول، ونخوفه، حتى يحمله الخوف والجزع، على أن يتابعنا على ما نريد، ونأمر.

فنقول: إن قد نظرنا في كتابنا، فلم نجد شيئًا يصرف عنك سوء ما رأيت، إلَّا قتل من نُسمِّي لك، فإن قال الملك: وما تريدون أن تقتلوا؟ قلنا: نريد امرأتَك الملكة، أكرم نسائك عليك، ونريد أحب بنيك إليك وأفضلهم عندك، ونريد ابن أخيك الكريم، ونريد وزيرك وصاحب أمرك، فإنه ذو حيلة وعلم، ونريد كاتبك صاحب سرك ولسانك، والفيل الأبيض الذي تقاتل عليه، والفيلين العظيمين، والفرس الذي تركبه، وسيفك الذي لا يوجد مثله، ونريد الفقيه الحكيم الفاضل العالم بالأمور، لننتقم منه بما فعل بنا.

ثم نقول: إنما ينبغي لك أيها الملك، أن تقتل هؤلاء الذين سميناهم لك، ثم تجعل دماءهم في حوض تملؤه، ثم تقعد فيه، فإذا أردنا أن نُخرِجك منه، اجتمعنا معشرَ الدراويش من الآفاق الأربعة، فرقيناك، ومسحناك

بالماء والأدهان الطيّبة، ثم صيَّرناك إلى مجلسك، وقد أذهب الله عنك ما تجد من الحزن، من سوء رؤياك التي رأيت.

فإن أنت صبرت على هذا، وطابت به نفسك، نجوتَ من البلاء العظيم الذي قد رهقك وأشرف عليك، واستخلفت مكانهم مثلهم، وإن لم تفعل، فإنَّا نتخوَّف أن يُنزعَ مُلكك وتهلك، ويُستأصل عَقِبك.

فإن هو أطاعنا فيما نأمره، قتلناه أي قتلة شئنا.

فلما أجمعوا على ما أتمروا به، رجعوا إليه في اليوم السابع، وقالوا له: أيها الملك، إنّا نظرنا في كتبنا في تفسير ما رأيت، وفحصنا عن الرأي فيما بيننا، ولسنا نقدر أن نعلمك بما رأينا، إلا أن تخلو بنا.

فأخرج الملك من كان عنده، وخلا بهم، فحدثوه بالذي ائتمروا به، فقال الملك: الموتُ دون ما قلتموه، وما أسمع منه، أفأقتل هذه الأنفس التي هي عندي عِدلٌ نفسي، وأحتمل الإثم والوِزر؟ ولا بدَّ من الموت على كل حال، ولست ملكا طولَ الدهر، وسواءٌ عليَّ الهلاك، وفراقُ الأحبة.

قال له الدراويش: إن أنت لم تغضب أخبرناك، فأذن لهم، فقالوا: أيها الملك، إنك لم تقل صواباً، حين تجعل نفس غيرك، أعز عندك من نفسك، فاحتفظ بنفسك وملكك، واعمل هذا الذي لك فيه الرجاء العظيم، على ثقة ويقين، وقرّ عيناً بملكك، في وجوه أهل مملكتك، الذين شرفت وكرمت بهم، ولا تدع الأمر العظيم، وتأخذ بالضعيف، فتهلك نفسك إيثاراً لمن تحب.

واعلم أيها الملك، أن الإنسان إنما يحب الحياة، محبة لنفسه، وأنه لا يحب من أحب من الأحباء، إلا ليتمتع بهم في حياته، وإنما قوام نفسك بعد الله تعالى بملكك، وإنك لم تنل ملكك، إلا بالمشقة والعناء الكثير، في الشهور والسنين، وليس ينبغي أن ترفضه ويهون عليك، فاستمع كلامنا، فانظر لنفسك مناها، ودع ما سواها، فإنه لا شيءَ يعدِلها.

فاشتد غمّ الملك، وحزنه، وقام فدخل منزله، ووقع لوجهه، وجعل يتقلب يمينا وشِمالا، محزونا مهموما، ويفكِّر أيَّ الأمرين يركب: ما أدري أي الأمرين أعظم في نفسي؟ المملكة أم قتل أحبائي؟ وليس ملكي بباق عليّ إلى الأبد، ولست بالمصيب سؤلي في ملكي، وإني لزاهد في الحياة إذا لم أرى امرأتي، وكيف أقدر على القيام بملكي، إذا هلك وزيري؟ وكيف أضبط أمري، إذا هلك فيلي الأبيض، وفرسي؟ وكيف أدعى ملكاً، وقد قتلت من أشار الدراويش بقتله؟ وما أصنع بالدنيا بعدهم؟

فمكث كذلك أيامًا، وفشا الحديثُ في الأرض، وقيل: لقد نزل بالملك أمرٌ، هو منه في كَرْب.

فلما رأى الوزير، ما نال الملك من الهم والحزن، فكّر ونظر فقال: ما ينبغي لي أن أستقبل الملك، فأسأله عن هذا الأمر الذي قد ناله، من غير أن يدعوني، ولكني أنطلق إلى امرأته.

فأتاها فقال: إني منذ خدمت الملك إلى الآن، لم يعمل عملاً إلا بمشورتي، ورأيي، وأراه يكتم عني أمراً لا أعلم ما هو، ولا أراه يظهر منه شيئاً، وإني رأيته خالياً مع الدراويش منذ ليال، وقد احتجب عنّا فيها، وأنا خائف أن يكون قد أطلعهم على شيء من أسراره، فلست آمنهم أن يشيروا عليه بما يضره، ويدخل عليه منه السوء، فقومي وادخلي عليه، فاسأليه عن أمره وشأنه، وأخبريني بما هو عليه وأعلميني، فإني لست أقدر على الدخول عليه، فلعلّ الدراويش قد زينوا له أمراً، أو حملوه على خطة قبيحة، وقد علمت أن من خُلُقِ الملك، أنه إذا غضب لا يسأل أحداً، وسواء عنده صغير الأمور وكبيرها.

قالت الملكة: إنه كان بيني وبين الملك بعض العتاب، فلست بداخلة عليه بهذه الحال.

قال الوزير: لا تحْملنَّ الحقد في مثل يومك هذا، فلن يقدر أحدٌ أن يدخل عليه غيرُك، وقد كنت سمعتُه يقول غير مرة: إني إذا حزنت، واهتممت،

فأتتني الملكة، سُرّيَ ذلك عني، فانطلقي إليه، وكلميه بما تظنّين أنه تطيب به نفسه، ويُجلي عنه ما به، وأعلميني بما يكون جوابه، فإنه لنا ولأهل المملكة أعظم الراحة.

فلمّا سمعت الملكة ذلك، نهضت إلى الملك، فدخلت عليه، وجلست عند رأسه، وقالت: ما أمرُك أيها الملك السعيد المحمود؟ ما الذي قال لك الدراويش؟ أعلمني ما بك، فإني أراك مهموما حزينا، فإن كان الذي ينبغي لك أن تحزن له أمرا، فيه أجَلُنا، وهو جَلاءُ همّك وسرورك، واسيناك بأنفسنا، فافعل ذلك، وإن يكُ غضبا علينا، نُرضِك، ونأت ما يسرك.



قال الملك: أيتها المرأة لا تسأليني عن شيء، فتزيديني خبالا على ما بي، فإنه لا ينبغي أن يُعلّم ذلك، لعظم خطره، وشدة هوله.

قالت الملكة: أو وقد صار أمري عندك، إلى أن تجيبني بمثل ما قد سمعت؟ إنما أحمد الناس عقلاً، من إذا نزلت به النازلة، كان لنفسه أشد

ضبطاً، وأكثرهم استماعاً من أهل النصح، حتى ينجو من تلك النازلة بالحيلة، والعقل، والبحث والمشاورة.

وعظيم الذنب لا يقنط من الرحمة، ولا تدخلّن عليك شيئاً من الهم والحزن، فإنهما لا يردان شيئاً مقضيا، إلا أنهما ينحلان الجسم، ويشفيان العدو، وأهلُ العلم والتجارب ينظرون في ذلك، ويَصبِرون أنفسهم على ما نزل بهم من حوادث الزمان.

قال الملك: أيتها المرأة، فإنَّ في الذي تفحصين عنه دماري، وهلاكك وولدك، وكثير من أهل ودّي، فإن الدراويش زعموا، أنْ لا بدَّ من قتلك، وقتل أهلي ونصحائي، ولا خيرَ لي في العيش بعدكم، ولا لذَّةَ لي بعد فراقكم، وذلك أفظع الأمور، وأجلُّها خطرا في نفسي، وهل أحد يسمع بهذا، إلا اعتراه الحزن؟

فلما سمعت الملكة ذلك، جزعت، ومنعها عقلها أن تظهر للملك جزعاً، فقالت: لا يُحزنك الله أيها الملك، ولا يسوئك، أنفسنا لك الفداء، فإن ذلك يسير في صلاحك وبقائك، وقد جعل الله لك من الأزواج، ما فيه الخَلَف والِعوَض، ولكن أطلب إليك بعد موتي، ألّا تثق بالدراويش، ولا تستشيرهم، ولا تقبل رأيَ أحدٍ منهم، حتى تؤامر فيه أهل نصيحتك، والثقةِ لك، وتعرف ما تُقدِم عليه فيه من القتل، فإنَّ القتل عظيمُ الخطب، شديدُ الوزر، ولست تقدر أن تُحييَ مَن أهلكت، وقد قيل: إذا لقيت جوهراً، لا تظنُّ به خيرا، فلا تلقيه من يدك، حتى تريه من يعرفه.

وأنت أيها الملك لا تعرف أعداءك، واعلم أن الدراويش لا يحبونك، وقد قتلت منهم بالأمس اثني عشر ألفا، أفتظنُّ أنهم نسوا ذلك؟ أوظننت أن هؤلاء ليسوا من أولئك؟

ولعمري ما كنت جديراً أن تخبرهم برؤياك، ولا أن تطلعهم عليها، وإنما قالوا لك ما قالوا، لأجل الحقد الذي بينك وبينهم، لعلهم يهلكونك، ويهلكون أحباءك ووزيرك، فيبلغوا قصدهم منك.

فأظنك لو قبلت منهم، فقتلت من أشاروا بقتله، ظفروا بك، وغلبوك على ملكك، فيعود الملك إليهم كما كان.

فانطلق إلى الحكيم، فإنه عالم، فطن، لبيب أمين، فأخبره عمّا رأيت في رؤياك، واسأله عن وجهها وتأويلها.

فلما سمع الملك ذلك، سرّى الهمَّ عن فؤاده، وأمر بإسراج فرسه، وركبه وانطلق إلى الحكيم، فلما انتهى إليه، نزل عن فرسه وحيَّاه، فقال له الحكيم: ما جاء بك أيها الملك؟ وما لي أراك متغيّرَ اللون، ممتلئا همّا وحزنا؟

فقال له الملك: كنت نائما ذات ليلة، فسمعت من الأرض ثمانية أصوات، أَسْتَيقظُ مع كل صوت ثم أرقد، فرأيت ثمانية أحلام، فقصصتها على الدراويش، فأجابوني بما أخاف أن يصيبني منه، أمرٌ عظيمٌ، إمَّا أن أُقتَل في حربٍ، وإمَّا أن أُغصَب مُلكي، وأُغلَب عليه.

قال الحكيم: لا يَحزُنك أيها الملك هذا الأمر، ولا يُوجلَنّك، فأمَّا الأحلام الثمانية التي رأيت، فأقصصها، فإني مُنَبّئك بتأويلها.

فقصَّ عليه الملك رؤياه، فقال الحكيم: لا يحزنك أيها الملك هذا الأمر، ولا تخف منه، فهذا تفسيره فيه بعض السخط، والإعراض عمّن تحبه، وإلى سبعة أيام، يأتونك رسل وبُرُد، حتى يقوموا بين يديك.

فلما سمع الملك ذلك، انصرف وقال: إني ناظر فيما قال.

فلمَّا كان اليوم السابع، لبس ثيابه، وأخذ زينته، وجلس في مجلسه، وأذن للعظماء والأشراف، فجاءته تلك الهدايا التي قال الحكيم، حتى وقفوا بين يديه.

فلما رأى الملك ذلك، فرح وقال: لم أوَفَّق حين قصصت رؤياي على الدراويش، وأمروني بما أمروني به، ولولا أنَّ الله جلَّ اسمه، رحمني،

وتداركني برأي الملكة، كنت قد هلكت وزالت دنياي، فلذلك ينبغي لكلّ أحدٍ، أن يسمع من الأخيار، والأخِلّاء، وذوي القرابات، رأيهم، ويقبلَ مشورتهم، فإنَّ الملكة أشارت عليَّ بالرأي، الذي انتفعت به في بقاء مُلكي، والذي ترون من الفرح والسرور.

قال الوزير: لا يعمل المرءُ شيئا من الأشياء، صغيرا أو كبيرا، إلّا برأي أهل المودة والخير.

قال الملك: أمّا الإكليل، وسائر اللباس مما كان يصلح للنساء، خذها، واحملها، واتبعني بها إلى مجلس النساء.

فلمّا انطلق الملك إلى مجلس النساء، دعا الملكة ومُسامِيَتها، أكرم نسائه، فجلستا بين يديه، فقال: ضع الكسوة بين يدي الملكة، فلتأخذ أيَّها شاءت.

فأخذت الملكة الإكليل، وأخذت مُسامِيَتها كسوة من أفخر الثياب، وأحسنها.

وكان من عادة الملك، أن يكون ليلة عند الملكة، وليلة عند مُساميتها، فأتى الملكة في ليلتها، وقد صنعت أرزا، فدخلت على الملك وفي يدها صحفة من ذهب، والإكليل على رأسها، فقامت على رأس الملك بالصحفة وهو يطعم منها.

فلمّا رأت مُساميتها الإكليل على رأس الملكة، غارت، فلبست تلك الثياب ومرّت بين يديه، وكانت كالشمس حسنًا، فأضاء كل ما حولها، فاشتاف إليها وقال للملكة: إنك جاهلة حين أخذت الإكليل، وتركتِ الثياب التي ليس في خزائننا مثلها.

فلما سمعت الملكة، مدح الملك لمُساميتها، وثناءه عليها، وتجهيلها هي، وذمّ رأيها، أخذها من ذلك الغيرة والغيظ، فضربت بالصحفة رأس الملك، فسال الأرز على وجهه ولحيته.

فقام الملك من مكانه، ودعا بوزيره فقال: أما ترى إلى ما فعلته هذه المرأةُ بي، وكيف استخفَّت بي، وحقَرتني، وعملت ما عملت؟ فما أعلم أنَّ ملكا، قط اجتُرئ عليه، بمثل ما ركبَت هذه الحمقاء منّي، انطلِق بها، فاضرب عُنقها، ولا ترحمها.

فخرج الوزير من عند الملك وقال: ما أنا بقاتِلِها حتى يسكن عنه الغضب، فالمرأة عاقلة، سديدة الرأي، من الملكات التي ليس لها في النساء عديل في الحلم والعقل، وليس الملك صابرا عنها، وقد خلصته من الموت، وعملت أعمالاً صالحة، ونحن نرجوها بعد اليوم.

ولست آمَن أن يقول الملك: ما استطعتَ أن تؤخِّر قتلها حتى تراجعني؟ فلستُ بقاتلها، حتى أنظر رأي الملك فيها ثانية، فإن رأيته نادماً حزيناً على قتلها، جئت بها حية، وكنت قد أنجيت الملكة من القتل، وحفظت قلب الملك، واتخذت عند عامة الناس بذلك يداً، وإن رأيته فرحاً، مستريحاً، مصوّباً رأيه في الذي فعله، أمضيت أمره فيها.

وانطلق بها الوزير إلى منزله سرّا، ووكل بها خادماً من أمنائه، وأمره بخدمتها وحراستها، حتى ينظر ما يكون من أمرها، وأمر الملك.

ثم خضب سيفه بالدم، ودخل على الملك كئيبا حزينا، فقال: أيها الملك، إني قد أمضيت أمرك في الملكة.

فلم يلبث الملك، أن سكن غضبه، وذكر جمال الملكة وحسنها، واشتد أسفه عليها، وجعل يعزي نفسه عنها ويتجلد، وهو مع ذلك يستحي أن يسأل الوزير، أحقاً أمضى أمره فيها أم لا؟ ورجا لما عرف من عقل الوزير، ألا يكون قد فعل ذلك.

ونظر الوزير إلى الملك، فعلم ما في نفسه بفضل علمه، فقال: لا تحزن أيها الملك ولا تغتم، فإنه ليس في الهم والحزن منفعة، ولكنهما ينحلان الجسم، ويفسدانه، مع ما يدخل على أهل وُدِّ الملك أيضًا من الحزن إذا

حزن، وفرح أعدائه وشماتتهم، فإنه إذا سمعوا به، لم يُعَدّ من صاحِبه عقلا ولا حزما، فاصبر أيها الملك، ولا تحزَن على ما لستَ بناظر إليه أبدا، فإنْ أحبَّ الملك، حدَّثته بشبيه أمره هذا.



قال الملك: حدثني.

٢ - مثل: الحمامتين والحب

قال الوزير: زعموا أن حمامتين، ذكراً وأنثى، ملأ عشهما من الحنطة والشعير، فقال الذكر للأنثى: أمّا ما وجدنا في الصحاري ما نعيش به، فلسنا نأكل مما هاهنا شيئا، فإذا جاء الشتاء، ولم يكن في الصحاري شيء، رجعنا إلى ما في عشنا فأكلناه، فرضيت الأنثى بذلك، وقالت: نعم ما رأيت.



وكان ذلك الحب ندياً، حين وضعاه في عشهما، فامتلأ عشهما منه.

وانطلق الذكر في بعض أسفاره، فلما جاء الصيف، يبس الحب، وانضمر، ونقص عمّا كان.

فلما رجع الذكر، رأى الحب ناقصاً، فقال: أليس كنَّا قد اجتمعنا على ألَّا نأكل من عشّنا شيئا؟ فلِمَ أكلتِ؟

فجعلت الأنثى تحلف، أنها ما أكلت منه شيئا، وجعلت تعتذر إليه، فلم يصدقها، وجعل ينقرها حتى ماتت.

فلما جاءت الأمطار، ودخل الشتاء، تندى الحب، وامتلأ العش كما كان. فلما رأى الذكر ذلك ندم، ثم اضطجع إلى جانب حمامته وقال: ما ينفعني الحب والعيش بعدك، إذا طلبتك فلم أجدك، وإذا فكرت في أمرك وعلمت أني قد ظلمتك، ولا أقدر على تدارك ما فات.

ثم استمر على حزنه، فلم يطعم طعاماً ولا شرابا، حتى مات إلى جانبها.

فمن كان عاقلا، علم أنه لا ينبغي أن يَعجَل بالعذاب والعقوبة، ولا سيما من يخاف الندامة، كما ندم الحمام الذكر.

٣ - مثل: القرد والعدس

وقد سمعت أنَّ رجلًا كان على ظهره كارةُ عَدَس، فدخل بين شجر كثير، فوضع حمله ورقد، فنزل قرد كان في الشجرة التي نام تحتها، فأخذ مِلءَ كفه من ذلك العدَس، ثم صعد في الشجرة، فسقطت من يده حبة، فطلبها، فلم يجدها، وانتثر العَدَس من يده، فلم يقدر على جمعه، وأنت أيضاً أيها الملك، عندك ستة عشر ألف امرأة، تدعُ أن تلهوَ بهنَّ، وتطلب التي لا تجد!



فلما سمع الملك ذلك، خشي أن تكون الملكة قد هلكت، فقال للوزير: أفي سقطةٍ واحدةٍ كانت منّي، فعلت ما أمرتك به من ساعتك، وتعلَّقت بكلمة واحدة، ولم تتثبت في الأمر؟

قال الوزير: إن الذي قوله واحد واحد.

قال الملك: ومَن ذلك؟

قال الوزير: اللهُ عز وجل، الذي لا يُبدَّل كلامُه، ولا يختلف قوله.

قال الملك: لقد أفسدت أمري، واشتدَّ حزني لقتل الملكة.

قال الوزير: اثنان ينبغي لهما أن يشتدَّ حزنهما، الذي يعمل الإثم في كل يوم، والذي لم يعمل برّا قط، لأن فرحهما في الدنيا ونعيمهما قليل، وندامتهما إذ يعاينان الجزاء، طويلة، لا يستطاع إحصاؤها.



قال الملك: لئن رأيت الملكة حيةً، لا أحزن أبداً.

قال الوزير: اثنان لا ينبغي لهما أن يحزنا أبدا، المجتهد في البر كل يوم، والذي لم يأثم قط.

قال الملك: ما أنا بناظرٍ إلى الملكة سوى ما نظرت.

قال الوزير: اثنان لا ينظران أبدا، الأعمى، والذي لا عقل له، فإنه كما أنَّ الأعمى لا يبصر السماء، ولا النجوم ولا الأرض، ولا يبصر القريب ولا البعيد ولا أمامه ولا خلفه، كذلك الذي لا عقل له، لا يبصر منفعته من مضرته، ولا يعرف العاقل من الجاهل، ولا الحسن من القبيح، ولا المحسن من المسيء.

قال الملك: لئن رأيتُ الملكة، ليشتدَّن فرحي.

قال الوزير: اثنان يشتدّ فرحهما، البصير والعالم، فكمَا أنَّ البصير يُبصر نور العالَم وما فيه، كذلك العالِم يبصر الإثم فيجتنبه، والبرَّ فيعمله، ويعرف عمل الآخرة، ويتبين له نجاته، ويهتدي إلى الصراط المستقيم، ويهدي من اتَّبعه إلى سبيل الخير.

قال الملك: ما شبعتُ من رؤيةِ الملكة قط.

قال الوزير: اثنان لا يشبعان أبدا، الذي لا همَّ له إلَّا جمعُ المال، والذي يأكل ما يجد، ويسأل ما لا يجد.

قال الملك: إنه لينبغي لنا أن نتباعد عنك، ونأخذ الحذر، ونلزم الاتقاء، فإنك بذلك جدير.

قال الوزير: اثنان ينبغي أن يُتباعَد منهما، الذي يقول لا عذاب، ولا حساب، ولا ثواب، ولا شيءَ إلَّا ما هو فيه، والذي لا يقدر أن يَصرِف بصرَه عن شهواته، وعمَّا ليس له، ولا أذنه عن استماع السوء، ولا فرجه عن نساءِ غيره، ولا قلبه عما يهمّ به من ركوب الإثم، فيصيرُ أمرُه إلى الندامة، والهوان، وخزي الأبد الدائم.

قال الملك: صرتُ من الملكة صِفرا.

قال الوزير: ثلاثة هنَّ أصفار، النهر الذي ليس فيه ماء، ومن لا يعرف الخير من الشر، والمرأة التي ليس لها زوج.

قال الملك: ليتني قد رأيت الملكة!

قال الوزير: ثلاثة يتمنُّون ما لا يجدون، الفاجر الذي لا ورع له، ويريد إذا مات منزلةَ الأبرار في الآخرة، والبخيل الذي يريد منزلة السَّمْح الجواد، والفجرة الذين يسفكون الدماء بغير حقّ، ويرجون أن تكون أرواحهم مع الشهداء الأتقياء.

ثم إن الوزير لما رأى الملك أشتد به الأمر، واشتاق إلى رؤية الملكة، قال: أنا خليقٌ بإتيان الملك بهذه التي قد أحبَّها وحرص على رؤيتها أشدَّ الحِرص، وها أنا قائمٌ بين يديك، فإن كانت دخلت هذه في معصية فإنَّ لكم الحجَّة والسلطان على عقوبتي وقتلي.

فلما سمع الملك ذلك اشتد فرحه. وقال: إنما منعني من الغضب ما أعرف من نصيحتك وصدق حديثك. وكنت أرجو لمعرفتي بعلمك ألا تكون قد قتلت الملكة. فإنها وإن كانت أتت عظيماً وأغلظت في القول فلم تأته عداوة ولا طلب مضرة، ولكنها فعلت ذلك للغيرة. وقد كان ينبغي لي أن أعرض عن ذلك وأتحمله، ولكنك أردت أن تختبرني وتتركني في شك من أمرها. وقد أخذت عندي أفضل الأيدي. وأنا لك شاكر.

قال الوزير: إنما أنا عبدكم، وحاجتي إليكم اليوم ألَّا تَعجَلوا بعدها في الأمر العظيم الذي يُندَم عليه ويكون في عاقبته الهم والحزن كما رأيت، ولا سيما في أمر هذه التي لا تجد لها عديلًا في الأرض ولا شبيهًا، وأن تتلبثوا.

قال الملك: بحقٍّ قلت، وقد قبلتُ قولك وكل ما ذكرت، فكيف في مثل هذا الأمر العظيم الذي قد مرَّ بي؟ ولست عاملًا بعدها صغيرًا ولا كبيرًا إلَّا بعد المؤامرة والنظر والتؤدة.

ثم إنَّ الملك أمر الوزير أن يأتيه بالملكة فخرج الوزير من عند الملك فأتى الملكة وأمرها أن تتزين ففعلت ذلك. وانطلق بها إلى الملك. فلما دخلت قامت بين يديه. وقالت: أحمد الله تعالى ثم أحمد الملك الذي أحسن إلي، قد أذنبت الذنب العظيم الذي لم أكن للبقاء أهلاً بعده، فوسعه حلمه وكرم طبعه ورأفته، ثم أحمد الوزير الذي آخر أمري، وأنجاني من الهلكة، لعلمه برأفة الملك وسعة حلمه وجوده وكرم جوهره ووفاء عهده.



قال الملك للوزير: ما أعظم يدك عندي وعند الملكة وعند العامة، إذ قد أحييتها بعد ما أمرت بقتلها، فأنت الذي وهبتها لي اليوم، فإني لم أزل واثقاً بنصيحتك وتدبيرك، وقد ازددت اليوم عندي كرامة وتعظيماً، وأنت محكّمٌ في ملكي تفعل فيه بما ترى، وتحكم عليه بما تريد، فقد جعلت ذلك إليك ووثقت بك.

قال الوزير: ليست بي حاجة فيما قِبَلك إلّا التأني عند الغضب، والروِيّة عند الفكر.

قال الملك: بحق قلت وأنا صائرٌ إلى رأيك، ولست عاملاً بعدها عملاً صغيراً ولا كبيراً، فضلاً عن مثل هذا الأمر العظيم الذي ما سلمت منه، إلا بعد المؤامرة والنظر والتردد إلى ذوي العقول ومشاورة أهل المودة والرأي.

ثم أحسن الملك جائزة الوزير، وأمر بقتل الدراويش الذين أشاروا عليه بقتل أحبائه، فأطلق فيهم السيف، وقرّت عينُه وعيون أهل مملكته وحمدوا الله.

باب الفارس واللبوة وابن آوى

قال الملك للفيلسوف: قد فهمت ما ذكرت، فأخبرني عن من يدع ضرَّ غيره، بضر يُصيبه، ويكون له فيما نزل به، واعظ زاجر، عن ارتكاب الظلم والعدوان.

قال الفيلسوف: إنه لا يُقدِم على طلب ما يضرُّ الناس، ويسوئهم، إلَّا أهلُ الجهالة والسفه، وسوء النظر في عواقب الأمور في الدنيا والآخرة، وقلة العلم بما يدخل عليهم في ذلك من حلول النقمة، ويلزمهم من تبعة ما اكتسبوا، ورُبَّما اتعظ الجاهل واعتبر، بما يُصيبه من المكروه من غيره، فارتدع عن أن يبتلي أحدًا بمثل ذلك من الظلم والعدوان، ورجا نفع ما كفَّ عنه في الآخرة، ونظير ذلك، حديث الفارس واللبوة وابن آوى.

قال الملك: وكيف كان ذلك؟

١ - مثل: الفارس، واللبوة، وابن آوى

١ - مثل: الفارس، واللبوة، وابن آوى

قال الفيلسوف: زعموا أن لَبُؤة كانت في غيضة، ولها شبلان، وأنها خرجت ذات يومٍ في طلب الصيد، وخلفتهما في كهفها، فمرّ بهما فارس، فحمل عليهما، ورماهما فقتلهما، وسلخ جلودهما، وانصرف إلى منزله.

ثمَّ إنَّ اللبؤة رجعت، فلما رأت ما حلّ بشِبليْها من الأمر الفظيع، اضطربت وضجّت وصرخت.

وكان إلى جانبها ابن آوى، جارٌ لها، فلما سمع بكاءها، وصُراخها، وجزعها، خرج إليها فقال: ما هذا الذي أراه بك؟ وما جرى عليك؟ أخبريني به لأشاركك فيه.



قالت اللبؤة: شبلاي! مرّ بهما فارس فقتلهما، وسلخ جلودهما، ونبذهما بالعراء.

قال ابن آوى: لا تحزني ولا تصرخي، وأنصفي من نفسك، واعلمي أن هذا الفارس لم يأت إليك شيئاً، إلا وقد كنت تفعلين بغيرك مثله، ولم تجدي من الأسف والحزن على شبليك شيئا، إلّا وقد كان من كنت تفعلين بأحبابه، ما تفعلينَ، يجد مثلّه أو أفضل منه، فاصبري على فعل غيرك كما

صبر غيرك على فعلك، فإنه قد قيل: كما تدين تدان، ولكل عمل ثمرة من الثواب والعقاب، وهما على قدره في الكثرة والقلة، كالزَّارع، إذا حصد الحصاد، أُعطِيَ على قدر بذره.

قالت اللبؤة: بين لي ما تقول، وأوضحه.

قال ابن آوى: كم أتى لك من العمر؟

قالت اللبؤة: مائة سنة.

قال ابن آوى: ما الذي كان يقوتك ويُعيشك؟

قالت اللبؤة: لحوم الوحوش.

قال ابن آوى: من كان يطعمك إياها؟

قالت اللبؤة: نفسي، كنت أصيد الوحش وآكله.

قال ابن آوى: أرأيت الوحش التي كنت تأكلين، أما كان لها آباء وأمهات؟

قالت اللبؤة: بلى.

قال ابن آوى: فما بالي لا أرى ولا أسمع لتلك الآباء والأمهات، من الجزع والضجيج، ما أرى وأسمع منك؟ أما إنه لم يصبك ذلك، إلَّا لسوء نظرك في العواقب، وقلَّة تفكُّرك فيها، وجهالتك بما يرجع عليك من ضُرِّها!

فلما سمعت اللبؤة ذلك من كلام ابن آوى، عرفت أن ذلك مما جنت على نفسها، وأن عملها كان جوراً وظلماً، وأنه مَن عمل بغير الحقّ والعدل، انتُقِم منه، وأُديل عليه، فتركت الصيد، وانصرفت عن أكل اللحم إلى الثمار، وأخذت في الزهد والنسك والعبادة.

ثم إنَّ طائرا كان عيشه على الثمار، فرأى كثرة أكل اللبؤة إياها، فقال: لقد ظننتُ لقلّة الثمار، أنَّ الشجر لم يحمل إلا نزْرا (قليلا) العام، ولمَّا رأيت أكلك لها وأنت آكلة اللحم، ورفضَك رزقَك وما قسم الله لك، وتحوُّلك إلى رزق غيرك، فانتقصته، ودخلت عليه فيه، علمتُ أنَّ الشجر قد أثمر كما كان يُثمر فيما خلا، وإنما أتت قلة الثمر من قِبَلك، فويل للشجر، وويل للثمار، وويل لمن كان عيشه منها! فما أسرع هلاكهم ودمارهم، إذ قد نازعهم في ذلك مَن لا حقَّ له فيه، ولا نصيب!

فلما سمعت اللبؤة ذلك من كلام الطائر، تركت أكل الثمار، وأقبلت على أكل العشب والعبادة.

وإنما ضربت لك هذا المثل، لتعلم أن الجاهل، رُبما انصرف لمكروهٍ يحلُّ به، عن ضرّ الناس، كاللبؤة التي تركت بما لقيت من شبليها، أكلَ لحوم الوحش، ولقول الطائر، أكل الثمار، وأقبلت على النسك والعبادة.

ثم قال الفيلسوف: فالناسُ أحقُّ بحسن النظر، في الأمر الذي لهم الحظُّ فيه، فإنه قد قيل: ما لا ترضاه، لنفسك لا ترضه لغيرِك، وما لا تحبُّ أن يُصنع بك، فلا تصنعه بغيرك، فإنَّ في ذلك العدل، وفي العدل رضا الله تعالى.

باب الناسك والضيف

قال الملك للفيلسوف: قد فهمت ما ذكرت، من أمرِ من يدع ضُرَّ غيره، لضرِّ نفسه، فأخبرني عمَّن يدع صنعه، الذي يعرفه ويليق به، ويطلب سواه فلا يقدر عليه، فيراجع الذي كان في يده، فيفوته، ويبقى حيران متردداً.

١ - مثل: الناسك والضيف

قال الفيلسوف: زعموا أنه كان بأرض، ناسك عابدٌ مجتهدٌ، فنزل به ضيفٌ ذات يوم، فدعا الناسك لضيفه بتمر ليتحفه به، فأكلا منه جميعاً.

ثم إنَّ الضيف قال: ما أحلى هذا التمر وأطيبه، فليس هو في بلادي التي أسكنها، وليته كان فيها! أرى أن تساعدني على أن آخذ منه ما أغرسه في أرضنا، فإني لست عارفاً بثمار أرضكم هذه، ولا بمواضعها.

قال الناسك: إنَّه لا يُعدُّ سعيدا، من احتاج إلى ما لا يجد، وليس بمقدورٍ عليه، فتشرَهُ لذلك نفسُه، ويقلُّ عنه صبره، ويصل إليه من ثِقل ذلك واغتمامه، ما يُضِرُّ به، ويُدخِل المشقة عليه، وإنك أنت العظيمُ الجَدّ، الجزيلُ الحظّ، حين قنعت بما رُزِقت، وزَهِدت فيما لا تظفر به، ولا تدرك طَلبتك منه.

فاستحسن الضيف كلامه وأعجبه، فتكلف أن يتعلمه، وعالج في ذلك نفسه أياماً.

فقال الناسك لضيفه: ما أخلقك أن تقع مما تركت من كلامك، وتكلفت من كلامي، في مثل ما وقع فيه الغراب.

قال الضيف: وكيف كان ذلك؟

٢ - مثل: الغراب والحجلة

قال الناسك: زعموا أن غراباً، رأى حجلة، تدرج وتمشي، فأعجبته مشيتها، وطمع أن يتعلمها. فراض على ذلك نفسه، فلم يقدر على إحكامها، وأيس منها، وأراد أن يعود إلى مشيته التي كان عليها، فإذا هو قد اختلط، وتخلع في مشيته، وصار أقبح الطير مشياً.

وإنما ضربت لك هذا المثل، لما رأيت من أنك تركت لسانك الذي طبعت عليه، وأقبلت على لساني، وهو لا يشاكلك، وأخاف ألا تدركه، وتنسى لسانك، وترجع إلى أهلك وأنت شرّهم لسانا، فإنه قد قيل: إنه يعد جاهلاً، من تكلف من الأمور ما لا يشاكله، وليس من عمله، ولم يؤدبه عليه آباؤه وأجداده من قبل.

باب السائح والصائغ

قال الملك للفيلسوف: قد فهمت ما ذكرت، فاضرب لي مثلاً، في شأن الذي يضع المعروف في غير موضعه، ويرجو الشكر عليه، وأخبرني عن الملك، إلى من ينبغي أن يصنع المعروف، ومن يحق له أن يثق به؟

قال الفيلسوف: أيها الملك، إن طبائع الخلق مختلفة، ومن الناس البر والفاجر، وقد يكون في بعض البهائم، والسباع، والطير، ما هو أوفى منه ذمة، وأشد محاماة على حرمه، وأشكر للمعروف، وأقوم به.

وإنَّ الملوك وغيرهم، جُدُر أن يأتوا الخير إلى أهله، وأن يُؤَملوا من كان عنده شكر، ولا ينظروا إلى أقاربهم وأهل خاصَّتهم، ولا إلى أشراف الناس، وأغنيائهم، وذوي القوَّة منهم، ولا يمتنعوا أن يصنعوا المعروف، إلى أهلِ الضعف، والجَهد، والفاقة، فإنَّ الرأي في ذلك، أن يجرِّبوا ويختبروا، صغار الناس وعظماءهم، في شكرهم وحفظهم الودّ، وفي غدرهم وقلَّة شكرهم، ثم يكون عملهم في ذلك، على قدرِ الذي يبدو لهم.

وإنَّ الطبيب الرفيق، لا يداوي المرضى بالمعاينة لهم فقط، ولكنه ينظر إلى البول، ويَجسُّ العروق، ثم يكون العلاج على المعرفة وقدرها، وكذلك العاقل، لا ينبغي له أن يصطفي أحداً، ولا يستخلصه إلا بعد الخبرة.

ومع ذلك، ربما صنع الإنسان المعروف مع الضعيف، الذي لم يجرب شكره، ولم يعرف حاله في طبائعه، فيكافئ أحسن المكافأة، وربما حذر العاقل الناس، ولم يأمن على نفسه أحداً منهم، وقد قيل: لا ينبغي لذي العقل، أن يحتقر صغيراً ولا كبيراً، من الناس والبهائم، ولكنه جدير بأن يبلوهم، ويكون ما يصنع إليهم على، قدر ما يرى منهم، وقد مضى في ذلك، مثل ضربه بعض الحكماء.

قال الملك: وكيف كان ذلك؟

١ - مثل: السائح والصائغ

قال الفيلسوف: زعموا أنَّ أناسا، انطلقوا إلى مغار، فحفروا فيه زُبْية (الحُفْرَةُ يُغَطَّى رَأْسُها، لِصَيْدِ الأَسَدِ) للسباع، فوقع فيها رجل صائغ، وبَبْر(نَوْعٌ مِنَ السِّبَاعِ الْمُفْتَرِسَةِ، يشبه النمر)، وحيَّة وقرد، فلم يؤذوا ذلك الرجل، ولم يجدوا لهم مخلِّصًا، فمرَّ بهم رجلٌ سائح، فاطَّلع فيها، فلمَّا رآهم فكَّر في نفسه وقال: ما أراني مقدِّما لآخرتي، شيئا أفضلَ من أن أخَلِّص هذا الرجل، من بين هؤلاء الأعداء.



فأخذ حبلا، فدلَّاه، فتعلق به القرد لخفته، فخرج، ثم دلاه الثانية، فالتفت به الحية، فخرجت، ثم دلاه الثالثة، فتشبَّث به الببر، فأخرجه.

فشكرن له صنيعه، وقلن له: لا تخرج هذا الرجل، فإنه ليس في الأرض، أقلُّ شكرا من الإنسان، ولا سيما هذا الرجلُ خاصةً. وقال القرد: إن وطني في جبل قريب، من مدينة كذا وكذا، فقال الببر: وأنا أيضاً في أجمة إلى جانب تلك المدينة، فقالت الحية: أنا أيضاً في سور تلك المدينة، فقالوا: إن

أنت أتيتها يوما من الدهر، فاحتجت إلينا، فنادِنا حتى نخرج إليك، ونُجازيك بما أوليتنا من معروف.

فلم يلتفت السائح إلى ما ذكروا من قلة شكر الإنسان، وأدلى الحبل، فأخرج الصائغ، فأثنى عليه وقال له: إنك قد أوليتني معروفًا جسيمًا، وأنا حقيقٌ بشكره وحفظه، فإن أتيت يوماً من الدهر لمدينة كذا كذا، فاسأل عن منزلي، فأنا رجل صائغ، لعلي أكافئك بما صنعت إلي من معروف.

ومضى كلٌّ واحدٍ منهما لوجهه، ومكث السيَّاح حينا، ثم عرضت له حاجة نحو تلك المدينة، فانطلق إليها، فاستقبله القرد، فقال: إني لا أملك شيئا، ولكن اقعد حتى آتيك ما تصيب منه. وانطلق القرد، ولم يلبث أن جاءه بفاكهةٍ طيّبة، فوضعها بين يديه، فأكل السائح منها حاجته.

ثم إن السائح، انطلق حتى دنا من باب المدينة، فاستقبله الببر، وقال: قد أوليتني جميلًا، فلا تبرح حتى أرجع إليك، وذهب إلى ابنة الملك، فقتلها وأخذ حليها، وأتاه به، فدفعه إليه من غير أن يُعلمه من أين هو، فقال السائح في نفسه: هذه البهائم قد أولتني هذا الجزاء، فكيف لو قد انتهيت إلى الصائغ، فإنه إن كان معسراً، لا يملك شيئاً، فسيبيع هذا الحلي فيستوفي ثمنه، فيعطيني بعضه، ويأخذ بعضه، وهو أعرف بثمنه.

ثم إنَّ السائح دخل المدينة، فأتى منزل الصائغ، فلما رآه، رحب به، وأدخله منزله. فلما بصر بالحلي، عرفه، وكان هو الذي صاغه لابنة الملك، فقال للسائح: اطمئن حتى آتيك بطعام، فلست أرضى لك ما في البيت، ثم خرج وهو يقول: قد أصبت فرصتي، أريد أن أنطلق إلى الملك، وأدله على ذلك، فتحسن منزلتي عنده.

فانطلق الصائغ إلى باب الملك، فقال: إنَّ الرجل الذي قتل ابنتك، وأخذ حليها، قد أخذتُه، وهو محبوسٌ عندي، فلا تطالبنَّ به أحدا، فإني قد ظفرت به ومعه الحلي.

فأرسل الملك بأصحابه، وأتى بالسائح، فلمّا رأى الحلي معه، أمر به أن يعذَّب، وأن يُطاف به في المدينة ثم يُصلب.

فلمّا فُعل به ذلك، وطِيفَ به المدينة، جعل السائح يبكي ويقول بأعلى صوته: لو أني أطعت القرد والحية والببر فيما أمرنني به، وأخبرنني من قلة شكر الإنسان، لم يصر أمري إلى هذا البلاء، وجعل يكرر هذا القول.

فسمعت بذلك الحية، فخرجت من جُحرِها، فلمّا بصُرت به اشتدَّ عليها أمره، وفكَّرت في الاحتيال لخلاصه، فانطلقت إلى ابن الملك، فلدغته على رجله، فدعى الملك أهل العلم، فرقوه ليشفوه فلم يغنوا عنه شيئاً.

ثم مضت الحية إلى أخت لها من الجن، فأخبرتها بما صنع السائح إليها من المعروف، وما وقع فيه، فرقت له، وانطلقت إلى ابن الملك، وتخايلت له، وقالت: إنك لا تبرأ حتى يرقيك هذا الرجل، الذي قد عاقبتموه ظلماً.

وانطلقت الحية إلى السائح، فدخلت عليه السجن، وقالت: هذا الذي كنت نهيتك عنه من اصطناع المعروف إلى هذا الإنسان، ولم تطعني. وأتته بورق ينفع من سمِّها، وقالت: إذا جاءوا بك لترقي ابن الملك، فاسقه من ماء هذا الورق، فإنه يبرأ، وإذا سألك الملك عن حالك فاصدقه، فإنك تنجوا إن شاء الله تعالى.

وإن ابن الملك أخبر الملك أنه سمع قائلاً يقول: إنك لن تبرأ حتى يرقيك هذا السائح الذي حبس ظلماً، وإنك أيها الملك أمرت بقتله ظلما وعدوانا.

فلما سمع الملك ذلك من ابنه، أنَّ شفائي عند السائح الذي أخذتَه وأمرت بعذابه، أمر أن يُكَف عن عقوبة السائح وأن يؤتى به، فأُتيَ به، فأمره أن يَرقي ابنه، فقال السائح: لستُ أحسن الرقي، ولكن اسقه من ماء هذه الشجرة، فيبرأ بإذن الله تعالى.

فسقاه، فبرئ الغلام، ففرح الملك بذلك، وسأله عن قصته فأخبره، فشكره الملك، وأعطاه عطية حسنة، وأمر بالصائغ أن يُضرب حتى يموت، لكذبه،

وانحرافه عن الشكر، ومجازاته الفعل الجميل بالقبيح.

ثم قال الفيلسوف للملك: ففي صنيع الصائغ بالسائح، وكفره له بعد استنقاذه إياه، وشكر البهائم له، وتخليص بعضها إياه، عبرة لمن اعتبر، وفكرة لمن تفكر، وأدب في وضع المعروف والإحسان عند أهل الوفاء والكرم، قربوا أو بعدوا، لما في ذلك من صواب الرأي، وجلب الخير، وصرف المكروه.

باب ابن الملك وأصحابه

قال الملك للفيلسوف: قد فهمتُ ما ذكرت، فأخبرني، ما بالُ الرجل السفيه يصيبُ الرفعة والشرف، والحكيم اللبيب لا يخلو من الهمِّ والجهد؟

قال الفيلسوف: كما أن الإنسان لا يبصر إلا بعينيه، ولا يسمع إلا بأذنيه، كذلك العمل، إنما تمامه الحلم، والعقل، والتثبت، غير أنَّ القضاء والقدر يغلبان كل شيء، وإنما يُريدان أدنى علَّة، فيموِّلان صاحبها، أو يهلكانه، ومَثَلُ ذلك، مَثَلُ ابن الملك وأصحابه.

قال الملك: وكيف كان ذلك؟

١ - مثل: ابن الملك وأصحابه

قال الفيلسوف: زعموا أن أربعة نفرا، اصطحبوا في طريق واحدة، أحدهم ابن ملك، والثاني ابن تاجر، والثالث ابن شريف ذو جمال، والرابع ابن أكار.

وكانوا جميعاً محتاجين، وقد أصابهم ضرٌّ وجهد شديد، في موضع غربة، لا يملكون شيئا إلّا ما عليهم من ثيابهم. فبينما هم يمشون، إذ فكروا في أمرهم، وكان كل إنسان منهم راجعاً إلى طباعه، وما كان يأتيه منه الخير، فإذ قال ابن الملك: إنّ أمر الدنيا كله بقدر، والذي قدر على الإنسان يأتيه على كل حال، والصبر أفضل الأمور.

قال ابن التاجر: العقل أفضل من كل شيء.

قال ابن الشريف: الجمال خير مما ذكرتم.

قال ابن الأكار: ليس في الدنيا أفضل من الاجتهاد في العمل.

فلما قربوا من مدينة، أقاموا في ناحية منها يتشاورون، فقالوا لابن الأكار: انطلق، فاكتسب لنا باجتهادك، طعاماً ليومنا هذا.

فانطلق ابن الأكار يسأل: أيُّ عملٍ إذا عمله الرجل من غُدوة إلى الليل، كَسَبه ما يُشبِع أربعة نفر؟

فعرّفوه أنه ليس شيءٌ أعزَّ من الحطب، وكان الحطب منها على فرسخ، فانطلق ابن الأكار، فاحتطب طناً من الحطب، وأتى به المدينة، فباعه بدرهم، واشترى به طعاماً، وكتب على باب المدينة: عمل يوم واحد، إذا أجهد فيه الرجل بدنه، قيمته درهم. ثم انطلق إلى أصحابه بالطعام، فأكلوا.

فلما كان من الغد، قالوا ينبغي للذي قال إنه ليس شيء أعز من الجمال، أن تكون نوبته، فانطلق ابن الشريف ليأتي المدينة، ففكر في نفسه وقال: لست أعرفُ شيئا من الأعمال، وأستحي أن أرجع إلى أصحابي بغيرِ شيء، وهمَّ أن يُفارقهم.



فأسند ظهره إلى شجرةٍ في المدينة، فبينما هو مهموم، إذ مرَّت به امرأة لبعض عظماءِ أهل المدينة، فأعجبها جماله، فأرسلت إليه جاريتها، فأتت به إلى منزلها، ثم أمرتْ به فنُظِّف، ثم خلا بها يومه كله في نعيم وسرور، فلمَّا أمسى، أمرت له بخمسمائة دينار، فلمَّا قبضها، توجَّه إلى أصحابه، وكتب على باب المدينة: جمال يومٍ واحدٍ بخمسمائة دينار.

فلما أصبحوا في اليوم الثالث، قالوا لابن التاجر: انطلق أنت اليوم، فاطلب لنا بعقلك وتجارتك ليومنا هذا شيئاً. فانطلق ابن التاجر، فما لبث قليلا، حتى أبصر سفينة عظيمة في البحر، كثيرة المتاع، قد قدمت إلى الساحل، فخرج إليها جماعة من التجّار، يريدون أن يبتاعوا مما فيها من المتاع.

فجلسوا يتشاورون في ناحية، وقال بعضهم لبعض: ارجعوا يومنا هذا، لا نشتري منهم شيئاً، حتى يكسد المتاع عليهم، فيرخصوا علينا، مع أننا محتاجون إليه، وسيرخص.

فجاء ابن التاجر، فاشترى ما فيها بمائة ألف دينار نسيئة (بتأخير دفع الثمن)، وأظهر أنه يريد أن ينقل متاعه إلى مدينة أخرى. فلما سمع التجار ذلك، خافوا أن يذهب ذلك المتاع من أيديهم، فأربحوه على ما اشتراه مائة ألف درهم، فأخذها منهم، وأحال صاحبَ السفينة على التجار، وحمل ربحه إلى أصحابه، فلمَّا مرَّ بباب المدينة كتب عليه: عقل يوم واحد بمائة ألف درهم.

فلما كان اليوم الرابع، قالوا لابن الملك: انطلق أنت، واكتسب لنا بقضائك وقدرك شيئا.

فانطلق ابن الملك حتى أتى إلى باب لمدينة، فجلس على متكأ في الباب، فقُضيَ أنَّ ملك المدينة هلك في ذلك اليوم، ولم يخلف ولدا، ولا أخا، ولا قرابة، فمرُّوا عليه بالجنازة، فبصُروا به لا يتحرَّك، ولا يحزن لموت الملك، فسأله رجل: من أنت؟ وما الذي يقعدك على باب المدينة، لا يحزُنك موت الملك؟

فلم يجبه، فشتمه وطرده، فلمَّا مضوا رجع إلى مكانه، فلمَّا انصرفوا، رآه الذي طرده فقال: ألَم أنْهَكَ عن هذا الموضع؟ فأخذه وحبسه.

ثم إنهم اجتمعوا، ليُملِّكوا عليهم رجلا يختارونه، فقام الذي كان أمر بالفتى إلى الحبس، فحدَّثهم بقصّته، وقال: إني أتخوَّف أن يكون عَينًا علينا لعدوِّنا، فبعثوا إليه، فأتوا به فسألوه مَن هو، وما أمره، وما الذي أقدمه بلدهم؟

فقال: أنا ابن ملك، وإنه لما تُوُفِّيَ والدي، غلبني أخي على المُلكْ، فهربت منه حذراً على نفسي، حتى انتهيت إلى هذه الغاية.

فلما ذكر الغلام ما ذكره من أمره، عرفه من كان يغشى أرض أبيه منهم، وأثنوا على أبيه خيراً، وملَّكوه عليهم، ورضوا به.

وكان لأهل تلك المدينة سنة، إذا ملكوا عليهم ملكاً، حملوه على فيل أبيض، وطافوا به حوالي المدينة، فلما فعلوا به ذلك، مرّ بباب المدينة، فأبصر ما كتبه أصحابه، فأمرَ أن يُكتب مع ذلك: إن الاجتهاد، والجمال، والعقل، وما أصاب الرجل في الدنيا من خير أو شر، إنما هو بقضاء وقدر من الله عزّ وجل، وقد ازددت في ذلك اعتباراً، بما ساق الله إليّ، من الكرامة والخير والسعادة.

ثم إنَّ الملك انطلق إلى مجلسه، فجلس على سرير ملكه، وأرسل إلى أصحابه، فأتوه، فأشرك صاحب العقل مع الوزراء، وضمّ صاحب الاجتهاد إلى أصحاب الزرع، وأمر لصاحب الجمال بمالٍ كثير، ثم نفاه كي لا يفتتن به.

ثم جمع الناس، والعمَّال، وذوي الرأي من أهل مملكته، وقال: أمَّا أصحابي، فقد استيقنوا أنَّ الذي رزقهم الله سبحانه وتعالى من الخير، إنما هو بقضاء الله وقدره، وإنما أحب أن تعلموا ذلك وتستيقنوه، فإن الذي منحني الله، وهيأه لي، ورزقني ووهبه، لم يكن من الجمال، ولا من العقل،

ولا من الاجتهاد، وقد رأيتُ من أهل هذه الأرض مَن هو أفضل منّي جمالا وحُسنا، وعلمت أنَّ فيها مَن هو أكمل منّي عقلا، ورأيا، وأشدُّ اجتهادا.



وكان في ذلك الجمع شيخ، فنهض حتى استوى قائماً، وقال: أيها الملك، قد تكلَّمتَ بحلم وعقل، فحَسُن ظننا بك، فمُلّكت أمرا، قد علمه الله وقدَّره، وإن الذي بلغ بك ذلك، هو فوز عقلك، وحسن ظنّك، وقد عرفنا ما ذكرت، وصدَّقناك فيما وصفت.

٢ - مثل: الشيخ والحمامتين

ثم قام شيخ آخر، وقال: أيها الملك، إني قد كنت وأنا غلام، أخدم رجلا، وقد كنت أعيش بحال خشونة وضيق، ففارقته، وقد كان أعطاني من أجرتي دينارين، فأردت أن أتصدق بأحدهما.

فأتيت السوق، فوجدت مع رجل من الصيادين حمامتين، فساومت بهما، فأبى الصياد أن يبيعهما إلا بدينارين، فاجتهدت أن يبيعنيهما بدينار واحد، فأبى.

فقلت في نفسي: أشتري أحدهما وأترك الآخر، ثم فكرت، وقلت لعلهما يكونا زوجين، ذكراً وأنثى، فأفرق بينهما، فأدركني لهما رحمة، فتوكلت على الله وابتعتهما بدينارين.

وأشفقت إن أنا أرسلتهما في أرضٍ عامرةٍ، ألَّا يستطيعا أنْ يطيرا، من الهُزال وما لقيا من الجَهد، فذهبت بهما إلى مكانٍ كثيرِ الرعي، فسرَّحتهما، فطارا، فوقعا على شجرة مثمرة.

فلما صارا في أعلاها، شكرا لي، وقال أحدهما للآخر: لقد خلصنا هذا من البلاء الذي كنا فيه، وإنَّا لحقيقان أن نُجازيه بفعله.

فقالا لي: قد أتيتَ إلينا معروفًا، ونحنُ أحقُّ أن نشكرك به، ونجازيك عليه، وإنَّ في أصل هذه الشجرة، جَرَّة مملوءة دنانير، فاحتفِر عندها فخذها.



فأتيت الشجرة، وأنا في شكٍّ مما قالا، فلم أحفر إلّا قليلا حتى انتهيت إليها، فاستخرجتها، ودعوت الله لهما بالعافية، وقلتُ لهما: الحمد لله، الذي علّمكما ما لم تعلما.

ثم قال الفيلسوف للملك: ليعرف أهل النظر في الأمور، والعمل بها، أنَّ الأشياء كلها بقضاءٍ وقدر، وأنَّ الله يفعل فيها ما أراد، ويقضي فيها ما أحب.

باب الحمامة، والثعلب، ومالك الحزين

قال الملك للفيلسوف: قد فهمتُ ما ذكرت، فاضرب لي مثلا، في شأن الرجل الذي يرى الرأي لغيره، ولا يراه لنفسه.

قال الفيلسوف: إن مثل ذلك، مثل الحمامة، والثعلب، ومالك الحزين.

قال الملك: وكيف كان ذلك؟

١ - مثل: الحمامة، والثعلب، ومالك الحزين

قال الفيلسوف: زعموا أن حمامة كانت تفرخ في رأس نخلة، فإذا باضت حضنت بيضها، فإذا فقست وأدرك فراخها، جاءها ثعلب قد تعاهد ذلك منها، فيقف بأصل النخلة، فيصيح بها ويتوعدها أن يرقي إليها، فتلقي إليه فراخها.

فبينما هي ذات يوم قد أدرك لها فرخان، إذ أقبل مالك الحزين، فوقع على النخلة. فلما رأى الحمامة كئيبة، حزينة، شديدة الهم، قال لها: ما لي أراكي كاسفة اللون، سيئة الحال؟

فقالت له: يا مالك الحزين، إن ثعلباً دهيت به، كلما كان لي فرخان، جاء يهددني، ويصيح في أصل النخلة، فأفرق منه، فأطرح إليه فرخي.

قال لها مالك الحزين: إذا أتاكِ ليفعل ما تقولين، فقولي له: لا ألقي إليك فرخي، فارقَ إلي، وغرر بنفسك، فإذا فعلت ذلك وأكلت فرخي، طرت

عنك، ونجوت بنفسي.

فلما علمها مالك الحزين هذه الحيلة، طار، فوقع على شاطئ نهر، فأقبل الثعلب في الوقت الذي عرف، فوقف تحتها، ثم صاح كما كان يفعل، فأجابته الحمامة بما علمها مالك الحزين.

قال لها الثعلب: أخبريني من علمك هذا؟

قالت الحمامة: علمني مالك الحزين.

فتوجّه الثعلب، حتى أتى مالكا الحزين على شاطئ النهر، فوجده واقفا، فقال له الثعلب: يا مالك الحزين، إذا أتتك الريح عن يمينك، فأين تجعل رأسك؟

قال مالك الحزين: عن شمالي.

قال الثعلب: فإذا أتتك عن شمالك، فأين تجعل رأسك.

قال مالك الحزين: أجعله عن يميني، أو خلفي.

قال الثعلب: فإذا أتتك الريح من كل مكان، وكل ناحية، فأين تجعله؟

قال مالك الحزين: أجعله تحت جناحي.

قال الثعلب: وكيف تستطيع أن تجعله تحت جناحك، ما أراه يتهيأ لك، فأرني كيف تصنع.

فأدخل الطائر رأسه تحت جناحه، فوثب عليه الثعلب، فقتله، فقال: يا عدو نفسه، ترى الرأي للحمامة، وتعلمها الحيلة لنفسها، وتعجز عن ذلك لنفسك، فيستمكن منك عدوك، ثم أكله.

ثم قال الفيلسوف للملك: بقيت وعشت أيها الملك، وكمل فيك الحلم والعلم، وزكا منك العقل والقول والنية، فلا يوجد في رأيك نقص، ولا في قولك سقط، ولا في فعلك عيب، وجُمِع فيك النجدة واللين، فلا توجَد جباناً عند اللقاء، ولا ضيّقَ الصدرِ فيما ينوبك من الأشياء.

وقد شرحت لك الأمور، ولخصت لك جواب ما سألتني عنه، واجتهدت لك في رأيي، ونظرتُ بمبلغ فطنتي في التماس قضاءِ حاجتِك، فاقض حقّي بحسن النية منك، بإعمال فكرِك وعقلك، فيما وصفت لك، فافهم ذلك أيها الملك، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

نوادر إبن المقفع

حَدثنَا أَبُو الْأَشْقَر، حَدثنَا عَليّ بن جَعْفَر الْكَاتِب، قَالَ، كَانَ رجل، يُجَالس ابْن المقفع، فيكثر الْكَلَام، ويطيل الْجُلُوس. فَكَانَ ابْن المقفع، يستثقله، فَجَاءَهُ يَوْمًا، وَقد تنَاول دَوَاء، فَقَالَ لغلامه، اسْتَأْذن لي عَلَيْهِ، فَقَالَ لَهُ الْغُلَام، قد أَخذ دَوَاء، قَالَ كيس، فَقَالَ لَهُ الْغُلَام، لَيْسَ إِلَى ذَاك سَبِيل، قَالَ، فَكتب فِي قرطاس:

هَل لذِي حَاجَة إِلَيْك سَبِيل
لَا يُطِيل الْجُلُوس إِلَّا قَلِيل

ثمَّ رمى بالقرطاس فِي الدَّار، فعرفها ابْن المقفع، فَنظر فِي الَّذِي كتب، وَكتب فِي أَسْفَل من ذَلِك الْكتاب:

أَنْت يَا صَاحب الْكتاب ثقيل
وَقَلِيل من الثقيل طَوِيل

***

زعم يزيد، مولى ابن عون، قال: كان رجل بالبصرة، له جارية، تسمى ظمياء، فكان إذا دعاها قال: يا ضمياء، بالضاد. فقال ابن المقفع، قل: يا ظمياء. فناداها: يا ضمياء. فلما غير عليه ابن المقفع، مرتين أو ثلاثا، قال له: هي جاريتي، أو جاريتك؟

***

قال عمر بن الخطاب: من نبل الفقر، أنك لا تجد أحداً، يعصي الله، ليفتقر، فنظمه ابن المقفع:

دليلك إن الفقر خيرٌ من الغنى
وإن القليلَ المالِ خيرٌ من المثري

لقاؤك مخلوقاً عصى الله بالغنى
ولم ترى مخلوقاً عصى الله بالفقرِ

***

كتب بعض الأكابر إلى عبد الله بن المقفع، يلتمس معاقدة الإخاء، والاجتماع على المخالصة والصفاء، فلما لم يجبه، كتب إليه يعتب، فكتب له عبد الله: إن الإخاء رق، وكرهت أن أملكك رقي، قبل أن أعرف، حسن ملكتك.

***

لقي ابن المقفع، بعض الأكابر، فقال له: بلغني عنك ما كرهته. فقال ابن المقفع: لا أبالي! قال: ولم؟ قال: لأنه إن كان حقّاً، غفرته، وإن كان باطلاً، كذّبته. وهذا من أحسن جوابٍ.

***

قال ابن المقفع، وقد جرى ذكر الشعر، وفضيلته: أي حكمة تكون أبلغ، أو أحسن، أو أغرب، أو أعجب، من غلام بدويّ، لم ير ريفا، ولم يشبع من طعام، يستوحش من الكلام، ويفزع من البشر، ويأوي إلى القفر، واليرابيع والظّباء، وقد خالط الغيلان، وأنس بالجان، فإذا قال الشعر، وصف ما لم يره، ولم يعهده، ولم يعرفه، ثم يذكر محاسن الأخلاق، ومساويها، ويمدح ويهجو، ويذمّ ويعاتب، ويشبّب ويقول ما يكتب عنه، ويروى له، ويبقى عليه.

***

كتب ابن المقفع، إلى صديق، ولدت له جارية:

بارك الله لكم، في الإبنة المستفادة، وجعلها لكم زيناً، وأجرى لكم بها خيراً، فلا تكرهها، فإنهن الأمهات، والأخوات، والعمات والخالات، ومنهن الباقيات الصالحات. ورب غلام، ساء أهله بعد مسرتهم، ورب جارية، فرحت أهلها، بعد مساءتهم.

***

قيل لابن المقفع: الصديق أحب إليك، أم القريب؟ قال: القريب أيضاً، يجب أن يكون صديقاً.

***

قال بعضهم: أنا بالصديق، آنس مني بالأخ، فقال له ابن المقفع: صدقت، الصديق نسيب الرّوح، والأخ، نسيب الجسم.

***

سئل ابن المقفع عن الهوى، فقال: هوانٌ سرقت نُونُه، فنظمه الشاعر، فقال:

نون الهوان من الهوى مسروقة
وأسير كل هوى أسير هوان

***

قال ابن المقفع:

من سالم الناس، ربح السلامة، ومن تعدى عليهم، كسب الندامة، ومن عذب لسانه، كثر إخوانه، ومن أهلك نفسه في مرضاة غيره، عظمت جنايته.

إئتِ إلى الناس، ما تحب أن يؤتى إليك، الإحسان، يقطع اللسان، الاستماع، أسلم من القول، القلب، أسرع تقلباً من الطرف، المتكلف لما لا يعنيه، متعرض لما يكره، ومن أدخل نفسه فيما لا يعنيه، ابتلي فيه بما يعنيه، كمون الحقود، ككمون النار في العود.

إحذر صولة اللئيم، إذا شبع، استعن بالصمت، على إطفاء الغضب، الصنيعة عند الكفور، لا تثمر إلا مرا، من عرف ثمار الأعمال، كان حقيقاً أن لا يغرس مراً، ومن أبصر العاقبة، فآثرها، أمن الندامة.

من تعزّز بالله، لم يذلّه سلطان، ومن توكّل عليه، لم يضرّه إنسان.

من طال كلامه سئم، ومن قلّ احترامه، شتم.

إياك واللّجاج، فإنه يوغر الصدور، وينتج النفور، ويقلّب القلوب، ويفتح باب الحروب.

الإفراط في التواضع، يوجب المذلّة، والإفراط في المؤانسة، يوجب المهانة.

لا تعرضنّ عقلك على النّاس، فإذا اضطرك أمر، فكن كصاحب الشطرنج، وإيّاك أن تبتدئ في مجلس، لم تسبر عقول أصحابه، فبين العقول، بون (مسافة) بعيد.

المال عون، ومعوان على المروءة، وربما تحولت البغضاء مودة، والمودة بغضاء، ومن عدم ماله، أنكره أهله.

أكرم الأخلاق، التواضع، التواضع، يورث المحبة، الكبر، مقرون به سوء الظن، الجواد، من بذل، ما يضن به، أحسن العفو، ما كان عن عظيم الجرم.

أعظم الجهاد، جهاد المرء نفسه، لقول الله تعالى، إن النفس لأمارة بالسوء، وقرب الصالحين، داع للصلاح.

إن المُنى، رأسُ أموالِ المفاليسِ، وكَثرةُ الأماني، تَطرد القناعة، وتُفسِدُ الحِسَ، وتُخْلِق العقلَ.

إن الحسد، خلق دنيء، وإن دناءته، أن يوكل بالأدنى، فالأدنى.

إذا أكرمك الناس، لمال أو سلطان، فلا يُعْجِبَنَّكَ ذلك، فإن زوال الكرامة، بزوالها، ولكن ليعجبك، إن أكرموك لعلم، أو لأدب، أو لدين.

المشاراة (المجادلة)، والمماراة (ناظر وجادل، نازعَ وخالف)، يفسدان الصداقة القديمة، ويحلان العقدة الوثيقة، وأيسر ما فيهما، أنهما ذريعة، إلى المنافسة، والمغالبة.

من عرف قدره، قل إفراطه. لا تُجالِسْ عدوَّك، فإنه يَتَحَفَّظ عليك الخطأَ، ويُمارِيك في الصَّوابِ. كن في الحرص على معرفة عيبك، بمنزلة عدوك، في معرفة ذلك. لا تجنين على نفسك، عداوة وبغضة، اتكالاً على ما عندك من العمل، والقوة والمنعة. لا يغتر الأقوياء، بفضل قوتهم، على الضعفاء. الضعيف المحترس من العداوة، أقرب إلى السلامة، من القوي المغتر. من حصن سره، أمن ضرر ذلك.

المشاورة، أوثق ظهير، بإجالة الرأي، تظفر بالحزم، أكثر محادثة، من يصدقك عن عيوبك، أكمل النصحاء، من لم يكتم صاحبه نصيحة، وإن استقله، كثرة أعوان السوء، مضرة بالعمل، من ترك رأي ذي النصيحة، اتباعاً لما يهوى، استوخم العاقبة، لا رأي، لمن انفرد برأيه.

خسر من أنفق حياته في غير حقها. إستصغر المشقة إذا أدت إلى منفعة. بالحزم يتم الظفر. أحسن والدولة (غَلَبة، ما يتداول) لك يحسن إليك والدولة عليك. البصير من عرف ضره من نفعه.

الفكر، مفتاح القلب، القلم، بريد القلب، من قل كلامه، حمد عقله، الدنيا، قد تدرك بالجهل، كما تدرك بالعقل، من حرم العقل، رزئ (فقد) دنياه وآخرته، آفة العقل، العجب، الهم، مرض العقل، أنبل الأشياء قدرا، طاعة

القلب، في اتباع الرشد، وانطلاق اللسان، في وقت الحاجة، لا تخل قلبك من المذاكرة، فيعود عقيما ولا تعف طبعك من المناظرة، فيعود سقيما.

اعتبر عقل الوالي، بإصابته موضع أصحابه. الوالي من وزرائه، بمنزلة الرأس، في أعضائه. من الحق على السلطان، رفع ذي الفضيلة، وأن يسد فاقته. خير الملوك، من يرى أنه لا يضبط ملكه، إلا بالعدل بين رعيته، واضيعهم، الفظ المتهاون. الملك الحازم، من استمسك برأي الحزمة، من ذوي الرأي. لا صلاح لرعية، واليها فاسد. أخوف الأحقاد، أحقاد الملوك. أبصر الوزراء، من بصر صاحبه، عيبه بالأمثال. حلية الملوك، وزراؤهم. فساد الوالي، أضر بالرعية، من جدب الزمان. بالرسول، يعرف قدر المرسل. رفق الرسول، يلين القلب الصعب. الملوك أحوج إلى الكتّاب، من الكتّاب، إلى الملوك.

تعلّموا العلم، فإن كنتم ملوكاً، فقتم، وإن كنتم وسطاً، سدتم، وإن كنتم سوقةً، عشتم.

طوبى لمن ترك دنياه، لآخرته، من ألزم نفسه، ذكر الآخرة، اشتغل بالعمل، من استبعد الآخرة، ركن إلى الدنيا، سرور الدنيا، كأحلام النائم، المغبون، من طلب ثواب الآخرة، في الدنيا. المغبون، من طلب الدنيا، بعمل الآخرة، الآلف للدنيا، مغتر، أهن دنيا بائدة، تستكمل كرامة، أحق ما صان الرجل، أمر دينه.

الإعتراف، يؤدي إلى التوبة، الإصرار، وعاء للذنوب، لا تحمد نفسك، على ما تركت من الذنوب، عجزا.

رأس البر، الورع، أحق الناس بالبر، أعملهم بالعاقبة، عمل البر، خير صاحب، بادر لعمل الخير، إذا أمكنك.

أطلب الرحمة بالرحمة، أنفع الكنوز، العمل الصالح، أحسن العمل الصالح، ما كان بصدق النية، خير الأعمال، ما دبر بالتقوى.

خير مستفاد، الهدى.

***

قد أصبَح النَّاس، إلا قليلًا ممن عَصَم الله، مَدْخُولين منقوصين: فقائلُهم باغ، وسامعهم عيَّاب، وسائلهم متعنت، ومجيبهم متكلف، وواعظهم غيرُ مُحقق لقوله، بالفعل، ومَوْعُوظهم غير سليم، من الهزء والاستخفاف، ومُسْتَشِيرُهم، غير موطن نفسه، على إنفاذ ما يُشار به عليه، ومصطبر (حبس نفسَه ومنعها عن) للحق مما يسمع، ومستشارُهم غير مأمون على الغش، والحسد، وأن يكون مهتاكًا للستر، مُشيعًا للفاحشة، مؤثرًا للهوى، والأمين منهم، غيرُ مُتحفظ، من ائتمان الخونَةِ، والصَّدوق، غير محترس، من حديث الكَذَبَةِ، وذو الدين، غير مُتورع، عن تَفْريط الفَجَرَة، يتقارضون الثناء، ويترقبون الدول، ويعيبون بالهمز، يكادُ أحزمُهم رأيًا، يلفته عن رأيه، أدنى الرِّضا، وأدنى السُّخْط، ويكادُ يكونُ أَمْتَنُهم عُودًا، أنْ تَسْحَرَه الكلمة، وتنكره اللحظة.

وقد ابتليتُ أنْ أكون قائلًا، وابتليتم أن تكونوا سامعين، ولا خير في القول، إلا ما انتُفع به، ولا يُنتفع إلا بالصدق، ولا صدق إلا مع الرَّأي، ولا رأي إلا في موضعه، وعند الحاجة إليه.

وإنَّ خير القائلين، من لم يكن الباطل غايتَه، ثم لزم القصد والصواب، وخير السَّامِعِين، من لم يكُن ذلك منه سُمعة، ولا رياءً، ولم يتخذ ما يسمع عونًا، على دفع الهوى، ولا بُلغة، إلى حاجة دُنيا.

وإن اجتمع للقائل والسَّامع، أن يُرزق القائل، من الناس، مِقَةً (محبة) وقبولًا، على ما يقوله، ويُرْزَق السَّامِعُ، اتعاظًا بما يسمع، في أمر دنياه، وقد صلحت نياتهما في غير ذلك، فعسى ذَلِكَ أن يكون من الخير، الذي يُبَلِّغه الله عباده، ويعجل لهم من حسنة الدُّنيا، ما لا يحرِمُهم من حسنة الآخرة، كما أن المريد بكلامه، أن يُعجب الناس، قد يجتمع عليه حرمان ما طلب، مع سوء النية، وحمل الوزر.

وما اجتمع فيه صلاح الرَّاعي والرَّعية، فكان الرَّاعي، مؤديًا إلى الرعية، حقهم في الرَّد عنهم، والغيظ على عدوهم، والجهاد من وراء بيضتهم، والاختيار لحكامهم، وتولية صلحائهم، والتوسعة عليهم في معايشهم، وإفاضة الأمن فيهم، والمتابعة في الخلق لهم، والعدل في القسمة بينهم، والتقويم لأودهم (إعوجاج)، والأخذ لهم بحقوق الله عز وجل عليهم.

وكانت الرَّعية، مؤدية إلى الراعي، حقه في المودة، والمناصحة والمخالطة، وتَرْكِ المنازعة في أمره، والصبر عند مكروه طاعته، والمعُونة على أنفسهم، والشِّدة على من أَخَلَّ بحقه، وخَالَفَ أمره، غير مُؤثرين في ذلك آباءهم، ولا أبناءهم، ولا لابسين عليه أحدًا، فإذا اجتمع ذلك في الراعي والرَّعية، تم الصَلاحُ، وبنعمة الله، تتم الصالحات.

ثم أن يُصْلِحَ الرَّاعي نَفْسَه، ويُفسد النَّاسَ، ولا قوة للرَّاعي، مع خذلان الرعية، ومُخالفتهم، وزُهْدهم في صلاح أنفسهم، على أن يبلغ ذات نفسه، في صلاحهم، وذلك أعظمُ ما تكون نعمة الله على الوالي، وحجة الله على الرَّعية بواليهم، فبالحري أن يؤخذوا بأعمالهم، وما أخلقهم أن تُصيبهم فتنة، وعذاب أليم.

ثم صلاح الناس وفساد الوالي، فإنَّ لولاة الناس، يدًا في الخير والشر، ومكانًا ليس لأحدٍ، وقد عَرَفناه فيما يعتبر به، أن ألف رجُلٍ كلهم مفسد، وأميرهم مُصْلِحٌ، أقل فسادًا، من ألف رجل، كلهم مصلح، وأميرهم مفسد، والوالي إلى أن يُصْلِح أدبه، الرَّعية، أقربُ من الرَّعية، إلى أن يُصْلِحَ الله بهم، الوالي، وذلك لأنهم لا يستطيعون مُعاتبته، وتقويمه، مع استطالته بالسلطان، والحمية التي تعلوه.

ثم ما اجتمع فيه فسادُ الوالي والرعية، فليس لكم حمدٌ، ومن أشد جهلًا، وأقطع عُذرًا، ممن لم يَعْرِفِ النِّعْمَة، ولم يقبل العافية، وإنَّ المرء ناظر، بإحدى عيون ثلاث، وهما الغاشتان، والصادقة، وهي التي لا تكاد توجد، عين مودة، تريه القبيح حسنًا، وعين شنآن، تُريه الحسن قبيحًا، وعين عدل، تريه حسنها حسنًا، وقبيحها قبيحًا.

***

البلاغة الإيجاز، وهكذا مذاهب العرب، وعاداتهم في العبارة، يميلون إلى أن تكون الألفاظ، أقل من المعاني في المقدار، والكثرة.

***

البلاغة، اسمٌ جَامِعٌ، لمعانٍ، تجري في وجوه كثيرة: فمنها ما يكون في السكوت، ومنها ما يكون في الاستماع، ومنها ما يكون في الاشارة، ومنها ما يكون في الحديث، ومنها ما يكون في الاحتجاج، ومنها ما يكون شعرا، ومنها ما يكون سَجعاً وخُطباً، ومنها ما يكون رَسَائلَ، ومنها ما يكون ابتداء، ومنها ما يكون جوابا، فغاية هذه الأبواب، الوحيُ (ما تلقيه إلى غيرك ليعلمه) فيها، والإشارة إلى المعنى، والإيجاز، هو البلاغة.

وكما أنّ خير أبيات الشعر، البيت، الذي إذا سمعت صدره، عرفت قافيته، فإنه لا خير في كلام، لا يدلّ على معناك، ولا يشير إلى مغزاك، وإلى العمود (عمودُ الأَمر: قِوامُهُ الذي لا يستقيم إلا به) الذي إليه قصدت، والغرض الذي إليه نزعت.

***

لا ينقص الله عددك، ولا ينزع عنك نعمته، التي ألبسك، وأحسن العوض لك، وجعل لك خيراً مما رزأك به، وما أعطاك، خيراً مما قبض منك.

***

أعظم الله أجرك، في كل مصيبة، وأوزعك الشكر، على كل نعمة. إعرف لله حقه، واعتصم بما أمر به من الصبر، تظفر بما وعد، من عظيم الأجر.

الأدب الصغير

بسم الله الرحمن الرحيم

أمَّا بعد، فإنَّ لكل مخلوق حاجةً، ولكل حاجة غاية، ولكل غاية سبيلًا.

والله وَقَّتَ للأمور أقدارَها، وهيأ إلى الغايات سُبُلها، وسبَّب الحاجات ببلاغها.

فغايةُ الناس وحاجاتُهم، صلاح المعاش والمعاد(الآخرة)، والسبيل إلى دركها، العقلُ الصحيح، وأمارَةُ (علامة) صحة العقل، اختيارُ الأمور بالبصر، وتنفيذ البصر بالعزم (العلم).

وللعقول سجياتٌ (طبائع) وغرائزُ، بها تقبل الأدب، وبالأدب، تنمي العقول وتزكو.

فكما أن الحبة المدفونة في الأرض، لا تقدر على أن تخلع يُبْسها، وتُظهر قوتها، وتطلع فوق الأرض، بزهرتها وريعها (راع: نما وزاد وظهر طلعه وثمره)، ونضرتها ونمائها، إلا بمعونة الماء، الذي يغور إليها في مستودعها، فيُذهب عنها أذى اليبس والموت، ويُحدث لها بإذن الله، القوة والحياة، فكذلك سليقة (سجية) العقل، مكنونةٌ في مغرزها من القلب، لا قوة لها، ولا حياة بها، ولا منفعة عندها، حتى يعتملها الأدبُ، الذي هو ثمارها، وحياتها، ولقاحها.

وجل الأدب بالمنطق، وجل المنطق بالتعلم، ليس منه حرف من حروف معجمه، ولا اسم من أنواع أسمائه، إلا وهو مروي متعلم، مأخوذ عن إمام سابق، من كلام، أو كتاب، وذلك دليل، على أن الناس، لم يبتدعوا أصولها، ولم يأتهم علمها، إلا من قبل العليم الحكيم.

فإذ خرج الناسُ، من أنْ يكون لهم عملٌ أصيلٌ، وأن يقولوا قولًا بديعًا، فليعلم الواصفون المخبئون، أن أحدهم، وإن أحْسَنَ وأبلغ، ليس زائدًا، على أن يكون، كصاحب فصوص (ما يُركّب في الخاتم من الأحجار الكريمة)، وجد ياقوتًا، وزبرجدًا، ومرجانًا، فنظمه، قلائدَ، وسُمُوطًا (قلادة من خرز أو نحوه منظوم في خيط واحد) وأكاليلَ، ووضع كل فص، موضعه، وجمعَ إلى كل لون، شَبَهَه، وما يزيده بذلك حسنًا، فسُمِّي بذلك صانعًا رفيقًا، وكصاغة الذهب والفضة، صنعوا منها، ما يُعْجب الناس، من الحلي والآنية، وكالنحل، وجدت ثمراتٍ، أخْرَجَها الله طيبة، وسلكت سبلًا، جعلها الله ذللًا، فصار ذلك، شفاء وطعامًا، وشرابًا منسوبًا إليها، مذكورًا به أمرها، وصَنعتها.

فمن جرى على لسانه، كلامٌ يستحسنه، أو يُستحسن منه، فلا يعجبن، إعجاب المخترع المبتدع، فإنه إنما اجتناه، كما وصفنا.

ومن أخذ كلامًا، حسنًا عن غيره، فتكلم به في موضعه، وعلى وجهه، فلا تَرَيَنّ (يقع) عليه في ذلك ضؤولة (ضعفا ونقصا، تضاءل الرجل)، فإنَّه مَنْ أُعينَ، على حفظ قول المصيبين، وهُدي للاقتداء بالصالحين، ووُفق للأخذ عن الحكماء، فلا عليه أن يزداد، فقد بلغ الغاية، وليس بناقصه في رأيه، ولا غامطه (ناكره) من حقه، أن لا يكون، هو استحدث ذلك وسبق إليه.

وإنما إحياء العقل، الذي يتم به ويستحكم، خصال سبع: الإيثار (تَفْضِيل الْمَرْء غَيره على نَفسه) بالمحبة، والمبالغة في الطلب، والتثبت في الاختيار، والاعتقاد للخير، وحسن الوعي، والتعهد لما اختير واعتقد، ووضع ذلك، موضعه قولًا وعملًا.

أما المحبة، فإنها تبلغ المرء، مبلغ الفضل في كل شيء، من أمر الدنيا والآخرة، حين يؤثر بمحبته، فلا يكون شيء، أمرأ (أنفَع)، ولا أحلى عنده منه.

وأما الطلب، فإن الناس، لا يغنيهم حبهم ما يحبون، وهواهم ما يهوون، عن طلبه وابتغائه، ولا تُدْرَك لهم بُغْيَتُهُمْ (الضالة المبغية)، ونَفَاسَتُهَا (ذُو

قِيمَةٍ ورفع) في أنفسهم، دون الجد والعمل.

وأما التَثَبُّتْ والتَخَيُّرْ، فإن الطلب، لا ينفع إلا معه وبه، فكم من طالب رُشْدٍ، وَجَدَهُ والغَيَّ معًا، فاصطفى منهما، الذي منه هرب، وألغى، الذي إليه سعى، فإذا كان الطالب، يحوي غير ما يريد، وهو لا يشك في الظفر، فما أحقه، بشدة التبيين، وحسن الابتغاء.

وأما اعتقادُ الشيء بعد استبانته، فهو ما يُطلب، من إحراز الفضل بعد معرفته.

وأمَّا الحفظُ والتَّعَهُّدُ، فهو تمام الدَّرْكِ، لأن الإنسان، مُوَكَّلٌ به النسيانُ والغفلة، فلا بُدَّ له، إذا اجتبى صواب قولٍ أو فعل، من أن يحفظه عليه ذهنُه، لأوانِ حاجته.

وأمَّا البصر بالموضع، فإنما تصير المنافع كلها، إلى وضع الأشياء مواضعها، وبنا إلى هذا كله، حاجة شديدة. فإنّا، لم نوضع في الدنيا موضع غنًى وخفض (في خَفْض من العيش: في سعة وراحة)، ولكن بموضع فاقة وكد، ولسنا إلى ما يُمسك أرماقنا (بقية الروح أو الحياة)، من المأكل والمشرب، بأحوجَ منا، إلى ما يُثبت عقولنا، من الأدب، الذي به تَفاوُتُ العُقُول. وليس غذاء الطعام، بأسرع في نبات الجسد، من غذاء الأدب، في نبات العقل، ولسنا بالكد في طلب المتاع، الذي يُلتمس به، دفع الضرر والغلبة، بأحقَّ منا، بالكد في طلب العلم، الذي يُلتمس به، صلاح الدين والدنيا.

وقد وضعتُ في هذا الكتاب، من كلام الناس المحفوظ، حروفًا، فيها عونٌ على عمارة القلوب وصقالها (صقل: أَزَالَ صَدَأ، هَذَّبَ، اِعْتَنَى بِتَرْبِيَة، منح خبرة)، وتجلية أبصارها، وإحياءٌ للتفكير، وإقامة للتدبير، ودليل، على محامد الأمور، ومكارم الأخلاق، إن شاء الله.

الواصفون، أكثر من العارفين، والعارفون، أكثر من الفاعلين.

فلينظر امرؤ، أين يضع نفسه، فإن لكل امرئ، لم تدخل عليه آفةٌ، نصيبًا من اللب (العقل) يعيش به، لا يُحِبُّ، أن له به من الدنيا ثمنًا. وليس كل ذي نصيب، من اللب، بمستوجب، أن يُسمَّى في ذوي الألباب، ولا أن يوصف بصفاتهم.

فمَنْ رَامَ (رغِب)، أنْ يَجْعَل نفسه، لذلك الاسم والوصف أهلًا، فليأخذْ له عتاده، وليُعدَّ له طول أيامه، وليؤْثِرْهُ، على أهوائه، فإنه، قد رام أمرًا جسيمًا، لا يصلح على الغفلة، ولا يُدْرَك بالْمَعْجِزَة (الضعف)، ولا يصير على الأثَرَة (المَنْزِلة). وليس كسائر أمور الدنيا، وسلطانها، ومالها وزينتها، التي قد يُدْرِك منها المتواني، ما يفوت المثابر، ويصيب منها العاجز، ما يخطئ الحازم، وليَعلم، أن على العاقلِ أمورًا، إذا ضيعها، حكم عليه عقلُه، بمقارنة الجهال.

فعلى العاقل، أن يعلم، أن النَّاس مُشركون مستوُون، في الحب لما يُوَافِقُ، والبغض لما يؤذي، وأن هذه منزلةٌ، اتفق عليها، الحمقى والأكياس (كَيْس: فِطنة وعقل، حُسْن التَّأنّي في الأمور)، ثم اختلفوا بعدها، في ثلاث خصال، هن جِماعُ (ما جَمَع عَدَدًا، هذا الكتاب جِماع مقالات كثيرة) الصواب، وجِماع الخَطَإ، وعندهن، تَفَرَّقَت العُلماء والجهال، والحزْمة (ضبط أمره وأتقنه وأخذ فيه بالثقة) والعجزة.

ومن ذلك، أَنَّ العاقل، ينظر فيما يُؤذيه، وفيما يَسُرُّه، فيعلم، أن أحق ذلك بالطَّلب، إن كان مما يُحَبُّ، وأحقه بالاتقاء، إن كان مما يُكْرَه، أطوله، وأدومه، وأبقاه، فإذا هو، قد أبصر فضل الآخرة على الدنيا، وفضل سرور المروءة، على لذة الهوى، وفضل الرأي الجامع، الذي تصلح به الأنفس والأعقاب، على حاضر الرأي، الذي يستمتع به قليلًا، ثم يضمحل، وفضل الأكلات، على الأكلة، والساعات على الساعة.

ومن ذلك، أن ينظر، فيما يؤثر من ذلك، فيضع الرَّجاء والخوف فيه مَوْضِعَهُ، فلا يجعل اتقاءه، لغير المخوف، ولا رجاءَه، في غير المدرَك، فيَتوقى عاجلَ اللذات، طلبًا لآجلها، ويحتمل قريبَ الأذى، توقيًا لبعيده،

فإذا صار إلى العاقبة، بَدَا له، أن فراره كان تورطًا (وَقَعَ فِيهِ وَلَمْ يَسْتَطِعِ النَّجَاةَ)، وأن طلبه، كان تنكبًا (التَّنَكُّبُ عَنِ الشَّيْءِ: العُدُولُ، التَّنَحِّي).

ومن ذلك، هو تنفيذ (مُبَاشَرَة) البصر(العلم) بالعَزْمِ، بعد المعرفة، بفضل الذي هو أدْوَمُ (دائِمَ)، وبعد التثبُّت، في مواضع الرجاء والخوف، فإن طالب الفضل، بغير بصر، تائهٌ حيران، ومبصر الفضل، بغير عزم، ذو زَمَانَةٍ (مرض يَدُوم) محرومٌ.

وعلى العاقل، مُخَاصمة نفسه، ومحاسبتها، والقضاء (العدالة) عليها، والإثابة (أثاب: كافأ وجازى) والتنكيل بها.

أمَّا المحاسبة، فيحاسبها بما لها، فإنَّه لا مالَ لها، إلا أيَّامُها المعدودة، التي ما ذهب منها، لم يُستخلف، كما تُستخلف النفقة، وما جعل منها في الباطل، لم يَرْجِعْ إلى الحق، فيتنبه لهذه المحاسبة، عند الحَوْلِ (سنة كاملة) إذا حال (أي عند العام إذا مضى)، والشهر إذا انقضى، واليوم إذا ولى، فينظر، فيما أفنى من ذلك، وما كسب لنفسه، وما اكتسب عليها، في أمر الدين، وأمر الدنيا، فيجمع ذلك في كتاب، فيه إحصاءٌ وجدٌّ (رصانة واجتهاد)، وتذكير للأمور، وتبكيت (تأْنِيب) للنفس، وتذليل لها، حتى تعترف وتُذعن.

وأمَّا الخصومة، فإن من طباع النفس، الآمرة بالسوء، أن تَدّعي المعاذير، فيما مضى، والأماني، فيما بقي، فيَرُدَّ عليها معاذيرَها، وعِلَلَهَا، وشبُهاتِها (ما الْتبس أَمرُه).

وأمَّا القضاء، فإنه يحكم فيما أرادت من ذلك، على السيئة، بأنها فاضحةٌ، مُرديةٌ موبقةٌ (مَهْلِكة)، وللحسنة، بأنها زائنةٌ، منجيةٌ مربحة.

وأمَّا الإثابة والتنكيل، فإنه يَسُرُّ نَفْسَه، بتذكر تلك الحسنات، ورجاء عواقبها، وتأميل فضلها، ويُعَاقِبُ نفسه، بالتذكر للسيئات، والتبشع بها، والاقشعرار منها، والحزن لها.

فأفضل ذوي الألباب، أشدُّهم لنفسه بهذا أخذًا، وأقلهم عنها فيه فَتْرَةً (إغفالا وضعفا وانكسارا).

وعلى العاقل، أنْ يذكرَ الموت في كل يوم وليلة مرارًا، ذكرًا، يُباشر (يتولّى) القلوب، ويقذع (يمنع) الطماح (الفخر، الكبر)، فإنَّ في كثرة ذِكْرِ الموت، عصمةً من الأشَر (الأكثر سوءًا وفسادًا)، وأمانًا بإذن الله، من الهلع.

وعلى العاقل، أن يُحْصِيَ على نفسه، مساويها في الدين، وفي الرأي، وفي الأخلاق، وفي الآداب، فيجمع ذلك كله في صدره، أو في كتاب، ثم يُكثر عَرْضه على نفسه، ويكلفها إصلاحه، ويُوَظِّفُ ذلك عليها توظيفًا، من إصلاح الخلة، والخلتين والخلال، في اليوم، أو الجمعة أو الشهر.

فكلما أصلح شيئًا، محاه، وكلما نظر إلى محو استبشر، وكلما نظر إلى ثابتٍ اكْتأَبَ.

وعلى العاقل، أن يتفقد محاسنَ النَّاس، ويحفظها على نفسه، ويتعهدها بذلك، مثلَ الذي وصفنا، في إصلاح المساوي.

وعلى العاقل، أن لا يُخَادن (خادن فلانًا: صادقه وصاحبه في أموره ظاهرها وباطنها)، ولا يُصَاحب، ولا يجاور من الناس، ما استطاع، إلا ذا فضل في الدين، والعلم والأخلاق، فيأخذ عنه، أو مُوافقًا له على إصلاح ذلك، فيؤيد ما عنده، وإن لم يكن، له عليه فضلٌ.

فإن الخصال الصالحة من البر، لا تحيا ولا تنمَى، إلا بالموافقين والمؤيدين، وليس لذي الفضل، قريب ولا حميم، أقرب إليه، ممن وافقه، على صَالح الخصَال، فزاده وثَبَّتَه.

ولذلك، زعم بعض الأولين، أن صُحبة بليدٍ، نشأ مع العُلماء، أحب إليهم، من صحبة لبيب، نشأ مع الجهال.

وعلى العاقِلِ، أن لَا يَحْزَنَ على شيء، فاته من الدنيا أو تولى، وأن يُنْزِلَ ما أصابه من ذلك، ثم انقطع عنه، مَنْزِلةَ ما لم يُصِب، ويُنْزِل ما طلب من ذلك، ثم لم يدركه، منزلة ما لم يطلب، ولا يدع حظه من السرور، بما أقبل منها، ولا يبلغن ذلك سُكْرًا ولا طغيانًا، فإن مع السكر النسيان، ومع الطغيان التهاوُن، ومن نسِيَ وتهاون خسر.

وعلى العاقل، أن يؤنس ذوي الألباب بنفسه، ويجرئهم عليها، حتى يصيروا، حرسًا على سمعه وبصره ورأيه، فيستنيم (إستقر، سكن) إلى ذلك، ويُريح له قلبه، ويعلم، أنهم لا يغفلون عنه، إذا هو غفل عن نفسه.

وعلى العاقل، ما لم يكن مغلوبًا على نَفْسِهِ، أن لا يشغله شُغلٌ، عن أربع ساعات: ساعة، يرفع فيها حاجته إلى ربه، وساعة، يُحاسب فيها نفسَهُ، وساعة، يفضي فيها إلى إخوانه وثقاته، الذين يصْدُقونه عن عيوبه، وينصحونه في أمره، وساعة، يُخلي فيها بين نفسه، وبين لذتها، مما يحِلُّ ويَجْمُلُ، فإن هذه الساعة، عوْنٌ على الساعات الأُخَرِ، وإن استجمام القلوب وتوديعها (وَدَعَ: صان، حفظ)، زيادةٌ قوة لها، وفَضْلٌ بُلْغَةٍ.

وعلى العاقل، أن لا يكون راغبًا، إلا في إحدى ثلاث: تَزَوُّدٍ لِمَعَادٍ (الآخرة)، أو مَرَمَّةٍ (مَتَاع، إصلاح) لِمَعاشٍ، أو لذة، في غير مَحْرَّم.

وعلى العاقل أنْ يجعل الناس، طبقتين متباينتين، ويلبس لهم، لباسين مختلفين.

فطبقةٌ من العامة، يلبس لهم، لباس انقباض وانحجاز، وتحفُّظ في كل كلمة وخطوة.

وطبقة من الخاصة، يخلع عندهم، لباس التشدُّد، ويلبس لباس الأنسة، واللطفة والبذلة والمفاوضة، ولا يدخل في هذه الطبقة، إلا واحدٌ من ألف، وكُلُّهم ذو فضل في الرأي، وثقة في المودة، وأمانة في السر، ووفاء بالإخاء.

وعلى العاقل، أن لا يستصغر شيئًا، من الخطأ في الرَّأي، والزلل في العلم، والإغفال في الأمور، فإنَّ من استصغر الصغير، أوشك أن يجمع إليه صغيرًا وصغيرًا، فإذا الصغير كبير، وإنما هي ثُلَمٌ (شَقٌّ أو جرحٌ)، يَثْلِمُهَا العجز والتضييع، فإذا لم تُسَد، أوشكت أن تنفجر بما لا يُطاق.

ولم نرَ شيئًا قطٌّ، إلا قد أُتِيَ، من قبل الصغير المتهاون به، وقد رأينا الملك يُؤْتَى، من قِبل العدو المحتقَر به، ورأينا الصحة تؤتى، من الداء الذي لا يُحفل به، ورأينا الأنهار تنبثق، من الجدول الذي يُستخف به.

وأقلُّ الأمور احتمالًا للضياع، المُلك، لأنه ليس شيء يضيع، وإن كان صغيرًا، إلا اتصل بآخرَ، يكون عظيمًا.

وعلى العاقل، أن يجبن عن المضي، على الرأي، الذي لا يجد عليه موافقًا، وإن ظن، أنه على اليقين.

وعلى العاقل، أن يعرف، أن الرأيَ والهوى، متعاديان، وأن من شَأنِ النَّاس، تسويف (الْمُمَاطَلَة) الرأي، وإسعاف الهوى، فيُخَالف ذَلك، ويلتمس، أَلّا يزال هواه مُسَوَّفًا، ورأيه مسعفًا.

وعلى العاقل، إذا اشتبه عليه أمْرَان، فلم يَدْرِ، في أيِّهما الصواب، أن ينظر أهواهما عنده، فيحذره.

ومن نصب نفسه للناس، إمامًا في الدين، فعليه أن يبدأ بتعليم نفسه، وتقويمها في السيرة (سلوك، ذا سيرة حسنة) والطُّعْمَةِ (الرزق، مكْسب)، والرأي واللفظ والأخدان (أخلاء، أصدقاء)، فيكون تعليمُه بسيرته، أبلغَ من تعليمه بلسانه، فإنه كما أن كلام الحكمة، يونق (يعجب) الأسماع، فكذلك عملُ الحكمة، يروق (يعجب) العيون والقلوب، ومُعَلِّم نفسه ومؤدبها، أحقُّ بالإجلال والتفضيل، من معلم الناس، ومؤدبهم.

وولاية الناس، بلاءٌ عظيم، وعلى الوالي، أربعُ خصال، هي أعمدةُ السلطان، وأركانُه التي بها يقوم، وعليها يثبُت: الاجتهادُ في التَخيُّر(تخيَّر:

اختار)، والمبالغة في التقدُّم (التحسن، التدرج) ، والتعهُّد (وعد يأخذ على التزام أمر من الأمور) الشديد، والجزاء العتيد.

فأمَّا التخيُّر للعُمال والوزراء، فإنَّه نظامُ الأمر، ووضْع مؤونة (ذَخِيرَة، عُدَّة، قُوة) البعيد المنتشر، فإنه عسى أنْ يكون بتخيره، رجلًا واحدًا، قد اختار ألفًا، لأنه، من كان من العمال خِيَارًا (منتقى، أفضله)، فسيختار كما اختير. ولعل عمال العامل، وعمال عُمَّاله، يبلغون عددًا كثيرًا، فمَنْ تبيَّن التخيُّر، فقد أخذ بسبب وثيق، ومَن أسس أمره، على غير ذلك، لم يجِدْ لبنيانه قوامًا.

وأمَّا التقديمُ والتوكيد، فإنه ليس كل ذي لب، أو ذي أمانة، يعرف وُجُوه الأمور والأعمال، ولو كان بذلك عارفًا، لم يكن صاحبه، حقيقًا أن يكلَ (أوكلَ) ذلك إلى علمه، دون توقيفه (عاين، أدرك، فهم وتبيّن) عليه، وتبيينه له، والاحتجاج عليه به.

وأمَّا التعهُّدُ، فإن الوالي، إذا فعل ذلك، كان سميعًا بصيرًا، وإنَّ العامل، إذا فعل ذلك به، كان متحصنًا حريزًا.

وأمَّا الجزاء، فإنه تثبيت المحسن، والرَّاحة من المسيء.

ولا يُستطاع السُّلطان، إلا بالوزراء والأعوان، ولا ينفع الوزراء، إلا بالمودة والنصيحة، ولا المودة، إلا مع الرأي والعفاف.

وأعمالُ السُّلطان كثيرةٌ، وقلَّيل ما تُستجمع الخصال المحمودة، عند أحدٍ.

وإنما الوجه في ذلك، والسبيل الذي به يستقيم العمل، أن يكون صاحب السلطان، عالمًا بأمور مَن يُريد الاستعانة به، وما عندَ كل رَجُلٍ، من الرأي والغناء، وما فيه من العُيوب.

فإذا استقرَّ ذلك عنده، عن علمه وعلم من يأتمن، وجَّه لكُل عملٍ، مَن قد عرف، أن عنده من الرأي والنَّجدة والأمانة، ما يحتاج إليه فيه، وأن ما فيه

من العيوب، لا يضر بذلك، ويتحفظ، من أن يُوجه أحدًا، وجهًا لا يُحتاج فيه إلى مروءة، إن كانت عنده، ولا يَأْمَنُ عُيُوبَه، وما يُكْره منه.

ثم على الملوك، بعد ذلك، تعهُّد عمالهم، وتفقُّد أمورهم، حتى لا يخفى عليهم، إحسانُ محسن، ولا إساءة مسيء.

ثم عليهم بعد ذلك، أن لَّا يتركوا محسنًا، بغير جزاء، ولا يُقرُّوا مسيئًا، ولا عاجزًا، على الإساءة والعجز، فإنهم إنْ تركوا ذلك، تهاون المحسن، واجترأ المسيء، وفسد الأمْرُ، وضاعَ العمل.

واقتصارُ (نقصان) السَّعي، إبقاءٌ للجِمَام (الرَّاحَة)، وفي بُعد الهمَّة، يكون النَّصَبُ (كدٌّ وكفاح)، ومن سأل فوقَ قدرته، استحق الحرمان، وسوءُ حَمْلِ الغِنَى، أن يكون عند الفرح مَرِحًا (مختالا فخورا متكبرا)، وسوء حمل الفاقة (الفَقْر)، أن يكون عند الطلب شرهًا، وعار الفقر، أهونُ من عار الغنى، والحاجةُ مع المحبة، خيرٌ من الغنى مع البغضة.

والدُّنيا دَوْلَةٌ (انقِلابُ الزَّمان)، فما كان لك منها، أَتاك على ضَعْفِك، وما كان عليك، لم تدفعْه بقوَّتك.

وإذا جُعل الكلام مثلًا، كان ذلك أوضحَ للمَنْطِق، وأَبْيَنَ في المعنى، وآنَقَ (أحسن اختيارَ) للسَّمع، وأوسع لشعوب الحديث.

وأشدُّ الفاقة، عدمُ العقل، وأشدُّ الوَحْدَةِ، وَحْدَةُ اللَّجُوجِ (كَثِيرُ الإلْحَاحِ)، ولا مَالَ، أفضل من العقل، ولا أنِيسَ، آنَسُ (لم ينفر) من الاستشارة.

ومما يُعتبر به، صلاحُ الصالح، وحسن نظره للنَّاس، أنْ يكون، إذا استعتبَ المذنب، ستورًا، لا يُشيعُ ولا يُذيعُ، وإذا استُشِيرَ، سَمْحًا (فيه يسر وسهولة) بالنَّصيحة، مُجتهِدًا للرأي، وإذا استشار، مطرحًا (أَلْقَى) للحياء، منفذا للحزم، معترفًا للحق.

والْقَسْمُ (قسَم اللهُ الرِّزقَ: وزّعه وأعطى) الذي يُقْسَم للناس، ويمتعون به، نحوان: فمنه حارسٌ، ومنه محروسٌ. فالحارس، العقل، والمحروس، المال.

والعقل بإذن الله، هو الذي يُحرز الحظ، ويُؤنس الغُربة، ويَنْفِي الفاقة، ويُعَّرِفُ النَّكِرَة، ويُشمّرُ (يقوي) المَكْسَبَةَ، ويُطيب الثمرة، ويُوجِّه السُّوقة (عامّة النَّاس) عند السلطان، ويستنزل للسلطان، نصيحة السوقة، ويكسب الصديق، ويكفي العدو.

وكلام اللبيب، وإن كان نزرًا (قليل)، أدبٌ عظيم، ومقارفةُ (قرَف الذَّنبَ: أتاهُ) المَأثَمِ، وإنْ كان محتقرًا، مصيبةٌ جليلة، ولقاء الإخوان، وإن كان يسيرًا، غُنْمٌ (فوز) حسن.

وقد يسعى إلى أبواب السلطان، أجناسٌ من الناس كثيرٌ، أمَّا الصالح، فمدعو، وأمَّا الطالح، فمقتحِم، وأما ذو الأدب، فطالبٌ، وأمَّا من لا أَدَبَ له، فمختلس، وأمَّا القوي، فمدافع، وأمَّا الضعيف، فمدفوع، وأما المحسن، فمستثيب، وأما المسيء، فمستجير، فهو مَجْمَع البَرِّ والفاجر، والعالم والجاهل، والشريف والوضيع.

والناس إلا قليلًا ممن عصم الله، مدْخُولونَ (الَّذِي دَخَلَ عَقْلَهُ أَو جَسَدَهُ فَسَادٌ) في أمورهم، فقائلُهم باغٍ، وسامعُهم عيَّاب، وسائلُهم متعنت، ومُجيبُهم متكلف، وواعظهم، غير محقق لقوله بالفعل، وموعُوظهم، غير سليم من الاستخفاف، والأمين منهم، غير متحفظ من إتيان الخيانة، وذو الصِّدق، غير محترس، من حديث الكَذَبَةَ، وذو الدين، غير متورع، (تورَّع الشَّخْصُ من الأمر: تجنَّب الإثمَ فيه) عن تفريط (الإكْثَار) الفَجَرة، والحازم منهم، غير تارك لتوقُّع الدوائر، يتناقضون (أفسَده بعد إحكامِه) البِنَاء، ويترقبون الدول (انقِلابُ الزَّمان)، ويتعاطون القبيح، ويتعايبون بالهمز، مولعون في الرَّخاء بالتحاسُد، وفي الشدة بالتخاذُل.

كم قد انتُزِعَت الدُّنيا، ممن قد استَمْكَن منها، واعتكفت له، فأصبحت الأعمالُ أعمالَهم، والدنيا دنيا غيرهم، وأخذ متاعَهم، من لم يَحمدهم،

وخرجوا إلى من لا يعذرهم، فأصبحنا خلفًا من بعدهم، نتوقّع مثل الذي نزل بهم، فنحن إذا تدبرنا أمورَهم، أحقاءُ، أنْ نَنظر ما نَغْبِطُهُمْ (غبَط فلانًا: تمنّى مثلَ ما لَه من النعمة من غير أن يحسدَه أو يريدَ زوالَها عنه) به، فنَتّبِعَهُ، وما نخاف عليهم منه، فنجتنبه.

الدنيا زُخرُفٌ، يغلب الجوارحَ، ما لم تغلبه الألباب، والحكيمُ، من يُغضِي عنه، ولم يشغل به قلبَه، اطَّلَعَ من أدناه، فيما وراءه، وذكر في بدئه، لواحقَ شره، فأكل مُرَّه، وشَرِبَ كَدِرَهُ، لِيَحْلَوْلِيَ (يحلو) له ويصْفُوَ، في طُولٍ، من إقامة العيش، الذي يبقى ويَدُومُ، غير عائِفٍ (المتكهن بالطير) لِلرَّشَدِ، إن لم يلقه بِرِضَاه، ولم يأتِهِ، من طريق هواه.

لا تألف المستوخَمَ (الثقيل) المُسْتَوْهِم، ولا تُقِم على غير الثِّقة.

وقد بلغ فَضْلُ الله على الناس من السعة، وبلغتْ نعمته عليهم، من السبوغ (سَبَغتِ النِّعْمَةُ: تمَّت واتّسَعَت، سبغ العيشُ: كان رغدًا)، ما لو أن أخسَّهم حظًّا، وأقلهم منه نصيبًا، وأضعفهم عِلمًا، وأعجزهم عملًا، وأعياهم (عَجَزَ عَنْ إِحْكَامِهِ) لسانًا، بلغ من الشكر له، والثناء عليه، بما خلص إليه من فضله، ووصل إليه من نعمته، ما بلغ له منه أعظمهم حظًّا، وأوفرهم نصيبًا، وأفضلهم علمًا، وأقواهم عملًا، وأبسطهم لسانًا، لكان عما استوجب الله عليه مقصرًا، وعن بلوغ غاية الشكر بعيدًا.

ومَن أخذ بحظه، من شكر الله، وحمده ومعرفة نعمه، والثناء عليه، والتحميد له، فقد استوجب بذلك، من أدائه إلى الله، القربة عنده، والوسيلة إليه، والمزيد، فيما شكَرَه عليه، من خيرَ الدنيا، وحسن ثواب الآخرة.

وأفضلُ، ما يُعلَمُ به عِلْمُ ذي العلم، وصلاحُ ذي الصَّلاح، أن يَسْتَصْلِحَ بما أوتي من ذلك، من استطاع من النَّاس، ويُرغبهم، فيما رغب فيه لنفسه، من حُبِّ الله، وحُبِّ حكمته، والعمل بطاعته، والرجاء لحسن ثوابه، في

المعاد إليه، وأن يبين الذي لهم، من الأخذ بذلك، والذي عليهم، في تركه، وأن يورث ذلك أهله، ومعارفه، ليلحقه أجره، من بعد الموت.

والدِّين، أفضل المواهب، التي وصلت من الله تعالى إلى خلقه، وأعظمها منفعة، وأحمدُها في كُلِّ حكمة، فقد بلغ فضل الدين والحكمة، أن مُدِحَا على ألسنة الجهال، على جهالتهم بهما، وعَمَاهمْ عنهما.

وأحقُّ النَّاسِ بالسُّلطان، أهل المعرفة، وأحقهم بالتدبير، العُلماء، وأحقُّهم بالفضل، أعْوَدُهُمْ على الناس بفضله، وأحقُّهم بالعلم، أحسنهم تأديبًا، وأحقُّهم بالغنى، أهلُ الجود، وأقربُهم إلى الله، أنفذهم في الحق علمًا، وأكملهم به عملًا، وأحكمُهم، أبعدُهم من الشَّك في الله تعالى، وأصوبُهم رجاء، أوثقُهم بالله، وأشدهم انتفاعًا بعلمه، أبعدُهم من الأذى، وأرضاهم في النَّاس، أفشاهم معروفًا، وأقواهم، أحسنُهم مَعُونة، وأشجَعُهم، أشَدُّهم على الشيطان، وأفْلَجُهُمْ (أغلبهم، أظهرهم) بالحُجَّة، أغلبهم للشهوة والحرص، وآخَذُهُم بالرأي، أَتْرَكُهم للهوى، وأحقهم بالمودة، أشدهم لنفسه حبا، وأجودهم، أصوبهم بالعطيَّة مَوْضعًا، وأطولُهم راحة، أحسنهم للأمور احتمالًا، وأقلهم دهشًا (تحيَّر وذهب عقلُه من وَلَهٍ أو فَزَعٍ أو حياءٍ)، أرحبهم ذراعًا (واسع القوة والبطش)، وأوسعهم غنًى، أقنعهم بما أوتي، وأخفضهم عيشًا (خفَض عيشُه: سهُل ولان وتيَّسر)، أبعدهم من الإفراط، وأظهرهم جمالًا، أَظهَرُهم حصافة (حصُف الشَّخصُ: استحكم عقلُه وجاد رأيُه)، وآمَنُهُمْ في الناس، أكَلُّهُمْ (أكثرهم) نابًا (توبة) ومِخْلَبًا (تعلقا)، وأثبتهم شهادة عليهم، أنطقهم عنهم، وأعدَلُهم فيهم، أدومُهم مسالمة لهم، وأحقهم بالنعم، أشكرهم لِما أوتي منها.

وأفضل ما يُورث الآباء الأبناء، الثناء الحسن، والأدب النافع، والإخوان الصالحون.

وفصْلُ ما بين الدِّين والرَّأي، أن الدين، يَسْلَمُ بالإيمان، وأن الرأي، يثبت بالخصومة (الجدل)، فمَن جعل الدين خُصُومةً، فقد جعل الدين رأيًا، ومن

جعل الرأي دينا، فقد صار شَارِعًا، ومَن كان، هو يُشَرِّعُ لنفسه الدين، فلا دين له.

وقد يَشْتَبِه الدِّينُ والرَّأيُ في أماكنَ، لولا تشابُهُهما، لم يحتاجا إلى الفصل.

والعُجْبُ (الزُّهُوّ)، آفة العقل، واللَّجَاجَةُ (التمادي)، قُعُودُ الْهَوَى، والبُخْلُ، لِقَاحُ الحِرْصِ، والمِرَاءُ، فَسَادُ اللسان، والْحَمِيَّةُ، سببُ الجهل، والأَنَفَةُ (عِزَّة وحميَّة)، توْءَمُ السَّفَهِ، والمُنافَسَةُ، أخت العداوة.

وإذا هَمَمْتَ بخير، فبادِرْ هَوَاك، لا يغلبك، وإذا هممت بِشَرٍّ، فَسَوِّفْ هَوَاك، لعلك تظفر، فإن ما مضى من الأيام والساعات على ذلك، هو الغُنمُ.

لا يمنعنك، صِغَرُ شأن امرئ، من اجتناء، ما رأيت من رأيه صوابًا، والاصطفاء، لما رأيتَ من أخلاقه كريمًا، فإنَّ اللؤلؤة الفائقة، لا تُهان، لِهَوان غائصها، الذي استخرجها.

من أبْوَابِ التَّوَفُّق، والتَّوفِيقِ في التعلم، أن يكونَ وَجْه الرَّجُلِ، الذي يتوجه فيه، من العلم والأدب، فيما يوافق طاعة، ويكون له عنده، محملٌ وقبول، فلا يذهب، عناؤه، في غير غَنَاء، ولا تفنى أيامُه، في غير درْكٍ، ولا يستفرغ، نصيبه، فيما لا ينجَعُ فيه، ولا يكون، كرَجُلٍ أَرَادَ أن يَعْمُرَ أرضًا تَهِمَةً (الأَرض المُتَصَوْبة إلى البحر، لا ينبت فيها زرعا)، فغرسها جوزًا ولوزًا، وأرضًا جَلْسًا (الغليظ من الأَرض)، فغرسها نخلًا وموزًا.

العِلمُ، زَيْنٌ لصاحبه في الرَّخاء، ومنجاة له في الشدة.

بالأدب، تَعْمُرُ القُلوبُ، وبالعِلْمِ، تَسْتَحْكِمُ الأحلامُ، والعقلُ الذاتيُّ غيرُ الصّنِيعِ (ما صُنِع) ، كالأرضِ الطيبةِ غيرِ الخرابِ.

مما يدُلُّ، على معرفة الله، وسببُ الإيمان، أنْ يوَكَّلَ بالغَيْبِ، لكُلِّ ظَاهِرٍ من الدُّنيا، صغيرٍ أو كبير، عيْنًا (معاينةً)، فهُوَ يُصَرِّفُه ويحركه.

فمَنْ كان مُعتبرًا، بالجليل من ذلك، فلينظرْ إلى السماء، فسيعلم، أن لها ربًّا، يُجري فلكها، ويُدبر أمرها.

ومن اعتبر بالصغير، فلينظرْ، إلى حبة الخردل، فسيعرف أن لها مدبرًا، يُنبتها ويزكيها، ويقدر لها أقواتها، من الأرض والماء، يُوَقِّت لها زَمان نَبَاتِها، وزَمَان تَهَشُّمها.

ثم اجتماعُ العلماء والجهال، والمهتدين والضُّلال، على ذكر الله تعالى، وتعظيمه، واجتماع، من شَكَّ في الله تعالى، وكذب به، على الإقرار بأنهم، أنشئوا حديثًا، ومعرفتهم، أنهم لم يحدِثوا أنفسهم.

فكل ذلك، يهدي إلى الله، ويدل، على الذي كانت منه هذه الأمور، مع ما يَزيدُ ذلك، يقينًا عند المؤمنين، بأن الله حَقٌّ، ولا يقدر أحدٌ، أن يوقن أنه باطل.

وإنَّ للسُّلْطَانِ المقسط حقًّا، لا يَصلُحُ بخَاصَّة ولا عَامَّة أمْرٌ، إلا بإرادته، فذو اللب حقيقٌ، أن يُخلص لهم النصيحة، ويبذل لهم الطاعة، ويكتم سرهم، ويُزين سيرتهم، ويذُبَّ بلسانه ويده عنهم، ويتوخى مرضاتَهم، ويكون من أمره، المؤاتاة لهم، والإيثار لأهوائهم ورأيهم، على هواه ورأيه، ويُقدر الأمور، على موافقتهم، وإن كان ذلك، له مخالفًا، وأن يكون منه الجِدُّ، في المخالفة لمن جانَبَهم، وجَهِلَ حَقَّهم، ولا يُواصل من النَّاس، إلا من لا تُبَاعد، مواصلته إياه منهم، ولا تحمله، عداوة أحد له، ولا إضرار به، على الاضطغان عليهم، ولا مواتاةُ أحدٍ، على الاستخفاف بشيء، من أمورهم، والانتقاص، لشيء من حقهم، ولا يكتُمَهم شيئًا من نصيحتهم، ولا يتثاقل، عن شيء من طَاعتِهم، ولا يبطر، إذا أكرموه، ولا يجترئ عليهم، إذا قربوه، ولا يَطْغَى، إذا سلَّطُوُه، ولا يُلْحِف (ألَحَّ)، إذا سألهم، ولا يُدْخِلَ عليهم المؤونة (الشدة والثقل)، ولا يستثقل، ما حملوه، ولا يعتز عليهم، إذا رضوا عنه، ولا يتغيّر لهم، إذا سخطوا عليه، وأنْ يَحْمَدَهم، على ما أصاب من خيرٍ منهم، أو من غيرهم، فإنَّه، لا يقدِرُ أحَدٌ، على أن يُصِيبَه بخير، إلا بدِفاعِ (ردٌّ ومنع) الله، عنه، بهم.

ومما يدُلُّ، على علم العالم، معرفته، ما يدرك من الأمور، وإمساكُه، عما لا يدرك، وتزيينُه نفسه بالمكارم، وظهور علمه للناس، من غير أن يظهر منه، فخر ولا عجب، ومعرفته زَمَانِهِ الذي هو فيه، وبصرُه بالناس، وأخذه بالقسط، وإرشادُه المسترشد، وحسن مُخَالقته (خَالَقَ فلانًا: عاشره بخلق حسَن) خُلَطَاءه، وتسويتُه بين قلبه ولسانه، وتحرِّيه العدل، في كُلِّ أمر، ورُحْبُ ذَرْعِهِ فيما نابه، واحتجاجه بالحجج، فيما عمل، وحسن تبصيره.

ومَنْ أراد، أن يَبْصُرَ شيئًا، من عِلْمِ الآخرة، فبالعلم الذي يعرف به ذلك، ومن أراد، أن يبصر شيئًا، من علم الدنيا، فبالأشياء، التي هي تدل عليه.

ليكن المرء سؤولًا (كَثِيرُ السُّؤَالِ)، وليكُنْ فَصُولًا بين الحق والباطل، وليكُن صَدُوقًا، ليؤمن على ما قال، وليكن، ذا عهد، ليُوفَى له بعهده، وليكن شكورًا، ليستوجب الزيادة، وليكن جوادًا، ليكونَ للخير أهلًا، وليكن رحيمًا بالمضرورين، لئلا يبتلى بالضُّر، وليكن ودودًا، لئلا يكون معدنًا لأخلاق الشيطان، وليكنْ حافظًا للسانه، مُقْبلًا على شانه، لئلا يُؤخذ بما لم يجترم، وليكُن متواضعًا، ليُفْرَح له بالخير، ولا يُحْسَد عليه، وليكن قنِعًا، لتقر عينُه بما أوتي، وليُسِرَّ للناس بالخير، لئلا يؤذيه الحسد، وليكن حَذِرًا، لئلا تَطُولَ مخافَتُه، ولا يكونن حقُودًا، لئلا يضر بنَفْسِهِ إضرارًا باقيًا، وليكن ذا حياء، لئلا يُستَذَم للعُلَمَاء، فإنَّ مخافة العالم مذمة العلماء، أشَدُّ من مخافته، عقوبة السلطان.

حياة الشيطان، ترك العلم، وروحه وجسده، الجهل، ومَعْدِنُه، في أهل الحقد والقساوة، ومَثْوَاه، في أهل الغضب، وعيشه، في المصَارَمَة (الهَجر، المقاطعة)، ورجاؤه، في الإصرار على الذنوب.

ولا ينبغي للمَرْءِ، أنْ يَعْتَدَّ (حسبه وظنَّه) بعِلْمِهِ ورَأيه، ما لم يُذاكره ذوو الألباب، ولم يجامعوه عليه، فإنه، لا يُستكمل علم الأشياء، بالعقل الفرد.

أعْدَلُ السِّيَرِ(سلوك)، أن تقيسَ الناسَ بنَفْسِك، فلا تأتي إليهم، إلا ما تَرْضَى، أن يؤتى إليك، وأنفَعُ العقل، أن تُحْسِنَ المعيشة، فيما أوتيتَ من

خير، وأن لا تكترث من الشر، بما لم يصبك، ومن العلم، أن تَعْلَم أنك لا تعلم، بما لا تَعْلَم.

ومن أحسن ذوي العقول عقلًا، مَنْ أحسن تقدير أمر معاشه ومعاده، تقديرًا، لا يفسد عليه واحد منهما، نفاد (اِنْقِضَاء) الآخر، فإن أعياه ذلك، رفض الأدنى، وآثر عليه الأعظم.

والمؤمن بشَيءٍ من الأشْيَاءِ، وإنْ كان سِحْرًا، خَيْرٌ مِمَّن لا يؤمن بشيء، ولا يرجو معادًا.

لا تؤدي التوبة، أحدًا إلى النار، ولا الإصرار على الذنوب، أحدًا إلى الجنة.

ومن أفضل البر ثلاثُ خصال: الصدق في الغضب، والجود في العُسْرَة، والعفو عند المقدرة.

ورأس الذُّنوب، الكذب، هو يُؤَسِّسُها، وهو يتفقَّدُها، ويُثبِّتُها، وهو يتلوَّنُ ثلاثة ألوان: بالأمنية، والجحود، والجدَلَ.

يبدو لصاحبه بالأُمْنِيَة الكاذبة، فيما يُزين له من الشهوات، فيُشَجِّعُه عليها بأن ذلك سيخفى.

فإذا ظهر عليه، قابله بالجحود والمكابرة.

فإن أعياه ذلك، خَتَمَ بالجدل، فَخَاصَمَ عن الباطل، ووضع له الحجج، والتمس به التثبت، وكابر به الحق، حتى يكُونَ مُسَارعًا للضلالة، ومُكَابرًا بالفواحش.

ولا يثبُتُ دينُ المرء، على حالة واحدة أبدًا، ولكنه، لا يزال، إما زائدًا، وإما ناقصًا.

ومن علامات اللئيم المخادِع، أن يكون حَسَنَ القول، سيئ الفعل، بعيد الغضب، قريب الحسد، حَمُولًا للفُحْشِ، مجازيًا بالحقد، مُتكلفًا للجود،

صغيرَ (قَلِيلُ، ضئيل) الْخَطَرِ، مُتوسعًا فيما ليس له، ضيقًا فيما يملك.

وإذا تخالجتْك (تجاذبتك وتنازعتك) الأمُورُ، فاسْتَقِلَّ أعظمها خطرًا، فإنْ لم يستبنْ ذلك، فأرجاها دركًا، فإن اشتبه ذلك، فأجدَرُها، أن لا يكُونَ له مرجوع، حتى تُوَلِّي فُرْصَتُهُ.

والرجال أربعة، اثنان، يختبر ما عندهما بالتجربة، واثنان قد كفيت تجربتهما.

فأمَّا اللذان، يحتاج إلى تجربتهما، فإنَّ أحدهما، بَرٌّ، كَان مع أَبرار، والآخر، فاجرٌ، كان مع فُجَّار، فإنك لا تَدْرِي، لعلَّ البرَّ منهما، إذا خالط الفُجَّار، أن يتبدل، فيصير فاجرًا، ولعل الفَاجِرَ منهما، إذا خالط الأبرار، أن يتبدل برًّا، فيتبدل البر فاجرًا، والفاجر برًّا.

وأما اللذان، قد كُفيت تجربتهما، وتبين لك، ضوء أمرهما، فإن أحدهما، فاجرٌ كان في أبرار، والآخر، بَرٌّ كان في فُجَّار.

حقٌّ على العاقل، أنْ يتخذ مرآتين، فينظر من إحداهما، في مساوئ نفسه، فيتصاغر (أظْهَرَ تَصَاغُراً: تَوَاضُعاً، أَيِ النَّظَرُ إلىَ النَّفْسِ بِاسْتِصْغَارٍ تَوَاضُعاً) بها، ويُصْلِحُ ما استطاع منها، وينظر من الأُخْرَى، في محاسن الناس، فيحليهم بها، ويأخذ ما استطاع منها.

احذر، خُصُومة الأهل والولد، والصديق والضَّعيف، واحتجْ عليهم، بالحجج.

لا يُوقعنك بلاءٌ، تخلصت منه، في آخَر، لعلك أن لا تخلص منه.

الوَرِع لا يَخْدَع، والأريبُ (بصير بالأمور ذو دهاء وفطنة) لا يُخدع. ومن ورع الرَّجُل، أن لا يَقُولَ ما لا يَعْلَمُ، ومن الأرَبِ، أن يَتَثَبَّتَ فيما يعلم. وعمل الرجل، فيما يعلم أنه خطأٌ، هوًى، والهوى، آفةُ العفاف (الامْتِنَاعُ، الانْكِفَاءُ عَمَّا لاَ يَحِلُّ وَلاَ يَجْمُلُ قَوْلاً أَوْ فِعْلاً)، وتركه، العملَ، بما يعلم أنه صواب، تهاوُنٌ، والتهاون، آفةُ الدِّين، وإقدامه، على ما لا يَدْرِي، أَصَوابٌ هو، أَمْ خَطأ، جِماحٌ، والجِمَاحُ، آفة العقل.

وَقِّر من فوقك، ولِنْ لمن دُونك، وأحسِنْ مُؤاتاة (من وجهه الذي يؤتى منه) أكفائِك، وليكُن آثَرَ (آثر الشَّيءَ: فَضَّله واختاره) ذلك عندَك، مُؤاتاة الإخوان، فإنَّ ذلك، هو الذي يشهد لك، بأن إجلالك من فوقك، ليس بخضوعٍ، منك لَهمْ، وأَنَّ لينك، لمن دونك، ليس لالتماس خدمتهم.

خمسةٌ، مُفَرِّطُون، في خَمْسَة أشياء، يَنْدَمُون عليها: الواهن المفرط، إذا فاته العمل، والمنقطع من إخوانه وصديقه، إذا نابتْه النوائب، والمستمكن منه عدوه، لسوء رأيه، إذا تذكر عجزه، والمفارق الزَّوجة الصالحة، إذا ابتلي بالطالحة، والجريء على الذنوب، إذا حضره الموت.

وأمورٌ لا تصلح، إلا بقرائنها، فلا ينفع العقل، بغير ورع، ولا الحفظ، بغير عقل، ولا شِدَّة البطش، بغير شدة القلب، ولا الجمالُ، بغير حلاوة، ولا الحسب، بغير أدب، ولا السرور، بغير أَمْن، ولا الغِنى، بغير جود، ولا المروءة، بغير تواضع، ولا الخفض، بغير كفاية، ولا الاجتهاد، بغير توفيق.

وأمورٌ، هُنَّ تَبَعٌ لأمور، فالمُرُوءات كلها، تبع للعقل، والرأي، تبع للتجربة، والغبطة، تبع لحسن الثناء، والسرور، تبعٌ للأمن، والقَرَابَةُ، تبع للمودة، والعمل، تبع للقَدَر، والجِدَّةُ (حداثة)، تبع للإنفاق.

أصْلُ العَقْل التثبُّت، وثَمَرَتُه السَّلامة، وأصلُ الورع، القناعة، وثمرتُه الظفر، وأصل التوفيق، العمل، وثمرته النجاح.

لا يذكر الفاجرُ في العقلاء، ولا الكذوب في الأعِفّاء، ولا الخَذُولُ في الكُرَماء، ولا الكفورُ، بشيء من الخير.

لا تُؤَاخِيَنَّ خِبًا (الخبيث، الخداع)، ولا تَسْتَنْصِرَنَّ عاجزًا، ولا تسْتَعِينَنّ كَسِلًا.

إنَّ من أعظم، ما يُرَوِّحُ به المرءُ نَفْسَه، أن لا يجري لِما يَهْوَى، وليس كائنًا، ولا لِما لا يهوى، وهو لا محالة كائنٌ.

اغتنمْ من الخير، ما تعجَّلت، ومن الأهواء، ما سوَّفْت (ماطَلَت)، ومن النَّصَبِ، ما عاد عليك، ولا تفرح بالبطالة، ولا تجبُن عن العمل.

ومن استعظم (تكبَّر وسما بنفسه وافتخر) من الدنيا شيئًا، فبطَر (طغيان في النِّعمة)، واستصغر من الدنيا شيئًا، فتهاون، واحتقر من الإثم شيئًا، فاجترأ عليه، واغترَّ بعدو وإن قل، فلم يحذره، فذلك من ضيَاع العقل.

لا يستخفُّ ذو العقل بأحد، وأحق من لم يُستخف به، ثلاثة: الأتقياءُ، والولاةُ، والإخوان، فإنَّه مَن استخف بالأتقياء، أهلك دينَهُ، ومن استخف بالولاة، أهلك دنياه، ومن استخف بالإخوان، أفسَدَ مروءته.

ومن حَاوَلَ (أراد إدراكَها وإنجازَها) الأُمور، احتاج فيها إلى ست: الرأي، والتوفيق، والفُرصة، والأعوان، والأدبُ، والاجتهاد، وهنَّ أزواجٌ.

فالرأي والأدب، زوج، لا يكمُلُ الرأي، بغير الأدب، ولا يكمل الأدبُ، إلا بالرَّأي.

والأعوانُ والفرصة، زوج، لا ينفع الأعوان، إلا عند الفُرصة، ولا تتم الفرصة، إلا بحضور الأعوان.

والتوفيق والاجتهاد، زوج، فالاجتهاد، سبب التوفيق، وبالتوفيق، ينجح الاجتهاد.

يسلم العاقل، من عظام الذُّنوب والعيوب، بالقناعة، ومُحاسَبة النفس.

لا تجد العاقِلَ، يُحَدِّث، مَن يخاف تكذيبه، ولا يسأل، من يخاف مَنْعَهُ، ولا يَعِدُ، بما لا يجد إنجازَه، ولا يرجو، ما يُعَنَّفْ بِرجَائِه، ولا يُقْدِمُ، على ما يخاف العَجْزَ عنه.

وهو يُسَخِّي (سخِيت نفسُه عن الشَّيءِ: تركته، وتخلّت عنه) بنَفْسَه، عَمَّا يُغْبَطُ به القَوَّالون (قوال: حسن القول، كثير القول)، خروجًا من عيب التكذيب، ويُسَخِّي بنفسه، عما ينال السائلون، سلامة من مذلة المسألة،

ويُسَخِّي بنفسه، عن مَحْمَدَةِ (مَا يحمد الْمَرْء بِهِ أَو عَلَيْهِ) المواعيد (ما يُقْطَع من عهد في الخير والشرّ)، براءةً من مَذَمَّة الخُلْفِ (عدم إنجاز الوعد)، ويُسَخِّي بنفسه، عن فرَحِ الرَّجَاء، خوف الإكْدَاءِ (لم يظفر بحاجته)، ويُسَخِّيه، عن مراتبِ المُقَدَّمِين، ما يَرَى من فضائح المُقَصِّرِين.

لا عَقْلَ، لمن أغفَلَه عن آخرته، ما يجدُه من لذة دُنْيَاه، وليس من العَقْلِ، أن يَحْرِمَه حظه من الدنيا، بصَرُه بزوالها.

حاز الخير، رجُلان، سعيدٌ ومَرْجُوٌّ، فالسعيد الفالج (الفائز)، والمرجو مَنْ لم يَخْصَمْ، والفالج الصالح، ما دام في قيد الحياة، وتَعَرُّضِ الفِتَنِ، في مخاصمة الخصماء، من الأهواء والأعداء.

السعيد، يُرَغِّبه الله في الآخرة، حتى يقول، لا شيءَ غيرها، فإذا هَضَمَ (فَهِمَهَا) دُنياه، وزهد فيها لآخرته، لم يحرمْه الله بذلك، نصيبَه من الدُّنيا، ولم ينقصه، من سروره فيها، والشقيُّ، يرغبه الشيطانُ في الدنيا، حتى يقول: لا شيء غيرها، فيجعل الله، له التَّغيص (كدر العيش) في الدنيا التي آثر، مع الخزي، الذي يلقى بعدها.

والرجال أربعةٌ: جوادٌ، وبخيل، ومسرف، ومقتصد.

فالجواد، الذي يُوَجِّهُ نَصِيبَ آخِرتِهِ، ونصيب دنياه، جميعًا، في أمر آخرته.

والبخيل، الذي لا يُعطي واحدة منهما، نصيبها.

والمسرف، الذي يجمعهما، لدنياه.

والمقتصد، الذي يلحق بكل واحدة منهما، نصيبها.

وأغنى الناس، أكثرهم إحسانًا.

قال رجلٌ لحكيم: ما خيرُ ما يؤتى المرء؟

قال: غريزةُ عَقْلٍ.

قال: فإنْ لم يكن.

قال: فتَعَلُّمُ عِلْمٍ.

قالَ: فإنْ حُرِمَهُ.

قال: صدق اللسان.

قال: فإن حرمه.

قال: سكوت طويل.

قال: فإن حرمه.

قال: ميتة عاجلة.

ومن أشد عيوب الإنسان، خفاء عيوبه عليه، فإن، مَن خفي عليه عيبُه، خَفِيت عليه محاسنُ غيره، ومَن خفي عليه، عيبُ نَفْسِهِ ومَحَاسِنُ غيره، فلن يقلع عن عيبه الذي لا يعرف، ولن ينال، محاسنَ غيره، التي لا يُبْصِرُ أبدًا.

خُمُول الذكر، أجمل من الذِّكر الذميم.

لا يوجد الفَخُور محمودًا، ولا الغضوب مسرورًا، ولا الحُرُّ حريصًا، ولا الكريمُ حَسُودًا، ولا الشَّره غنيًا، ولا الْمَلُولُ (ذو ملل وضجر)، ذا إخوان.

خصال، يُسَرُّ بها الجاهل، كلها كائنٌ عليه وبالًا.

منها، أن يَفْخَرَ من العلم والمروءة، بما ليس عنده.

ومنها، أن يَرَى بالأخيار، من الاستهانة والجفوة، ما يُشْمِتُه بهم.

ومنها، أن يناقل (ناقضه، خالفه) عالِمًا وديعًا، منصفًا له في القول، فيشتد صوت ذلك الجاهل عليه، ثم يفلجه (نَصرَةٌ وَغَلَبَةٌ) نظراؤه من الجهال حوله، بشدة الصوت، وكثرة الضحك.

ومنها، أن تفرط منه الكلمة، أو الفِعْلة، المُعْجِبَةُ للقوم، فيُذْكَرَ بِها.

ومنها، أن يكون مجلسه في المحفل (مجلس)، وعند السلطان، فوق مجالس أهل الفضل عليه.

ومن الدَّليل، على سخافة المتكلم، أن يكُونَ ما يُرى من ضَحِكِه (انبسط وجهُه، وانفرجت شفتاه، وبدت أسنانُه، وأحدث أصواتًا مُتقطِّعة تعبيرًا عن سروره)، ليس على حسَبِ ما عنده من القول، أو الرجل، يكلم صاحبه، فيُجَاذبه الكلام، ليكونَ هو المتكلم، أو يتمنى، أن يكونَ صاحبه، قد فرغ وأنصت له، فإذا نَصَتَ له، لم يحسن الكلام.

وفضلٌ (زاد على حاجته) العلم، في غير الدين، مهلكة، وكثرة الأدب، في غير رضوان الله، ومنفعة الأخيار، قائدٌ إلى النار.

والحفظ الذَّاكِي (ذَكِيّ)، الواعي، لغير العلم النافع، مضر، بالعمل الصالح، والعقل، غير الوازع (زاجر ومانع)، عن الذنوب، خازنٌ الشيطان.

لا يُؤَمننَّكَ، شَرَّ الجاهلِ، قَرَابةٌ، ولا جِوَارٌ، ولا إِلْفٌ، فإن أخوَفَ ما يكون الإنسانُ، لِحَرِيقِ النار، أقربُ ما يكون منها.

وكذلك الجاهلُ، إن جاورك، أنصبَك (أتعبك)، وإنْ نَاسَبَكَ، جنى عليك، وإن أَلِفَك، حمل عليك، ما لا تُطيق، وإن عاشرك، آذاك وأخافك، مع أنه، عند الجوع، سبع ضار، وعند الشِّبَعِ، مَلِكٌ فَظٌّ، وعِندَ الموافقة في الدِّين، قائدٌ إلى جهنم.

فأنت بالهرَبِ منه، أَحَقُّ منك، بالهرب، من سُمِّ الأساوِدِ (حيَّة عظيمة، سوداء اللون)، والحريق المخوف، والدَّين الفادح، والداء العَياء.

قارِب عَدُوَّك بعض المقاربة، تنلْ حاجَتك، ولا تقاربْه كل المقاربة، فيجترئ عليك عدوك، وتَذِل نفسك، ويرغب عنك ناصرك.

ومَثَلُ ذلك، مثل العُود المنصوب في الشمس، إن أَمَلْتَه قليلًا، زاد ظِلُّهُ، وإنْ جاوزته الحد في إمالته، نَقَصَ الظل.

الحازم، لا يأمن عدوه على كل حال، إن كان بعيدًا، لم يأمن مغاورته (الإغارة)، وإن كان قريبًا، لم يأمن مُوَاثَبَتَهُ، وإنْ كان مُنكشفًا، لم يأمن استطراده وكمينه، وإن رآه وحيدًا، لم يأمن مكره.

الملك الحازمُ، يزدَادُ برأي الوزراء الحَزَمَة، كما يَزْدَادُ البحر، بمواده من الأنهار.

الظَفَرُ، بالحزم، والحزمُ، بإجالة (تداول وإمْعانُ) الرأي، والرأي، بتكرار النظر، وتحصين الأسرار.

وإن المُسْتَشِير، وإن كان أفضل، من المستشار رأيًا، فهُو يزداد برأيه رأيًا، كما تزدَادُ النار، بالوَدَكِ (دُهْن) ضوءًا، وعلى المستشار، موافقة المستشير، على صواب ما يرى، والرفق به، في تبصير خطأ، إن أتى به، وتقليب الرأي، فيما شكا فيه، حتى تستقيم لهما، مشاورتهما.

لا يَطْمَعَنَّ ذو الكِبْر، في حسن الثناء، ولا الخِبُّ (رَجُلٌ خِبٌّ: خَدَّاعٌ، خبيث)، في كثرة الصديق، ولا السيئ الأدب، في الشرف، ولا الشحيح، في المحمدة، ولا الحريص، في الإخوان، ولا الملك المعجب، بثبات الملك.

صرْعَةُ اللِّينِ، أشدُّ استئصالًا، من صرعة المكابرة.

أربعةُ أشياءَ، لا يُسْتَقَلُّ منها قليلٌ: النارُ، والمرضُ، والعَدُوُّ، والدَّيْن.

أحقُّ الناس بالتوقير، الملك الحليمُ، العالم بالأُمور، وفُرَصِ الأعمال، ومواضع الشدة واللين، والغضب والرضا، والمعاجلة والأناة، الناظرُ في

أمر يَوْمَه وغده، وعواقب أعماله.

السبب الذي يدرك به العاجز، حاجتَه، هو الذي يَحُول بين الحازم، وبين طلبته.

إن أهل العقل والكرم، يبتغون إلى كل معروف، وصلة وسبيلًا.

والمودة بين الأخيار، سريعٌ اتصالُها، بطيءٌ انقطاعُها، ومثل ذلك، مثل كوب الذَّهب، الذي هو بطيء الانكسار، هين الإصلاح.

والمودَّة بين الأشرار، سريعٌ انقطاعها، بطيءٌ اتصالها، كالكوز من الفخار، يكسره، أدنى عبث، ثم لا وصل له أبدًا.

والكريم، يَمْنَحُ الرجل مودته، عن لقية واحدة، أو معرفة يوم، واللئيم، لا يصل أحدًا، إلا عن رغبة، أو رهبة.

وإنَّ أهل الدنيا، يتعاطون فيما بينهم، أمرين، ويتواطئون عليهما، ذات النفس، وذات اليد.

فأمَّا المتبادلون، ذات اليد، فهم المتعاونون المستمتعون، الذين يلتمس بعضهم، الانتفاع ببعض، مناجزة، ومكايلة.

وما التبع والأعوان، والصديق والحشم، إلا للمال، ولا يظهر المروءة، إلا المالُ، ولا الرأي، ولا القوة، إلا بالمال، ومن لا إخوانَ له، فلا أهل له، ومن لا أولاد له، فلا ذِكْرَ له، ومن لا عَقْل له، فلا دُنيا له ولا آخرة، ومن لا مال له، فلا شيء له.

والفقرُ، داعيةٌ إلى صاحبه، مقتَ الناس، وهو مسلبة للعقل والمروءة، ومذهبة للعلم والأدب، ومَعْدِنٌ للتهمة، ومجمعة للبلايا.

ومن نَزَلَ به الفقرُ والفاقة، لم يجد بُدًّا، من ترك الحياء، ومن ذهب حياؤه، ذهب سرورُهُ، ومن ذهب سروره، مُقتَ، ومن مُقت، أوذي، ومن أوذي،

حزن، ومن حزن، فقد ذهب عقله، واستنكر حِفْظُه وفهمه، ومن أُصيب في عقله، وفهمه وحفظه، كان أكثر قولِهِ وعمله، فيما يكون عليه، لا له، فإذا افتقر الرجل، اتهمه، من كان له مؤتمنًا، وأساء به الظن، من كان يظن به حسنًا، فإذا أذنب غيره، ظنُّوه، وكان للتهمة، وسوء الظن موضعًا.

وليس من خَلَّة، هي للغني مدح، إلا هي للفقير عيب، فإنْ كان شُجاعًا، سُمِّيَ أهوج، وإنْ كان جوادًا، سمي مُفْسِدًا، وإن كان حليمًا، سُمي ضعيفًا، وإن كان وقورًا، سمي بليدًا، وإن كان لسِنًا (فصيحًا بليغًا)، سمي مِهْذَارًا (ثرثار، مَنْ يُكثر من الكلام الذي لا فائدة منه)، وإن كان صموتًا، سمي عَيِيًّا (أتى بكلام أو أمر لا يهتدى إليه ولا يفهم).

ومَن ابتُلي بمرض في جسده لا يفارقه، أو بفراق الأحبة والإخوان، أو بالغُربة، حيثُ لا يعرف مبيتًا ولا مقيلًا (مكان الراحة)، ولا يرجو إيابًا، أو بفاقة تضطره إلى المسألة، فالحياةُ له موتٌ، والموتُ، له راحة.

ووجدنا البلايا في الدُّنيا، إنما يسوقها إلى أهلها، الحِرْص والشَّرَه، فلا يَزَال صاحبُ الدنيا، يتقلب في بلية وتعب، لأنه، لا يزال، بخلة الحرص والشره.

وسمعتُ العُلماءَ قالوا: لا عقل كالتدبير، ولا وَرَعَ كالكف، ولا حَسَب كحسن الخلق، ولا غنى كالرضا، وأحق ما صُبِرَ عليه، ما لا سبيل إلى تغييره، وأفضلُ البر الرَّحمة، ورأس المودة الاسترسال، ورأسُ العقل، المعرفةُ بما يكون، وما لا يكون، وطيب النفس، حُسنُ الانصراف، عما لا سبيل إليه، وليس من الدُّنيا سرورٌ، يَعْدِلُ صحبة الإخوان، ولا فيها غم، يعدل غم فقدهم.

ولا يتم حُسن الكلام، إلا بحسن العمل، كالمريض، الذي قد علم دواء نفسه، فإذا هو لم يتداوَ به، لم يُغنه عِلْمُه.

والرَّجل ذو المروءة، قد يكرَم على غير مال، كالأسد الذي يُهاب، وإن كان عَقِيرًا (مجروح)، والرجل الذي لا مروءة له، يُهان، وإن كثر مالُهُ، كالكلب،

الذي يَهُونُ على الناس، وإن هو طُوِّقَ (أُلْبس إكْلِيلاً مِنَ الذَّهَبِ) وخُلْخِلَ (أُلْبس حِلية) .

لِيَحْسُنْ تعاهدك نفسك، بما تكون به للخير أهلًا، فإنك إذا فعلت ذلك، أتاك الخير يطلبك، كما يطلب الماء السيل، إلى الحدورة (سيلان العين بالدمع) .

وقيل في أشياء، ليس لها ثبات ولا بقاء: ظل الغمام، وخُلَّةُ الأشرار وعشق النساء، والنبأ الكاذب، والمال الكثير.

وليس يفرح العاقل، بالمال الكثير، ولا يُحزنه قلته، ولكن ماله عقله، وما قدم من صالح عمله.

إن أولى الناس، بفضل السرور، وكرم العيش، وحُسْنِ الثَّناء، مَنْ لا يَبْرَح رحلُه، من إخوانه، وأصدقائه من الصالحين موطوءًا، ولا يزال عنده منهم، زحامٌ، ويسرهم ويسرونه، ويكون من وراء حاجاتهم وأمورهم، فإن الكريم، إذا عثر، لم يستقل إلا بالكرام، كالفيل، إذا وَحِلَ لم يستخرجه إلا الفِيَلَة.

لا يرى العاقل، معروفًا صَنَعَه وإن كان كثيرًا، ولو خاطر بنفسه وعرَضَهَا في وجوه المعروف، لم ير ذلك عيبًا، بل يعلم، أنما أخطر الفاني، بالباقي، واشترى العظيم، بالصغير.

وأغبطُ الناس، عند ذوي العقل، أكثرُهم سائلًا منجحًا (النَّجَاحُ: الظَّفَرُ وإدراك الغاية)، ومستجيرًا آمنًا.

لا تعُدَّ غنيًّا، من لم يشارك في ماله، ولا تَعُدَّ نعيمًا، ما كان فيه تنغيصٌ، وسوء ثناء، ولا تعد الغُنْمَ غُنْمًا، إذا ساق غُرْمًا، ولا الغُرْمَ غُرْمًا، إذا ساق غُنْمًا، ولا تَعْتَدَّ من الحياة، ما كان في فراق الأحبة.

ومن المعونة، على تسلية الهموم، وسكون النفس، لقاءُ الأخ أخاه، وإفضاءُ كل واحد منهما، إلى صاحبه بِبَثِّهِ (أشدُّ الحزن، أو المرض، الذي لا يصبر

عليه صاحبُه، فيبُثّه)، وإذا فُرِّق بين الأليف وأليفه، فقد سلب قرَارَه، وحرم سرورُهُ.

قلَّ ما ترانا، تَخْلُفُ عَقَبةً من البلاء، إلا صرنا في أخْرَى.

لقد صدق القائلُ، الذي يقول: لا يزال الرجل مستمرًّا، ما لم يعثر، فإذا عَثَر مَرَّة واحدة، في أرض الخبار (ما لان واسترخى)، لَجَّ به العثار (الشَّرّ وَمَا عثر بِهِ)، وإن مشى في جَدَدً، لأن هذا الإنسان، موكلٌ به البلاء، فلا يزال، في تصرُّف (تصرُّفات الزَّمان: تصاريفه، نوائبه ومصائبه) وفي تقلُّب، لا يدوم له شيء، ولا يثبت معه، كما لا يدوم، لطالع النجوم طلوعه، ولا لآفلها أفوله، ولكنها، في تقلُّب وتعاقُب، فلا يزال الطالعُ، يكون آفلًا والآفل طالعًا.

الأدب الكبير

بسم الله الرحمن الرحيم

وجدنا الناس قبلنا، كانوا أعظمَ أجسادًا، وأوفر مع أجسادهم أحلامًا (عقْل، الأَناةُ وضبطُ النَّفْس)، وأشد قوة، وأحسن بقوتهم، للأمور إتقانًا، وأطول أعمارًا، وأفْضَلَ بأعْمَارِهِم، للأشياءِ اختبارًا، فكان صاحبُ الدين منهم، أبلغ في أمر الدين، علمًا وعملًا، من صاحب الدين منا، وكان صاحبُ الدنيا، على مِثْلِ ذَلكَ، من البلاغَة والفَضل.

ووجدناهم، لم يرضَوا بما فازوا به، من الفَضْلِ، الذي قُسِم لأنفسهم، حتى أشركونا معهم، فيما أدركوا، من علم الأولى، والآخرة، فكتبوا به الكتب الباقية، وكفَونا به، مؤنةَ (شدّة وثقل) التجارب والفُطُن (فطَن الأمرَ: تبيَّنه وعَلِمَه، والفطن تكفيه الإشارة).

وبَلَغ من اهتمامهم بذلك، أن الرَّجل منهم، كان يُفتح له الباب من العلم، والكَلِمة من الصَّواب، وهو في البَلَدِ غير المأهول، فيكتبه على الصخور، مبادرةً منه للأجَلِ (غاية الوقت المحدَّد لشي)، وكراهية، لأن يسقط (يغيب) ذلك على من بعده.

فكان صنيعهم في ذلك، صنيع الوالد الشَّفيقِ، على ولده، الرحيم البرِّ بهم، الذي يجمع لهم الأموال والعُقَدَ (الولاية)، إرادَةَ، ألَّا تَكُونَ عليهم، مَؤُنَةُ في الطَّلَب، وخَشْيَةَ عجزهم، إن هم طلبوا.

فمنتهى علم عالِمنا، في هذا الزَّمان، أنْ يأخذ من عِلمِهم، وغايةُ إحسان مُحْسِنِنا، أن يقتدي بسيرتهم، وأحسن ما يُصِيبُ، من الحديثِ محدثنا، أن ينظر في كُتُبهم، فَيَكُون، كأنه إياهم يحاور، ومنهم يستمع.

غَيرَ أن الذي، نجدُ في كتبهم، هو المُنْتَخَل (نخَل قضيّة: أمعن فيها بحثًا، وتدقيقًا، محصها، وتفحّصها بتروٍّ وإمعان نظر) في آرائهم، والمنتقى من أَحَادِيثهم، ولم نَجِدْهم، غَادَرُوا شيئًا، يجد واصفٌ بَليغٌ، في صِفَةٍ لهُ مقَالًا، لم يسبقوه إليه، لا في تعظيم لله عز وجل، وترغيب فيما عنده، ولا في تصغيرٍ للدنيا، وتزهيدٍ فيها، ولا في تحريرٍ (تمييزها عما تلتبس به، إنْشَاء) صنوف العلم، وتقسيم أقسامها، وتجزئة أجزائها، وتوضيح سُبُلها، وتبيين مآخذها، ولا في وجوه الأدب، وضروب الأخلاق، فلم يبق، في جليلٍ من الأمر، لِقائلٍ بعدَهم مقال.

وقد بقيَتْ أشياءُ، من لطائفِ الأُمور، فيها مواضع، لصغار الفِطَنِ، مشتقةٌ، من جِسامِ حِكَم الأولين، وقولِهم، ومن ذلك، بعضُ ما أنا كاتبٌ، في كتابي هذا، من أبواب الأدَبِ، التي يحتاج إليها الناس.

يا طالب الأدب، اعرِفِ الأُصولَ والفُصُول (أجزاء، فرع، عكسه أصل)، فإنَّ كثيرًا من النَّاس، يطلبون الفصول، مع إضاعة الأصول، فلا يكون دَرْكُهُم دركًا، ومَن أَحْرَز الأصول، اكتفى بها عن الفصول، وإنْ أَصَاب الفَصْل، بعد إحراز الأصل، فهو أفضل.

فأصلُ الأمر في الدِّين، أن تَعْتقدَ الإيمان، على الصواب، وتجتنب الكبائر، وتؤدي الفريضة، فالْزَمْ ذلك، لزومَ، من لا غنًى له عنه طرفة عين، ومن يعلم، أنه إن حُرِمَه هلك، ثم إنْ قدرت، أن تجاوز ذلك، إلى التَفَقُّه في الدين والعبادة، فهو أفضلُ وأكمل.

وأصلُ الأمر في المعيشة، ألّا تَنِيَ (ترك وأهمل، ضَعُف وفَتَر) عن طَلَب الحلالِ، وأن تُحسِنَ التَّقْدير، لما تُفيدُ (اسْتَفَادَ المالَ وغيرَه: حصَّله، اكتسبه)، وما تنفق، ولا يغُرَّنكَ من ذلك، سعةٌ تكون فيها، فإنَّ أعظم الناس في الدنيا خطرًا، أحوجُهم إلى التقدير، والملوك، أحوجُ إلى التقدير من السُّوقة (عامّة النَّاس)، لأن السوقة، قد يعيش بغير مال، والملوك، لا قوام لهم، إلا بالمال، ثُمَّ إنْ قَدَرْتَ، على الرفق واللطف، في الطلب والعلم، بالمَطالِب (الْمَسْعَى)، فهو أفضل.

وأصلُ الأمْرِ في إصلاح الجسَدِ، ألا تحْمِل عليه، من المآكل والمشارب والباه (الْجِمَاع)، إلا خُفافًا، وإن قدرت، على أن تعلم، جميع منافع الجسد، ومضارِّه، والانتفاع بذلك، فهو أفضل.

وأصل الأمر في الجودِ، ألا تضِنَّ بالحقوق عن أهلها، ثم إنْ قَدَرت، أن تزيد ذا الحق على حقه، وتطُولَ (الطول: الْفضل والغنى واليسر) على من لا حق له، فافعل، فهو أفضل.

وأصلُ الأمر في البَأس، ألا تُحَدِّثَ نفسك بالإدبار، وأصحابُك مقبلون على عدوهم، ثم إن قدرت أن تكون، أول حامل، وآخر منصرف، من غير تضييع للحذر، فهو أفضل.

وأصلُ الأمر في الكلام، أن تَسْلَمَ من السَّقَطِ، بالتحفُّظ، ثم إنْ قَدَرْت، على بارِعِ الصواب، فهو أفضل.

وأنا واعِظُكَ، في أشياء من الأخلاق اللطيفة، والأمور الغامضة، التي لو حَنَّكَتك سِنٌّ، كُنتَ خليقًا أن تعلَمَها، وإن لم تُخْبَر عنها، ولكِن، أحْببت أن أقدم إليك فيها، قولًا، لِتُرَوِضَ نَفْسَك، على محاسِنِها، قبل أن تجري، على عادة مساويها (المعايب والنقائص)، فإن الإنسان، قد تبتدر إليه، في شَبِيبَتِهِ المساوي، وقد يَغْلِبُ عليه، ما يبدُرُ إليه منها.

١ - إذا تقلدت شيئًا

إن ابتُلِيتَ بالإمارَة، فتَعَوَّذْ بالعُلَماء، واعلمْ، أن من العُجْب (كِبْر وزهو وغرور) أن يُبْتَلى الرجل بها، فيريد أن ينتقص من ساعات نَصَبِهِ (التَّعَبِ،

العَنَاءِ) وعمله، فيزيدها في ساعات دَعَتِه (يَعِيشُ فِي دَعَةٍ: فِي رَغْدِ عَيْشٍ، رَاحَةٍ، سَكِينَةٍ) وشَهْوَتِه.

وإنما الرّأيُ له، والحق عليه أن يأخذ لعمله، من جميع شُغْلِه، فيأخُذَ من طعامه، وشرابه، ونومه، وحديثه، ولهوه، ونسائه.

فإذا تقلدت شيئًا، من الأعمال، فكنْ فيه أحد رجلين، إمَّا رجلًا مُغتبطًا به، فَحَافَظَ عليه مخافة أن يَزُول عنه، وإمَّا رجلًا كارهًا، فالكاره عاملٌ في سُخرة، إمَّا للملوك، إن كانوا هم سلطوه، وإما لله تعالى، إن كان ليس فوقه غيره.

إياك إذا كنت واليًا، أنْ يكون من شأنك حُبُّ المدح والتزكية، وأنْ يَعْرِفَ النَّاسُ ذلك منك، فتكُون ثُلْمَةٍ (ثُغْرة) من الثُّلم، يَتَقَحَّمونَ (اِقْتَحَمَ، رَمَى نَفْسَهُ بِشِدَّةٍ وَقُوَّةٍ لِخَوْضِهَا) عليك منها، وبابًا، يفْتَتِحونَكَ (افتتحَ: بدأ) منه، وغِيبَة يَغْتَابونَكَ بها، ويضحكون منها.

واعلم، أن قابل المدح كمادح نفسه، والمرءُ جدير، أن يكُونَ حُبُّه المدحَ، هو الذي يحمله على رده، فإنَّ الرَّادَّ له محمودٌ، والقابل له معيب.

ولتكن، حاجتك في الولاية، إلى ثلاث خصال، رضا ربك، ورضا سُلطان، إن كان فوقك، ورضا صالحِ مَن تَلي (تَخَلَّفَ) عليه، وما عليك أن تلهى عن المال والذِّكْرِ (صيت حسن، أو سيئ، يتركه الإنسانُ بعد موته، وقيل الصِّيت والشرف)، فسيأتيك منهما، ما يكفي ويطيب، واجعل الخصالَ الثلاثَ، بمكان، ما لا بُدَّ لك منه، والمال والذكر، بمكان، ما أنت واجدٌ منه بُدًّا.

إعْرِفِ، أهلَ الدِّين والمروءة، في كل كُورَة (بقعة تجتمع فيها قرى ومحال)، وقريَة وقبيلةٍ، فيكُونوا هم إخوانَكَ، وأعوانَكَ، وبطانتك وثقاتِك.

لا يُقْذَفَنَّ في رُوعِك، أنك إن استشرت الرجال، ظهر للناس منك الحاجة إلى رأي غيرك، فإنَّك لست تريد الرأي للافتخار به، ولكن تريده للانتفاع به.

ولو أنك مع ذلك، أردتَ الذِّكر، كان أحسن الذِّكْرين، وأفضلها عند أهل الفضل والعقل، أن يُقال، لا يتفرد برأيه، دون استشارة ذوي الرأي.

إنك إنْ تلتمسْ رِضا جميع النَّاس، تلتمس مَا لا يُدْرَك، وكيف يتفق لك رأي المختلفين (أَمْرٌ مُخْتَلَفٌ فِيهِ: فِيهِ جِدَالٌ وَنِزَاعٌ)؟ وما حاجتك إلى رضا من رِضَاهُ الجور، وإلى موافقة من موافقته الضلالة والجهالة؟

فعليك بالتماس رضا الأخيار منهم، وذوي العقل، فإنك متى تصب ذلك، تضع عنك مؤنة (ذخيرة، عتاد) ما سواه.

لا تُمَكِّن أهل البَلاء من التَّذَلُّل، ولا تمكن مَنْ سِوَاهم، من الاجتراء عليهم، والعيب لهم، ولتعرف رعيتك، أبوابَكَ، التي لا يُنَالُ ما عندك من الخير إلا بها، والأبواب، التي لا يخافك خائفٌ، إلا من قِبَلِها.

إحرص الحرص كله، على أن تكون خبيرا بأمور عُمَّالك، فإنَّ المسيء، يَفْرَقُ (باعد) من خِبْرتك، قبل أن تصيبُه عقوبتك، وإنَّ المحسن، يستبشر بعلمك، قبل أن يأتيه معروفُك.

ليَعْرِف النَّاسُ، فيما يعرفون من أخلاقِك، أنكَ لا تُعاجل بالثواب ولا بالعقاب، فإن ذلك أدْوَمُ، لخوف الخائف، ورجاء الراجي.

عوّد نفسك الصَّبْرَ، على مَنْ خالفك من ذوي النَّصيحة، والتجرُّع لمرارة قولهم، وعذلهم (لَوْمِهم)، ولا تُسَهِّلن سبيل ذلك، إلا لأهْلِ العَقْل، والسِّنّ، والمروءة، لئلا ينتشر من ذلك، ما يجترئ به سفيهٌ، أو يستخف له شأن.

لا تَتْرُكَنَّ مُبَاشرة جميع أمرك، فيعود شأنك صغيرًا، ولا تُلزم نفسك مباشرة الصغير، فيصير الكبير ضائعًا.

إعلم، أن رأيك لا يتَّسع لكل شيء، ففرغه للمُهم، وأن مالك لا يغني الناس كلهم، فاختص به ذوي الحقوق، وأن كرامتك لا تُطيق العامَّة، فتوخَّ بها أهل الفضائل، وأن ليلك ونهارك لا يستوعبان حاجاتك، وإن دأبتَ فيهما،

مع حاجة جَسَدك إلى نصيبه من الدعة، فأحسن قسمتهما، بين دَعَتك، وعملك.

واعلم، أنك ما شغلت من رأيك بغيرِ المهِمّ، أزْرَى (وضع من حقه) للمُهِمّ، وما صَرَفْتَ من مالك بالباطل، فقدته، حين تُريده للحق، وما عدلت به من كرامتك إلى أهل النقص، أَضرَّ بك في العجز (عجز عن الوفاء بالتزام) عن أهل الفضل، وما شغلت من ليلك ونهارك في غير الحاجة، أزرى بك في الحاجة.

إعلم، أن من الناس ناسًا كثيرًا، يبلغ من أحدهم الغَضَبُ إذا غَضِب، أن يحمله ذلك، على الكُلوح (كلَح الشَّخصُ: عَبَس وأفرطَ في العبوس من ضيق أو حزن) والتقطيب، في وَجْه غيرِ مَن أغضبه، وسوء اللفظ، لمن لا ذنب له، والعقوبة، لمن لم يكن يَهمٌّ بعُقوبته، وسوء المعاقبة، باليد واللسان، لمن لم يكن يريد به إلا دون ذلك.

ثم، يبلغ به الرضا إذا رضي، أن يتبرع بالأمر ذي الخَطَرِ(رفيع)، لمن ليس بمنزلة ذلك عنده، ويُعطي، مَن لم يكن أعطاه، ويُكرم، من لا حق له ولا مَوَدَّة.

فاحذرْ هذا الباب كله، فإنَّه ليس أحد أسوأ حالًا، من أهل القدرة، الذين يُفرِطون باقتِدارِهِمْ (الغلبة والقوة)، في غضبهم، وسرعة رضاهم، فإنه، لو وُصِفَ بصفة، من يُتلبس بعقله، أو يتخبطه المسُّ، من يعاقِب في غضبه غير من أغضبه، ويحبو (دنا وقرب) عند رضاه غير من أرضاه، لكان جائزًا في صفته.

واعلم، أن المُلْكُ ثلاثةٌ: مُلكٌ دين، وملك حزمٍ، وملكٌ هوًى.

فأمَّا مُلكُ الدِّين، فإنَّه إذا أُقيم للرعية دينهم، وكان دينُهم هو الذي يعطيهم ما لَهم، ويُلْحِقُ بهم الذي عليهم، أرضاهم ذلك، ونَزَلَ الساخط منهم، منزلة الراضي، في الإقرار والتسليم.

وأمَّا ملك الحزم، فإنه يقوم به الأمر، ولا يَسْلَمُ من الطَّعْنِ، والتَسَخُّط (كرِه وغضِب)، ولن يضُرَّ طعنُ الذَّليل، مع حَزْمِ القوي.

وأمَّا مُلك الهوى، فلعبُ ساعة، ودمارُ دهر.

إذا كان سُلْطَانك، عندَ جِدَّةِ (كون الشيء جديدا) دَوْلَة، فرأيتَ أمرًا استقام بغير رأي، وأعوانًا جَزَوْا بغير نيلٍ (اسْتِحْقَاق، إِدْرَاك، بُلُوغ)، وعملًا أنجَحَ (صار ذا نجاح) بغير حزم، فلا يغرنك ذلك، فلا تَسْتَنِمْ إليه، فإنَّ الأمر الجديد، مما تكونُ له مهابةٌ في أنفُس أقوام، وحلاوةٌ في أنفس آخرين، ويستتب بذلك الأمر غير طويل، ثم تصير الشئون إلى حقائقها وأصولها، فما كان من الأمر، بُني على غير أركان وثيقة، ولا عماد محكم، أوشك أن يتداعى ويتصدع.

ولا تكُوننَّ نَزْرَ (نَزَرَ النَّاسَ: اِحْتَقَرَهُمْ) الكلامِ والسلامِ، ولا تُفَرِّطَن بالهشاشة (هشَّش فلانًا: فرّحه ونشَّطه) والبشاشة، فإن إحداهما من الكِبْرِ، والأخرى من السُّخْفِ.

إذا كنت لا تضبط أمرك، ولا تصول على عدوك، إلا بقوم، لست منهم على ثقة من رأي، ولا حِفاظٍ (وَفَاء، مَنْع) من نيَّة (عزم القلب على أمر من الأمور)، فلا تنفعك نافعة، حتى تحولهم إن استطعت، إلى الرأي والأدب، الذي بمثله تكون الثقة، أو تستبدل بهم، إن لم تستطعْ نقلهم إلى ما تريد، ولا تغُرَّنك قُوتك بهم، وإنما أنت في ذلك، كراكب الأسد، الذي يَهابُهُ من نظر إليه، وهوَ لِمَرْكَبِهِ، أهيبُ.

ليس للملك أن يَغْضَب، لأن القُدرة، من ورَاءِ حَاجَتِهِ (صاحب الحاجة أرعن)، وليس له أنْ يكْذِبَ، لأنه لا يقدرُ أحدٌ على استكراهه، على غير ما يُريد، وليس له أن يبخل، لأنه أقلُّ الناس عذرًا في تخوُّف الفقر، وليس له أن يكون حقودًا، لأن خطرَه قد عَظُمَ (صَعُب وشقّ) عن مجازاة (مُكَافَأَةٌ، مُعَاقَبَة) كل الناس، وليتق أن يكون حلافًا، فأحقُّ الناس باتقاء الأيمان، الملوك.

وإنما يحمل الرجل على الحلف، إحدى هذه الخلال: إما مهانةٌ يجدها في نفسه، وضَرَعٌ وحاجة إلى تصديق الناس إياه، وإما عِيٌّ بالكلام، حتى يجعل الأيمان له حشْوًا وَوَصْلًا، وإما تُهمة، قد عرفها من الناس لحديثه، فهو يُنزل نفسه، منزلة من لا يُقْبَل منه قوله، إلا بعد جهد اليمين، وإمَّا عبثٌ في القول، أو إرسال اللسان، على غير رَوِيّةً (تَظَرٌ وتفكير في الأمور)، ولا تقدير.

ولا عيب على الملك، في تعيُّشِهِ وتَنَعُّمه، إذا تَعَهَّدَ الجسيم من أمره، وفوَّض ما دون ذلك، إلى الكُفاة.

كلُّ الناس، حقيقٌ حين ينظر في أمر الناس، أن يتهم نظره بعين الريبة، وقلبه بعين المَقْتِ، فإنهما يُريان الجور، ويحملان على الباطل، ويُقبحان الحسن، ويحسنان القبيح، وأحقُّ الناس باتهام عين الريبة، وعينِ المقت، الملكُ الذي ما وقع في قلبه ربا (نشأ وعلا)، مع ما يُقيض له من تزيين القرناء والوزراء، وأحق الناس بإجبار نفسه على العدل، في النظر والقول والفعل، الوالي، الذي ما قال أو فعل، كان أمرًا نافذًا، غير مردود.

ليعلم الوالي، أن الناس يَصفُون الولاة، بسوء العهد، ونسيان الود، فليُكابد نقض قولهم، ولْيُبْطِل عن نفسه، وعن الولاة، صفات السوء، التي يُوصفون بها.

ليتفقد الوالي، فيما يتفقد من أمور الرعية، فاقة الأحرار منهم، فلْيَعْمل في سَدِّها، وطُغْيان السَّفلة منهم، فليقمعْه، وليستوحش من الكريم الجائع، واللئيم الشبعان، فإنما يصُولُ الكريمُ إذا جاع، واللئيم إذا شبع.

لا يحسدن الوالي مَنْ دُونهُ، فإنَّه في ذَلكَ، أقلُّ عُذرًا من السوقة، التي إنما تحسد من فوقها، وكلٌّ، لا عذر له.

لا يلومن الوالي على الزلة، مَنْ ليس بمتهم، على الحرص على رضاه، إلا لوم أدب وتقويم، ولا يعدلن بالمجتهد في رضاه، البصير، بما يأتي أحدًا،

فإنهما إذا اجتمعا في الوزير، أو الصاحب، نام الوالي واستراح، وجُلِّبَتْ إليه حَاجَاتُه، وإن هدأ عنها، وعَملَ فيما يهمه، وإن غفل.

لا يُولعن (يعَلِق) الوالي، بسُوء الظَّنّ، لقول الناس، وليَجْعل لحسن الظَّن من نفسه، نصيبًا موفورًا، يُروِّح به عن قلبه، ويُصْدِرُ به أعماله.

لا يُضيعنَّ الوالي التثبُّت، عندما يقُولُ، وعندما يُعْطي، وعندما يفعل، فإنَّ الرجوع عن الصَّمت، أحسنُ من الرجوع عن الكلام، وإنَّ العطية بعد المنع، أجملُ من المنع بعد الإعطاء، وإنَّ الإقدام على العمل بعد التأني فيه، أحسن من الإمساك عنه، بعد الإقدام عليه، وكلُّ الناس محتاج إلى التثبُّت، وأحوجُهم إليه، ملوكهم، الذين ليس لقولهم وفعلهم دافعٌ، وليس عليهم مستحِثٌّ (عجّل).

جِماعُ، ما يحتاج إليه الوالي، رأيان: رأي يُقَوِّي سُلْطَانه، ورأيٌ يُزينه في النَّاس، ورأي القوة، أحقهما بالبداءة، وأولاهما بالأثَرَة، ورأي التزْيين، أحْضَرُهُما حَلاوةً، وأكثرهما أعوانًا، مع أن القوة من الزينة، والزينة من القوة، لكنِ الأمر، ينسب إلى أعظمه.

٣ - إذا نزلت من ذي منزلة

إن شُغِلْتَ بصُحْبَةِ الملوك، فعليك بطول الرَّابطة (الصِلَة) في غير مُعَاتَبَة، ولا يُحدثن لك الاستئناسُ غفلة، ولا تهاونًا.

إذا رأيت أحدَهم، يجعلك أخًا، فاجعله أبًا، ثم إنْ زادك، فزدْهُ.

إذا نزلت من ذي منزلة، أو سلطان، فلا تَرَيَنَّ، أن سلطانه زادك له توقيرًا وإجلالًا، من غير أن يزيدك وُدًّا ولا نُصحًا، وأنك ترى حقًّا له التوقير والإجلال، وكن في مداراته (مُلاَيَنَتُهُ، مُلاَطفَتَهُ)، والرفق به، كالمُؤْتَنف (جديد، غير مقدر من قبل) ما قَبْلَهُ، ولا تُقَدِّر الأمر بينك وبينه، على ما كُنت تعرف من أخلاقه، فإنَّ الأخلاق مُستحيلةٌ مع الملك، ورُبما رأينا الرجل،

المُدِلّ (وثِقَ بمحبَّته فتجرَّأ عليه) على ذي السلطان بقِدَمِه، قد أضر به قِدَمُهُ.

إعلمْ، أنك واجدٌ رَغْبَتَك من الإخاء، عندَ أقوامٍ، قد حالتْ بينك وبينهم بعضُ الأبَّهَة (عظمة، كِبْر)، التي قد تعتري أهل المروءات، فتحجز منهم كثيرًا، ممن يُرغَب في أمثالهم، فإذا رأيتَ أحَدًا من أولئك قد عثر به الزمان، فأَقِلْه (أَقَلَّ الشيءَ: حمله ورفعه).

لا تعتذِرَنَّ، إلاّ، مَنْ يحب أن يجد لك عذرًا، لا تستعينَنَّ، إلاّ، بمن يحب أن يظفر لك بحاجتك.

لا تُحدثَنَّ، إلاّ من يَرَى حديثك مغنمًا، ما لم يغلبْك الاضطرارُ.

إذا غرست من المعروف غرسًا، وأنفقت عليه نفقة، فلا تَضْنَنْ بالنفقة، في تربية ما غرست، فتذهب النفقة الأولى، ضياعًا.

إذا اعتذر إليك مُعتذرٌ، فتلقَّه بوجه مُشرق، وبِشْر طليق، إلاّ، أن يكون ممن قطيعتُهُ، غنيمة.

إعلمْ، أن إخوان الصدق، هم، خير مكاسب الدُّنيا، زينة في الرخاء، وعُدَّة في الشدة، ومعونة في المعاش والمعاد، فلا تُفَرِطَنَّ، في اكتسابهم، وابتغاء الوصلات والأسباب إليهم.

إذا عرفت نفسك من الوالي، بمنزلة الثقة، فاعزل عنه كلام الملق، ولا تكثرن من الدُّعاء له في كل كلمة، فإن ذلك شبيه بالوحشة والغربة، إلا أن تكلمه على رءوس النَّاس، فلا تأتل (تقصّر)، عمَّا عظمه ووقره.

إن استطعت ألا تصحب من صحبت، من الولاة، إلا على شُعْبَة من قرابة، أو مودة، فافعل، فإن أخطأك ذلك، فاعلمْ، أنك تعمل على عمل السُّخرة، وإن استطعت أن تجعل صُحبتَك، لمن قد عرفك منهم بصالح مروءتك قَبلَ ولايته، فافعل.

إن الوَالي، لا عِلْمَ له بالنَّاس، إلا ما قد علم قبل ولايته، فأمَّا إذا ولي، فكل الناس يلقاه بالتزين والتصنع، وكلهم يحتال لأنْ يُثني عليه عنده، بما ليس فيه، غير أن الأرذَال، والأنذَال، همْ أشَد لذلك تصنعًا، وعليه مُكَابرة، وفيه تَمَحُّلًا (قوة وحِيلَةِ)، فلا يمتنع الوالي، وإن كان بليغ الرأي والنَّظر، من أن يَنزل عِنْدَه كثير من الأشرار، بمنزلة الأخيار، وكثير من الخانة، بمنزلة الأمناء، وكثيرٌ من الغدرة، بمنزلة الأوفياء، ويُغطَّى عليه أمرٌ كثير من أهل الفضل، الذين يصونون أنفسهم عن التمحُّل (احتال، التمس حيلة، سلك طرقًا ملتوية للوصول إلى الأمرِ)، والتصنع.

لا يعرفنَّك الولاةُ بالهوى، في بلدة من البلدان، ولا قبيلة من القبائل، فيوشِكَ، أن تُحْتَاجَ فيهما، إلى حكاية (ما يقص من حادثة حقيقية أو خيالية) أو مُشاهدة (مُعَايَنَة)، فتتهم في ذلك.

وإذا أردت أن يُقبل قولك، فصحح رأيك، ولا تشوبنه بشيء من الهوى، فإن الرأي يقبله منك العدو، والهوى يرده عليك الولي، وأحقُّ من احترست، من أنْ يَظُنَّ بك، خلط الرَّأي بالهوى، الولاة، فإنها خديعة، وخيانة وكُفْرٌ.

إن ابتُليت بصحبة وال، لا يُريد صلاح رعية، فاعلم، أنك قد خُيرت بين خلتين، ليس بينهما خيار، إما ميلك مع الوالي على الرعية، وهذا هلاك الدين، وإما الميل مع الرعية على الوالي، وهذا هلاك الدُّنيا، ولا حيلة لك، إلا بالموت، أو الهرب.

واعلم، أنه لا ينبغي لك، وإن كان الوالي غير مرضي السيرة، إذا علقت حبالك بحبله، إلا المحافظة عليه، إلا أن تجد إلى الفراق الجميل سبيلًا.

تَبَصَّرْ ما في الوالي من الأخلاق التي تُحبُّ، والتي تكره، وما هو عليه من الرأي، الذي يرضى له، والذي لا يرضى، ثم لا تكابره، بالتحويل له عما يحب ويكره، إلى ما تحب وتكره، فإن هذه رياضةٌ صعبة، تحمل على التنائي (التَّبَاعُد)، والقِلَى (الْبُغْض، الحِقْد).

إعلمْ، أنك قلَّمَا تقدر على رَدِّ رجل، عن طريقته التي هو عليها، بالمكابرة والمناقضة، وإن لم يجمحْ (خَرَجَ) عن السلطة، ولكنك تقدر أن تُعينه على أحسن رأيه، وتسبب له منه، وتُقويه فيه، فإذا قَوِيَت منه المحاسنُ، كانت هي التي تَكُّهُ (تقطع) عن الْمسَاوِي، وإذا استحكمتْ منه ناحيةٌ من الصواب، كان ذلك هو الذي يبصره الخطأ، بألطف من تبصيرك، وأعدَلَ من حُكْمِكَ في نفسه، فإن الصواب يريد بعضه بعضًا، ويدعو بعضه إلى بعض، فإذا كانت له مكانةٌ، اقتلع الخطأ.

لا يكوننَّ طلبك ما عند الوالي بالمسألة، ولا تَسْتَبطِئْه وإن أبطأ، ولكن اطلب ما قِبَلَه، بالاستحقاق له، واسْتأنِ (تأنَّى فلانٌ: تمهَّل، تروّى، لم يتسرّع أو يندفع) وإن طالت الأناةُ (ضبط النفس والصبر والحلم)، فإنَّك إذا استحققته، أتاك من غير طلب، وإن لم تستبطئه، كان أعجل له.

لا تُخبرنَّ الوالي، أن لك عليه حقًّا، وأنك تَعْتَدّ عليه ببلاء، وإن استطعت أن ينسى حقك، وبلاءك، فافعل، وليكن ما تذكره من ذلك، تجديدك له النصيحة، والاجتهاد، وألا يزال ينظُرُ منك، إلى آخِرٍ، يذكِّرْه أوَّلَ بلائك.

واعلم، أن ولي الأمْرِ، إذا انقطع عنه الآخرُ، نَسِيَ الأول، وأن الكثير من أولئك، أرحامُهم مقطوعةٌ، وحبالُهم مَصْرُومة (صرَم الشَّيءَ: جزَّه وقطعه)، إلا عمن رضوا عنه، وأغنَى عنهم في يومهم، وساعتهم.

إياك أن يَقَعَ في قلبك، تَعَتُّب على الوالي، أو استزادةٌ له، فإنه إن آنست أن يقع في قلبك، بدا في وجهك، إن كنت حليمًا، وبدا على لسانك، إن كنت سفيهًا، وإن لم يزد ذلك على أن يظهر في وجهك، لآمن الناس عندك، فلا تأمنن أن يظهر ذلك للوالي، فإنَّ الناس إليه بعورات الإخوان سِرَاعٌ، فإذا ظهر ذلك للوالي، كان قلبُه هو أسرع إلى التعتب، والتعزز من قلبك، فمَحَقَ ذلك حسناتك الماضية، وأشرف بك على الهلاك، وصرت تعرفُ أمرك مُستدبرًا، وتلتمس مرضاته، مستصعبًا.

إعلم، أن أكثر الناس، عَدُوًّا مجاهرًا، حاضرًا، جريئًا، واشيًا، وزير السلطان، ذو المكانة عنده، لأنه مَنفوسٌ (محسود) عليه، بما يُنْفَسُ على صاحب السلطان، ومحسودٌ كما يحسد غيره، غير أنه يُجترأ عليه، ولا يَجترئ على السلطان، لأن من مُحاسديه، أحباء السلطان، الذين يُشاركونه في المداخل والمنازل، وهم وغيرهم، من عَدُوه الذين هم حُضَّاُرهُ، ليسوا كعدو السلطان، النَّائي عنه، المُتَكَتِّم منه (أَي يَكْتُمُهَا وَيَحْتَفِظُ بِهَا وَلاَ يُذِيعُهَا)، وهم لا ينقطع طمعُهم من الظفر به، فلا يغفلون عن نصب الحبائل.

فاعرف هذه الحال، والبس، لهؤلاء القوم، الذين هم أعداؤك، سلاح الصحة والاستقامة، ولزوم الحجة، فيما تُسِرُّ وتُعلن، ثم رَوِّحْ من قَلْبك كأنه لا عدو لك ولا حاسد.

وإن ذكرك ذاكرٌ، عند وليِّ الأمر، بسوء في وجهك، أو في غيبك، فلا يَرَينَّ منك الولي، ولا غيرُه، اختلاطًا لذلك، ولا اغتياظًا، ولا يقعن ذلك موقع ما يَكْرِثك (ساء)، فإنَّه إن وقع منك ذلك الموقع، أدخل عليك أمورًا، مُشْتَبَهَةً بالريب، مُذكرة لِمَا قال فيك العائب.

وإن اضطرَّك الأمرُ في ذلك إلى الجواب، فإياك وجواب الغضب والانتقام، وعليك بجواب الحجة في حلم ووقار، ولا تَشُكنَّ، في أن القوة والغلبة، للحلم أبدًا.

لا تُحْضِرَنَّ، عند الوالي كلامًا لا يعني، ولا يُؤمر بحضوره، إلا لعنايةٍ بِه، أو يكون جوابًا، بالشيء سئلت عنه.

لا تَعُدَّنَّ شتم الوالي شتمًا، ولا إغلاظه إغلاظًا، فإنَّ ريح العز، قد تبسط اللسان، بألفاظ، في غير سخط، ولا بأس.

جانب المسخوط (سخط عليه: غضب عليه ونقم) عليه، والظنينَ (الْمُتَّهَمُ، من لا يوثق به) به، عند الولاة، ولا يجمعنَّك وإياه مجلسٌ، ولا تُظهرنَّ له عذرًا، ولا تُثنِيَنَّ عليه خيرًا عند أحد من النَّاس، فإذا رأيته قد بلغ من الإعْتاب

(رُجوعُ المَعْتُوب عليه إلى م يُرْضِي العاتِبَ)، مِمَّا سُخِطَ عليه فيه، ما ترجو أن يلين له الوالي، واستَيْقنت أنَّ الوالي قد استيقن، بمباعدتك إياه، وشدتك عليه، فضعْ عُذْرَه عند الوالي، واعملْ في إرضائه عنه، في رفق ولطف.

وليَعْلَم الوالي، أنك لا تستنكِفُ (تمتنع) عن خدمته، ولا تَدَعْ مع ذلك، أنْ تُقَدِّمَ إليه القول، عند بعض حالات رضاه، وطيبِ نَفْسِهِ، في الاستعفاء من الأعمال التي يَكْرَهُها ذو الدِّين، وذو العرض، وذو المروءة، من ولاية القتل والعذاب، وأشباه ذلك.

إذا أصبت الجاهَ والخاصَّةَ عنْدَ الملِكِ، فلا يُحْدِثَنَّ لك ذلك تغيُّرًا، على أحد من أهله وأعوانه، ولا استغناءً عنهم، فإنك لا تدري متى تَرَى، أَدْنَى جَفْوَةٍ، فَتَذِلَّ (ضعف، وهان) لهم فيها، وفي تَلَوُّن الحالِ عندَ ذلكَ، من العار ما فيه.

ليكُنْ، مما تُحْكِمُ من أمْرِكَ، ألَّا تُسارَّ (أعلمه بسِرِّه) أحدًا من الناس، ولا تهمسَ إليه بشيء تخفيه عن السلطان، فإنَّ السِّرار، مما يخيل إلى كل مَنْ رآه، أنه المراد به، فيكونُ ذلك في نفسه حَسِيكَةً (حقد، عداوة)، وَوَغْرًا (غَيظ، ضِغْن)، وثِقلًا.

لا تتهاونَنَّ، بإرسالِ الكَذْبَةِ، عندَ الوَالي أو غَيْرِه، في الهزل، فإنها تسرع في ردِّ الحق، وإبطال الصدق، مما تأتي به.

تَنَكَّب (نكب عن الشيء: عدل، مال) فيما بينك وبينَ الوالي، خُلُقًا، قد عَرَفناه في بعض الأعوان والأصحاب، في إدعاء الرجل، عندما يظهر من صاحبه، من حُسْنِ أثَرٍ، أو صواب رأي، أنه هو عَمِلَ في ذلك، أو أشارَ به، وإقراره بذلك إذا مدحه مادح، بل، وإن استطعت، أن يعرف صاحبك، أنك تنْحَلُهُ (تنسبه إليه) صوابَ رأيك، فضلًا عن أنك تدعي صوابه، وتُسْنِدُ ذلك إليه، وتزينه، فافعل، فإنَّ الذي أنت آخذ بذلك، أكثر مما أنت مُعطٍ، بأضعاف.

إذا سأل الوالي غيرك، فلا تكوننَّ أنت المجيبَ عنه، فإنَّ اسْتِلابَك الكلامَ، خفةٌ بكَ، واستخفافٌ منك بالمسئولِ والسَّائِلِ.

وما أنتَ قائلٌ، إذا قال لك السائل: ما إياك سألت؟ أو قال لك المسئول، عند المسألة، يعادُ له (صار إليه) بها، دونك فأجب؟

وإذا لم يَنْصُب (أسند) السائل، في المسألة لرجل واحدٍ، وعَمَّ بها جماعَةَ من عنده، فلا تبادرْ بالجواب، ولا تسابق الجلساء، ولا تواثب الكلام مواثبة، فإنَّ في ذلك، مع شَيْن التَّكلف والخفة، أنك إذا سبقت القوم إلى الكلام، صارُوا لكلامِكَ خُصَماء، فيتعقبونه بالعيب والطعن، وإذا أنت لم تعجل بالجواب، وخليتَه للقومِ، اعترضت أقاويلُهم على عينك، ثم تدبَّرتَها، وفكرت فيما عندك، ثم هيأت من تفكيرك، ومحاسن ما سمعت، جوابًا رضيًّا، واستدبرت به أقاويلهم، حتى تُصيخُ (أَصاخ: استمع وأَنصت) إليك الأسماع، ويهدأ عنك الخصوم.

وإن لم يبلغك الكلامُ، حتى يُكتفى بغيرك، أو ينقطع الحديث قبل ذلك، فلا يكون من العيب عندك، ولا من الغَبَنِ في نفسك، فوت ما فاتك من الجواب، فإنَّ صيانَةَ (حفظ) القول، خيرٌ من سوء وضعه، وإن كلمة واحدة من الصواب، تصيب موضعها، خيرٌ من مائة كلمة أمثالها، في غير فُرَصِها ومواضعها، مع أن كلام العجلة والبِدارِ (بادر: أسرع، سبق)، مُوكل به، الزلل وسوء التقدير، وإن ظنَّ صاحبه، أن قد أتقن، وأحكم.

واعلم، أن هذه الأمور، لا تُنال، إلا برحب الذَّرْعِ (طاقة ووُسع)، عند ما قيلَ، وما لم يُقَلْ، وقِلةِ الإعظام، لِما ظهر من المروءة أو لم يظهر، وسخاوة (جود، كرم) النفس، عن كثير من الصواب، مخافة، الخِلافِ، والعجلة، والحسد، والمِرَاء (جِدَالَ، شكّ، ارتياب).

إذا كَلَّمَك الوالي، فأصغِ إلى كلامِهِ، ولا تشغل طَرْفَكَ عنه بنظر، ولا أطْرافك بعمل، ولا قلبك بحديث نفسك، واحذر هذا من نفسك، وتعهدْ ما فيه.

إرْفُقْ، بنظرائك من وزراء السلطان ودخلائه، واتخذهم إخوانًا، ولا تتخذهم أعداء، ولا تُنافسْهم في الكلمة يتقربون بها، والعمل يُؤمَرون به.

فإنما أنت في ذلك أحد رجلين، إمَّا أن يكون عندك فضل، على ما عند غيرك، فسوف يبدو ذلك، ويحتاج إليه، ويلتمس منك، وأنت مُجْمِلٌ (معتدل)، وإمَّا أن لا يكون ذلك عندك.

فَما أنت مُصيبٌ من حاجتك عندهم، بمقاربتك وملاينتك، وما أنتَ واجدٌ في موافقتك إياهم، ولينك لهم، من موافقتهم إياك، ولينهم لك، أفضلُ مما أنت مُدركه، بالمنافسة، والمناظرة.

لا تَجْتَرِئَنَّ، على خلاف أصحابِكَ عند الوالي، ثِقَةً، باعترافهم لك، ومعرفتهم بفضل رأيك، فإنَّا قد رأينا، الناس يعرفون فضل الرَّجُل، وينقادون له، ويتعلمون منه، وهم أخْلِيَاءُ (أحباء)، فإذا حضروا ذا السلطان، لم يرض أحدٌ منهم، أن يُقِرَّ له، ولا أن يكون له عليه في الرأي والعلم فضلٌ، فاجتَرَأوا عليه بالخلاف والنَّقض.

فإن ناقضهم، كان كأحدهم، وليس بواجدٍ في كل حين، سامعًا فهمًا، وقاضيًا عدلًا، وإن ترك مناقضتهم، صار مغلوبَ الرأي، مردود القول.

إذا أصبتَ عند الوالي، لُطف منزلة، لغَنَاء، يجده عندك، أو هوًى، يكون له فيك، فلا تطمحن كل الطماح، ولا تُزينن لك نفسك، المُزَايَلَة له عن أليفه، ومَوضِع ثقته، وسِرِّه قَبْلَكَ، بأنْ تقتلعه، وتدخل دونه.

فإن هذه خلةٌ من خلال السَّفه، قد يُبتلى بها الحُلماءُ عند الدنوّ من ذي السلطان، حتى يُحدِّث الرجل منهم نفسه، أن يكون دون الأهل، والولد، لفضل يظنه في نفسه، أو نقص يظنه بغيره.

واعلم، أنه تكاد تكون لكل رجُلٍ، غالِبَةُ حديث، إمَّا عن بلد من البلدان، أو ضَرْب من ضروب العلم، أو صنف من صنوف الناس، أو وجه من وُجُوه

الرأي، وعندما يغرم به الرجل من ذلك، يبدو منه السخف، ويُعرف منه الهوى، فاجتنبْ ذلك في كل موطن، ثم عند أولي الأمر خاصة.

لا تَشْكُوَنَّ، إلى وزراء السلطان ودُخلائه، ما اطَّلعت عليه من رأيٍ تكرهه له، فإنك لا تزيد، على أن تفطِّنَهم لميله، وتغريهم، بتزيين ذلك له، والميل عليك معه.

إعلمْ، أن الرجل ذا الجاه، عند الوالي والخاصة، لا محالة أنه يرى من الوالي، ما يُخالفه من الرأي، في الناس والأمور.

فإذا آثرَ أن يكره كل ما يُخالفُهُ، أو يمتعض من الجفوة يراها في المجلس، أو النَّبْوَة (جفوة) في الحاجة، أو الرد للرأي، أو الإدناء لمن لا يهوى إدناءه، والإقصاء لمن يَكْرَه إقصاءَه، فإذا وقعت في قلبه الكراهيةُ، تغير لذلك وجهُهُ، ورأيه وكلامُهُ، حتى يبدو ذلك للوالي وغيره، وكان ذلكَ لفساد منزلته سببًا.

فذلل نفسك، باحتمال ما خالفك من رأي الولاة، وقرِّرْها بأنهم إنما كانوا أولياءك، لتتبعهم في آرائهم وأهوائهم، ولا تكلفهم اتباعَك، وتغضب من خلافهم إياك.

إعَلم، أن الملوك يقبَلون من وزرَائهم التَّبخِيل (يُرغِب البخل)، ويَعُدُّونه منهم شفقة (خوفٌ من وقوع مكروه) ونظرًا، ويحمدونهم عليه، وإن كانوا أجوادًا.

فإن كنت مُبَخِّلًا، غششت صاحبك، بفساد مروءته، وإن كُنتَ مُسَخِّيًا، لم تأمن إضرار ذلك، بمنزلتك عنده.

فالرأيُ لك، تصحيح النصيحة على وجهها، والتماسُ المخرج، فيما تترك من تبخيل صاحبك، بأن لا يعرف منك، فيما تدعوه إليه، ميلًا إلى شيء من هواك، ولا طلبًا، لغيرِ مَا ترجُو أن يزينه، وينفعه.

لا تكونَنَّ، صُحْبَتُكَ للملوك، إلا بعد رياضة منك لنفسك، على طاعتهم في المكروه عندك، وموافقتهم فيما خالفك، وتقديرِ الأُمور على ميلهم، دون ميلك، وعلى ألَّا تكتُمهم سِرَّك، ولا تستطلع ما كتموه، وتخفي ما أطلعوك عليه، من النَّاس كلهم، حتى تحمي نفسك الحديث به، وعلى الاجتهاد في رضاهم، والتلطُّف لحاجاتهم، والتثبيت لحُجَّتهم، والتصديق لمقالتهم، والتزيين لرأيهم، وعلى قلة الاستقباح لما فعلوا، إذا أساءوا، وترك الاستحسان لما فعلوا، إذا أحسنوا، وكثرة النَّشر لمحاسنهم، وحُسْن السَّتر لمساويهم، والمقاربة لمن قاربوا، وإن كان بعيدًا، والمباعدة لمن باعدوا، وإن كانوا أقرباء، والاهتمام بأمرهم، وإن لم يهتموا به، والحفظ له، وإنْ ضيعوه، والذكر له وإن نَسُوه، والتخفيف عنهم لمؤنتك، والاحتمال لهم كل مؤنة (شدّة وثقل)، والرضا عنهم بالعفو، وقلة الرضا من نفسك لهم بالمجهود.

فإن وجدتَ عنهم وعن صحبتهم غنًى، فأغنِ عن ذلك نفسك، واعتزلْه جهدك، فإنَّ من يأخُذْ عَمَلَهُم، يحول بينه وبين لذة الدنيا، وعمل الآخرة، ومن لا يأخذ بحَقِه، يحتمل الفضيحة في الدنيا، والوِزْرَ في الآخرة.

وإنك لا تأمن أنِفَهم (أنِفَ: عافَ، كره، امتنع) إن أعلمتهم، ولا عقوبتهم إن كتمتهم، ولا تأمن غضبهم إن صدقتهم، ولا تأمن سَلْوَتَهُم (هجرْ، نسيان)، إن حدثتهم، وإن لزمتهم، لم تأمَن تبرُّمَهُم بك، وإن زَايَلْتَهُمْ (فارقتهم)، لم تأمن عقابهم.

وإنك إن تَسْتَأمِرْهُم (طلب أمرَه في شيءٍ)، حَمَلْتَ المَؤنَةَ عليهم، وإن قطعت الأمر دونهم، لم تأمن فيه مخالفتهم، وإنهم إن سخطوا عليك أهلكوك، وإن رضوا عنك، تكلفت من رضاهم ما لا تُطيق.

فإن كنت حافِظًا (حافَظ على الشَّيء: رعاه وصانه، حافظ على العهد: تمسَّك به) إن بَلوْكَ، جلدًا إن قربوك، أمينًا إن ائتمنوك، تُعَلِّمُهُم وأنت تريهم أنك تتعلم منهم، وتُؤدِّبُهم وكأنهم يؤدبونك، تشكرهم ولا تكلفهم

الشكر، بصيرًا بأهوائهم، مؤثرًا لمنافعهم، ذليلًا إن ظلموك، راضيًا إن أسخطوك، وإلا، فالبعد منهم كل البعد، والحذر كل الحذر.

٣ - من تمام حُسْن الخلق والأدب

إبْذُلْ، لصديقِكَ دَمَكَ ومالك، ولمَعْرِفَتِكَ رَفْدَكَ (عطاءٌ ونصيبٌ وصلة) ومحْضَرَكَ (وجودٌ وحضور)، وللعَامَّةِ بِشْرَكَ وتَحَنُّنَكَ، ولعدوك عدلك، واضْنَنْ، بدينك وعرضك، عن كل أحد.

إنْ سَمِعْتَ من صاحبك، كلامًا أو رأيًا يعجبك، فلا تَنْتَحِلْهُ، تزينا به عند الناس، واكتفِ من التزيُّن، بأن تجتني الصواب إذا سمعته، وتنسبه إلى صاحبه.

واعلمْ، أن انْتِحَالك ذاكَ، مسَخْطة (ما يحمل على الكراهية والغضب) لصاحِبك، وأن فيه مع ذلك عارًا، فإنْ بلغ ذلك بك، أن تُشير برأي الرجل، وتتكلم بكلامه، وهو يسمع، جمعْت مع الظُّلم، قلة الحياء، وهذا من سُوء الأدب الفاشي في الناس.

ومن تمام حُسْن الخلق والأدب، أن تسخو نفسك لأخيك، بما انتحل من كلامك ورأيك، وتنسب إليه رأيه وكلامه، وتُزيّنَه مع ذلك ما استطعت.

لا يكوننَّ من خُلُقِكَ، أن تبتدئ حديثًا، ثم تقطعه، وتقول سوف، كأنك رَوَّأت (نظر فيه وتأمل ولم يتسرع) فيه بعد ابتدائه، وليكن ترويك فيه قبل التفوه، فإن احْتِجان (اقتطع) الحديث بعد افتتاحه، سخف.

إخْزُنْ (إحفظ) عقلَكَ وكلامَك، إلا عندَ إصابة الموضع، فإنَّه ليس في كل حين، يُحْسُنُ (يُعْلَمُ) كُلُّ الصواب، وإنما تمامُ إصابة الرأي والقول، بإصابَةِ الموضِع، فإن أخطَأكَ ذلك، أدْخَلْتَ المِحْنَةَ على عِلمِك، حتى تأتي به، إنْ أتيتَ به في غير موضعه، وهو لا بهاء، ولا طُلاوة (حُسْن، ورَوْنق) له.

لتَعْرِفِ العُلماء، حين تُجالِسُهُم، أنك على أن تَسْمَع، أحرصُ منك، على أن تقول.

إن آثَرتَ أن تُفاخر أحدًا، ممن تَسْتَأنِس إليه، في لهْوِ الحديثِ، فاجعل غاية ذلك الجِدَّ (الرَّصَانَةُ، الرَّزَانَةُ)، ولا تتجاوز، أن تتكلم فيه بما كان هزلًا، فإذا بلغ الجد، أو قاربه، فدعه.

ولا تخْلِطَنَّ بالجِدّ هَزْلًا، ولا بالهَزْلِ جِدًّا، فإنك إن خلطت بالجد هزلًا، هَجّنْتَهُ (هجُن الكلامُ وغيرُه: كان معيبًا مرذولاً)، وإن خلطت بالهزل جدًّا، كَدَّرْتَه (عُكِّر صفوُه).

غير أني قد عَلِمْتُ مَوْطنًا واحدًا، إن قدرت أن تستقبل فيه الجد بالهزل، أصبت الرأي، وظَهَرْت على الأقران، وذلك أن يتَوَرَّدَك (يخضر) مُتَوَرِّدٌ (متعطش)، بالسفه والغضب، فتجيبه إجابة الهازل المداعب، برُحب من الذَّرْعِ (طاقة ووُسع)، وطلاقة من الوجه، وثبات من المنطق.

إن رأيت صَاحبَكَ مع عدوِّكَ، فلا يُغْضِبَنَّكَ ذلك، فإنما هو أحد رجلين.

إن كان رجلًا من إخوان الثقة، فأنفع مواطنه لك، أقربها من عدوك، لشر يكفه عنك، وعورة يسترها منك، وغائبة يطلع عليها لك، فأمَّا صَديقُكَ، فما أغْناكَ (زيادة الشَّيء غِنًى) أن يحضَرَهُ ذو ثِقَتِكَ.

وإن كان رجُلًا من غير خاصَّةِ إخوانك، فبأي حق تقْطَعُهُ عن الناس، وتُكَلِّفُهُ ألَّا يُصاحب، ولا يجالس، إلّا من تهوى؟!

تحفَّظْ في مجْلِسِكَ وكلامِكَ، من التَّطاوُل على الأصحاب، وطِبْ نفسًا، عن كثيرٍ مما يَعْرِضُ لك فيه صوابُ القول والرأي، مُدارةً، لئلا يظن أصحابُك، أن ما بك، التطاول عليهم.

إذا أقبل إليك مُقبلٌ بوُدّهِ، فسَرَّك ألا يُدْبِرَ عنك، فلا تُنْعِمِ (تتوسع) الإقبالَ عَلَيْهِ، والتّفَتُّح لَهُ، فإن الإنسان طُبِعَ على ضَرَائِبَ (طبيعة، سجية) لؤم،

فمن شأنه أن يرحل عمن لصق به، ويلصق بمن رحل عنه.

لا تُكثِرنَّ ادعاءَ العلم في كل ما يَعْرِضُ، فإنك من ذلك بين فضيحتين.

إمّا أن يُنازعوكَ فيما ادّعَيْتَ، فيُهْجَمَ مِنْكَ على الجَهالَةِ والصَّلَفِ (التَّكَبُّرُ وَالْعَجْرَفَةُ).

وإمَّا ألا يُنازعوكَ، ويُخَلُّوا الأمور في يديك، فينكشف منك التصنُّع، والمَعْجَزَة (العَجْزُ).

اسْتَحْيِ الحياءَ كلَّهُ، من أن تخبر صاحبَك أنك عالم، وأنه جاهل، مُصَرِّحًا أو مُعَرِّضًا، وإن استَطَلْت على الأكفاء، فلا تثِقَنَّ منهم، بالصفاء.

إن آنست من نفسك فضلًا، فتَحَرَّجْ (تجنب الحرج، أي الإثم والخطيئة) أن تَذْكُرَهُ، أو تُبْدِيَه.

واعلم، أن ظُهُوره منك بذلك الوجه، يُقرر لك في قلوب الناس من العيب، أكثر مما يقرر لك من الفضل، واعلم، أنك إن صبرت ولم تعجل، ظهر ذلك منك، بالوجهِ الجميل المعروف.

ولا يخفين عليك، أن حرص الرَّجل على إظهار ما عنده، وقلة وقاره، في ذلك بابٌ من البخل واللؤم، وأن من خير الأعوان على ذلك السخاء والتكرُّمَ.

إنْ أحببت أن تَلْبَس ثَوْبَ الوَقارِ والجمال، وتَتَحَلَّى بحلية المودَّة عند العامَّة، وتسلُك الجَدَدَ (لأَرض المستوية)، الذي لا خَبَارَ (من الأرض مَا لَان واسترخى وَسَاخَتْ فِيهِ قَوَائِم الدَّوَابّ وَيُقَال فِي الْمثل من تجنب الخبار أَمن العثار) فيه، ولا عَثَار (زلّ، تعرقل في شيء)، فكن عالمًا كجاهل، وناطِقًا كَعَيِيّ، فأمَّا العلم، فيُرْشِدُكَ، وأمَّا قِلةُ إدّعائِهِ، فينفي عنك الحسد، وأمَّا المنطق، إذا احتجت إليه، فيبلغك حاجَتَكَ، وأمَّا الصّمتُ، فيكسبك المحبة والوقار.

وإذا رأيتَ رَجُلًا، يُحَدِّثُ حديثًا قد علمته، أو يخبر خبرًا قد سمعته، فلا تُشاركْه فيه، ولا تَتَعَقَبْهُ (شَكَّ فِيهِ) عليه، حرصًا على أن يعلَمَ النَّاسُ أنك قد عَلِمْتَهُ، فإنَّ في ذلك خِفَةً وشحًّا (شحا فِي الْفِتْنَة أمعن فِيهَا وَتوسع)، وسوء أدب، وسخفًا.

ليعرف إخوانُك والعامَّةُ، أنكَ إن استطعت أن تكُونَ، إلى أن تفعل ما لا تقول، أقربَ منك، إلى أن تقول ما لا تفعل، فعلت، فإنَّ فضل القول على الفعل، عار وهجنة، وفضل الفعل على القول، زينة، وأنت حقيقٌ فيما وعدت من نفسك، أو أخبرت صاحبك عنه، أن تحتجن (تُمسِك) بعض ما في نفسك، إعدادًا لفضل الفعل على القول، وتحرُّزًا بذلك، عن تقصير فعل إن قصَّرَ، وقلَّما يكون، إلا مقصرًا.

احفظ قول الحكيم الذي قال، لتكُن غايَتُك، فيما بينك وبين عدوك، العدل، وفيما بينك وبين صديقك، الرضا، وذلك أن العَدو خصمٌ تَضْرِبُه بالحُجّةِ، وتغلبه بالحُكّامِ، وأن الصديق ليس بينك وبينه قاضٍ، فإنما حَكَمُهُ رضاه.

إجعل عامَّة تشبُّثك (التَّعَلُّقُ، التَّمَسُّكُ)، في، مؤاخاة مَن تُؤاخي، ومُواصَلَة من تُواصِل، ووَطِّنْ (حَمِّلهَا عَلَى، هَيِّئهَا) نَفْسَك، على أنه لا سبيل لك، إلى قطيعة أخيك، وإن ظهر لك منه ما تكره، فإنه ليس كالمرأة التي تطلقها إذا شئت، ولكنه عرضك، ومروءتك.

فإنما مروءة الرجل، إخوانُهُ وأخْدانُهُ (أصحابه)، فإن عَثَرَ الناس على أنك قطعت رجلًا من إخوانك، وإن كُنتَ مُعْذِرًا، نزل ذلك عند أكثرهم، بمنزلة الخيانة للإخاء والمَلالِ (فتور يعرض للْإنْسَان، من كَثْرَة مزاولة شَيْء، فَيُوجب التعب، والإعراض عَنهُ)، وإن أنتَ صَبَرْت مع ذلك، على مُقَارَّتِهِ (قر في المكان: ثبت وأقام) على غير الرضا، عاد ذَلكَ إلى العَيْبِ والنَّقيصَةِ، فالاتّئادَ الاتئادَ (اِتِّئادُ خَطَواتِهِ: سَيرهُ فِي تَأَنٍّ وَتَمَهُّلٍ)، والتثبُّتَ التثبُّت.

إذا نظرت في حال من ترتئيه لإخائِك، فإن كان من إخوان الدِّين، فليكنْ فقيهًا، ليس بمُرَاءٍ ولا حَرِيصٍ (بخيل)، وإن كان من إخوان الدُّنيا، فليكن حُرًّا،

ليس بجاهل، ولا كذاب، ولا شريرٍ، ولا مَشْنُوعٍ (من شَنَعَ، شَنَعَ جَارَهُ: شَتَمَهُ، سَبَّهُ، اِسْتَقْبَحَهُ، عابَهُ، فَضَحَهُ).

فإن الجاهل، أهلٌ لأن يهرب منه أبواه، وإن الكذاب، لا يكون أخًا صادقًا، لأن الكذب الذي يجري على لسانه، إنما هو من فُضُولِ (أثار) كذب قلبه، وإنما سُمي الصديق من الصّدق، وقد يُتهم صِدقُ القَلبِ، وإن صَدَق اللسان، فكيف إذا ظهر الكذب على اللسان؟

وإن الشرير يكسبك العدو، ولا حاجة لك في صداقة تجلب العداوة، وإن المشنوع، شانع صاحبه.

تحرَّزْ، (انتبه، توقّى) من سُكْرِ السلطة، وسكر العلم، وسكر المنزلة، وسكر الشباب، فإنه ليس من هذا شيء، إلا وهو ريح جِنَّة (جنون)، تسلبُ العقل، وتُذهب الوقار، وتصرف القلب والسمع، والبصر واللسان، عن المنافع.

إعلم، أن انقِبَاضَك (إمْسَاكٍ) عَنِ النَّاس، يُكسبك العَدَاوة، وأن تَفَرُّشك (تشعّب، انبسط، وامتد) لهم، يُكْسبك صديق السوء، وفسولة (قلَّة الْمُرُوءَة وَضعف الرَّأْي) الأصدقاء، أضرُّ من بغض الأعداء، فإنك إن واصلت صديقَ السوء، أعْيَتْكَ جرَائرُهُ (جَريرة: جِناية وذنب)، وإن قَطَعْتَهُ، شانَكَ اسْمُ القَطِيعَةِ، وألزمك ذلك من يَرْفَعْ عيبَكَ، ولا ينشُرُ عُذْرَك، فإنَّ المَعايبَ تَنْمي، والمَعَاذيرَ لا تنْمي.

إلْبَسْ للناس لباسين، ليس للعاقل بُدٌّ منهما، ولا عيشَ ولا مروءة إلا بهما، لباسَ انْقباضٍ واحتجاز، تَلبَسُهُ للعامَّة، فلا تُلْفَيَنَّ (آلَفَ: آنَسَ، عَاشَرَ) إلا مُتحفظًا، متشددًا، مُتحرزًا مستعدًّا، ولباس انبساط واستئناس، تلبسه للخاصة من الثقات، فتتلقاهم ببنات صدرك، وتُفضي إليهم بموضوع حديثك، وتضع عنك مؤنة الحذر، والتحفظ فيما بينك وبينهم، وأهل هذه الطبقة، الذين هم أهلُها، قليلٌ، لأن ذا الرَّأي، لا يدخل أحدًا من نفسه، هذا المدخل، إلا بعد الاختبار، والسَّبْر، والثِّقة، بصِدْقِ النصيحة، ووفاء العقل.

إعلم، أن لسانك أداة مُغَلَّبة (غلب: إنتصر)، يتغالب عليه، عقلك، وغضبك، وهواك، وجهلك، فكلٌّ، غالب عليه، مُستمتعٌ به، وصارفه في محبته.

فإذا غلب عليه عقلك، فهو لك، وإذا غلب عليه شيءٌ من أشباه ما سميت لك، فهو لعدوك.

فإن استطعت أن تحتفظ به، فلا يكون إلا لك، ولا يستولي عليه، أو يُشاركك عدوك فيه، فافعل.

إذا نابت (أَصَابَت) أَخَاكَ، إحْدَى النَّوائب، من زوال نعمة، أو نُزُول بَلِيَّة، فاعلَم، أنك قد ابتليت معه، إمَّا بالمؤاساة، فتشاركه في البلية، وإما بالخِذْلان، فتحتمل العار.

فالتمس المخرج، عند اشتباه ذلك، وآثِرْ مُرُوءَتك على ما سواها، فإنْ نزلت الجائحة التي تأبى نفسك، مشاركة أخيك فيها، فأجْمِل (جمل الشيء: حسنه، زينه)، فلَعَلَّ الإجمال، يَسَعُكَ (وسَعَ اللهُ عليه رِزقَه: بَسَطه وكثّره وأغناه) لقلته في الناس.

إذا أصاب أخاك فضلٌ، فإنَّه ليس في دُنُوِّك منه، وابتغائِك مودَّتَه، وتواضُعِكَ له مذلةٌ، فاغتنمْ ذلك، واعمل فيه.

إذا كانت لك عند أحد صنيعةٌ، أو كان لك عليه طولٌ، فالْتَمِسْ إحياءَ ذلك، بإماتَتِهِ، وتعْظِيمَهُ، بالتَّصْغِيرِ له، ولا تقتصرن في قلة المَن، على أنْ تقول لا أذكرُهُ، ولا أصغي بسمعي إلى مَن يذكره، فإن هذا قد يَسْتَحْيْي (يستبقي للخدمة) منه، بعضُ من لا يوصَفُ بِعَقْلٍ ولا كَرَمٍ، ولكن، احذر أن يكون في مجالستك إياه، وما تُكلمه به، أو تستعينه عليه، أو تجاريه فيه، شيءٌ من الاسْتِطَالَة (تطاول، مَسّ)، فإن الاسْتِطَالَة تهدم الصّنِيعَةَ، وتُكدِّرُ (تعكّر) المعروف.

إحتَرسْ من سَوْرَةِ (شِدّة، حِدّة، هياج) الغضب، وسَوْرة الحَمِيّةِ، وسَوْرة الحقد، وسَوْرة الجهل، وأعدد لكل شيء من ذلك، عُدَّةً، تُجاهِدُهُ بها، من

الحِلمِ، والتّفَكُّرِ والرّوِيَّةِ، وذِكر العاقِبَة، وطَلَبِ الفَضِيلة.

واعلم، أنك لا تُصيبُ الغَلَبَةَ، إلا بالجِهادِ، وأن قلة الإعداد، لموافقة (الْمُصَادَقَةُ، قَبُولِ) الطبائِعِ المُتطَلّعَةِ (مُتَرَقَّبٌ إِلَى طَلْعَتِهَا)، هو الاستسلام، وأنه ليس أحدٌ، إلّا فيه من كل طبيعةٍ، سوءُ غَريزَةٍ، وإنما التفاضُلُ بين الناس، في مغالَبَةِ طبائعِ السوء.

فأمّا، أن يَسْلَمَ أحدٌ، من أنْ تكونَ فيه تلك الغرائزُ، فليس في ذلك مطمعٌ، إلا أن الرَّجل القوي، إذا كابَرَها بالقمع لها كلها، كلما تَطَلَّعَتْ، لم يَلْبَثْ أن يُميتَها، حتى كأنها ليستْ فيه، وهي في ذلك كامِنَةٌ، كُمونَ النارِ في العودِ (غُصن مقطوع)، فإذا وَجَدت قادِحًا، من عِلّةٍ، أو غفلة، اسْتَوْرَتْ (أَخرجت نارَها)، كما تُسْتَوْرَي العودِ عند القَدْحِ، ثم لا يبدأ ضَرُّها إلا بصاحبها، كما لا تبدأ النار، إلا بعودِها، التي كانت فيه.

ذَلّلْ نفسك، بالصَّبرِ على جارِ السُّوء، وعَشِيرِ السُّوء، وجليسِ السوء، فإنَّ ذلك، ما لا يكادُ يُخْطِئُك.

واعْلَمْ، أن الصبرَ صبران، صبرُ الرجل على ما يكره، وصبرُه عمّا يُحب، فالصبرُ على المكروه، أكثرهما، وأشْبَهُهُما، أن يكون صاحِبُهُ مُضْطَرًّا.

واعلَمْ، أن اللِئّامَ، أصْبَرُ أجسادًا، والكِرَام، أصبرُ نفُوسًا.

وليس الصبرُ الممدوح، بأن يكُون جِلْدُ الرَّجُل، وَقَاحًا (صلب)، أو رِجْلُهُ قوية على المشي، أو يده قوية على العمل، فإنما هذا من صفات الحمير.

ولكن، أن يكُون للنَّفْسِ غَلُوبًا، وللأمور محتملًا، وفي الضُّرِ مُتَجَمّلًا (صبَر ولم يظهر على نفسه الأسى)، ولِنَفْسِهِ، عِنْدَ الرّأيِ، والحِفَاظ (الذب، صِيَانَة، بَقَاء)، مُرْتَبِطًا (مُتَعَلّق)، وللحَزمِ مُؤْثِرًا، وللهَوَى تارِكًا، وللمَشقَةِ التي يرْجو عاقِبَتِها، مُسْتَخِفًّا، وعلى مُجاهَدَةِ الأهْوَاء والشّهَوَاتِ، مُوَاظِبًا، ولِبصرِهِ بِعَزْمِهِ مُنَفَّذاً (مَقْضِيًا).

حَبِّبْ إلى نفسك العلم، حتى تألَفَه، وتلزَمَه، ويكُونَ، هو لهوَكَ، ولذَّتك، وسَلْوتَكَ، وبُلغَتَكَ، واعلم، أن العلم علمان، علم للمنافع، وعلم لتزكية (تطهير، نماء) العقل، وأفشى (فشا: ذاع، شاع وكثُر) العلمين، وأجداهما أن ينشط له صاحبه، من غير أن يُحَضَّ عليه، علم المنافع، وللعلم الذي هو ذكاء العُقُول، وصِقالُها، وجلاؤها، فضيلة منزلةٍ، عند أهل الفضل، في الألباب (العقل).

عَوّدْ نفسَكَ السَّخاء، واعلم أنهما سَخَاءان، سَخاوَةُ نَفْسِ الرجل بما في يديه، وسَخَاوَتُهُ، عمَّا في أيدي الناس.

وسخاوة نفس الرجل بما في يديه، أكْثَرُهُما، وأقربَهُمًا، من أن تدخل فيه المُفاخَرَة، وتركه ما في أيدي الناس، أمْحَضُ (أَخْلَصَ) في التكرُّم، وأبَرَّهُ من الدَّنَسِ، فإن هو جَمَعَهُما، فَبَذَلَ وعَفَّ، فقد استكمل الجودَ والكرمَ.

لِيَكُنْ، مما تَصرِفُ به الأذى، والعذابَ عن نفْسِكَ، ألا تكونَ حسودًا، فإنَّ الحَسَدَ، خُلُقٌ لئيم، ومن لُؤمِه، أنه يُوَكَّلُ بالأدنى، فالأدنى من الأقارِبِ والأكْفاء والخُلطاء.

فليَكُنْ، ما تقابلُ به الحسد، أن تعلم، أن خير ما تكون، حين تكون مع من هو خير منك، وأنه غُنْمًا لك، أن يكون عَشيرُكَ وخليطك، أفضل منك في العلم، فتَقْتَبِسَ من علمه، وأفضل منك في القوة، فيَدْفَعَ عنك بقوته، وأفضل منك في المال، فتُفِيدَ من مالِه، وأفضل منك في الجاه، فتصيب حاجتَكَ بجَاهِهِ، وأفضل منك في الدِّينِ، فتَزْدَادَ صلاحًا بصلاحه.

لِيَكُنْ، مما تنظر فيه، من أمر عدُوِّكَ وحاسدك، أن تَعْلَمَ، أنه لا يَنفَعُكَ أن تُخبر عَدُوَّك، أنك له عدو، فتُنْذِرَهُ نَفْسَكَ، وتُؤذِنَهُ بِحرْبِكَ، قَبْلَ الإعْدَادِ والفُرْصَةِ، فتَحْمِلَهُ على التّسَلُّحِ لك، وتُوقِدَ نارَهُ عليك.

واعْلَمْ، أن أعظم خَطَرك، أن تُري عَدُوّك، أنك لا تتخذه عدوًّا، فإنَّ ذلك غِرَّةٌ له، وسبيلٌ لك، إلى القدرة عليه، فإنْ أنت قدَرْتَ، فاستطعت اغتفارًا

لعداوته، عنْ أن تكافِئَ بها، فهُنالك استكملتَ عظيمَ الخَطَرِ، وإن كنت مكافئًا بالعداوة والضرر، فإياك أنْ تكافئ عداوة السر، بعداوة العلانية، وعداوة الخاصَّة، بعداوة العامة، فإن ذلك هو الظلمُ والعارُ.

واعْلَمْ، مع ذَلك، أنه ليس كلُّ العَدَاوةِ والضَّرَرِ، يُكافَأُ بمثله، كالخيانة، لا تكافأ بالخيانة، والسرقة لا تكافأ بالسرقة، ومن الحيلة في أمرك مع عدوك، أن تصادق أصدقاءه، وتؤاخِيَ إخْوَانَه، فتدخل بينه وبينهم، في سبيل الشقاق والتجافي، فإنه ليس رجُلٌ غير ذو طَرْقٍ (ضعف العقل)، يمتنع من مُؤَاخَاتِكَ، إذَا التَمَسْتَ ذلك منه، وإن كان إخوان عدوك، ذوي طرق، فلا عدو لك.

لا تدع، مَعَ السُّكوت عن شتم عدوك، إحصاء معايبه، ومثالبه (عُيُوب)، واتباع عوراته، حتى لا يشذ عنك من ذلك صغيرٌ ولا كبيرٌ، من غير أن تُشِيعَ (أشاع الخبرَ: نشرَه وأذاعه، أعلنه وأفشاه) عليه، فيتقيك به، ويستعِدَّ له، أو تذكره في غير موضعه، فتكون كمستعرض الهواء، بِنَبْلِهِ (سِهام، نبَل الهدفَ: رماه بالسِّهام)، قبل إمكان الرمي.

لا تتخذ اللعنَ والشتم على عدوك سلاحًا، فإنه لا يجرحُ في نفس، ولا في مال، ولا دين، ولا منزلة.

إن أردتَ أن تَكُون داهِيًا، فلا تُحِبَّنَّ أن تُسَمَّى داهيًا، فإنه من عرف بالدهاء، خَاتَلَ (خادع) علانية، وحذره الناس، حتى يمتنع منه الضعيف، وإنَّ من إرْبِ (الدهاء والفطنة) الأريبِ، دفن إربه ما استطاع، حتى يُعرف بالمسامحة في الخليقة، والاستقامة في الطريقة، ومن إرْبِهِ، ألا يُؤارِبَ (غالبه فِي الدهاء وَنَحْوه) العاقلَ المُسْتقيمَ الطريقَةَ، الذي يطلع على غامض إربه، فيَمْقُته عليه.

إن أردت السلامة، فأشْعِرْ قلبك الهيبة للأمور، من غير أن تَظْهَرَ منك الهيبة، فيفطن الناس لهِيبَتِك، ويُجَرِّئُهُم عليك، ويدعو ذلك إليك منهم، كُلَّما تَهَاب.

فَاشْعَبْ (أشعب الشَّيءَ: أصلحه ولأم صَدْعَه) لمداراة ذلك، من كتمان المهابة، وإظهار الجراءة والتهاوُن، طائفة من رأيك.

وإن ابتليت بمجازاة عدُوٍّ محالف (ما لزم شيئا فلم يفارقه)، فالزم هذه الطريقة، التي وصفتُ لك، من استشعار الهيبة، وإظهار الجراءة والتهاون، وعليك بالحذر في أمرك، والجراءة في قلبك، حتى تملأ قلبك جراءة، ويَسْتَفْرِغَ (إستفرغ مجهوده في كذا: بذله كله فيه) عَمَلُكَ الحِذْرَ.

إنَّ من عدُوك، من تعمل في هلاكه، ومنهم، من تعمل في البُعد عنه، فاعرفهم على منازلهم.

ومن أقوى القُوَّة لك على عدوك، وأعز أنصارك في الغَلَبَة، أن تُحصي على نفسك العيوب والعورات، كُلَّما أحصيتها على عدوك، وتنظُر عند كل عيب تراه، أو تسمعه لأحدٍ من الناس، هل قارفت مثله، أو ما شاكله؟

فإنْ كُنت قارفت منه شيئًا، فأحصه فيما تُحصي على نفسك، حتى إذا أحصيت ذلك كله، فكابر عدوك، بإصلاح عيوبك، وتحصين عوراتك، وإحراز (حفظ) مَقَاتِلِك.

وخُذْ نفسك بذلك، مُمْسيًا مُصبحًا، فإذا آنست منها دفعًا لذلك، أو تهاونًا به، فاعْدُدْ نَفْسَك، عاجزًا، ضائعًا، جانيًا معورًا (معور من الأشياء: ما لا حافظ له) لعدوك، ممكنًا له من رميك.

وإن حصَلَ من عيوبك، بعضٌ، ما لا تقدر على إصلاحه، من أمر قد مضى، يعيبك عند الناس، ولا تراه أنت عيبًا، فاحفظ ذلك، وما عسى أن يقُول فيه قائل، من حسبك، أو مثالب آبائك، أو عيب إخوانك، ثم اجعل ذلك كله نصب عينيك.

واعلم، أن عدوك مريدك بذلك، فلا تغفل عن التهيؤ له، والإعداد لقُوَّتك وحجتك، وحيلتك فيه سرًّا وعلانية.

فأما الباطل، فلا تروعن به قلبك، ولا تستعدن له، ولا تشتغلن به، فإنّه لا يهُولُكَ ما لم يقع، وإذا وقع، اضمحل.

إعلم، أنه قلَّما بُدِهَ (بده بأمر: بدأه به) أحد بشيء، يَعْرفُه من نفسه، وقد كان يطمع في إخفائه عن الناس، فيعيره به مُعيرٌ عند السلطان أو غيره، إلا كاد يشهد به عليه وجهه، وعيناه ولسانه، للذي يبدو منه عند ذلك، والذي يكون من انكساره وفتوره، عند تلك البداهة، فاحذر هذه، وتصنع لها، وخد أهبتك، لِبَغتَاتِها.

إعلم، أن من أوقع الأمور في الدين، وأنهكها للجسد، وأتلفها للمال، وأضرها بالعقل، وأسرعها في ذهاب الجلالة والوقار، الغَرَام بالنساء.

ومن البلاء على المغرم بهن، أنه لا ينفك يأجِمُ (مَلَّ) ما عنده، وتطمح عيناه إلى ما ليس عنده منهن.

وإنما النِّساء أشباهٌ، وما يُرَى في العيون، والقلُوب، من فضل مجهولاتهن على معروفاتهن، باطل وخُدْعَةٌ، بل كثير مما يَرْغَبُ عنه الرَّاغِبُ مما عنده، أفضلُ مما تتوق إليه نفسُهُ، وإنما المترغبُ عما في رحله منهن، إلى ما في رحال الناس، كالمترغب عن طعام بيته، إلى ما في بُيُوت الناس، بل النساء بالنساء، أشبه من الطعام بالطعام، وما في رحال الناس من الأطعمة، أشدُّ تفاضلًا وتفاوتًا، مما في رحالهم من النساء.

ومن العجب، أن الرجل الذي لا بأس في لبه، يرى المرأة من بعيد، متلففة في ثيابها، فيصور لها في قلبه، الحسن والجمال، حتى تعلق بها نفسه، من غير رؤية، ولا خبر مخبر، ثم لعله يَهْجُمُ منها، على أقبح القبح، وأَدَمِّ الدمامة، فلا يعظه ذلك عن أمثالها، ولا يزال مشغوفًا بما لم يَذُق، حتى لو لم يبق في الأرض غير امرأة واحدة، لظنَّ أن لها شأنًا غير شأن ما ذاق، وهذا هو الحمق والشَّقَاءُ.

ومن لم يَحْمِ نفسه، ويظْلِفْها (ظَلَّفَهُ عَنِ السُّوءِ: أَبْعَدَهُ)، ويَجِلَّهَا (عظَّم، ضد حَقَّرَ)، عن الطَّعام والشراب والنساء في، بعض ساعات شهوته وقدرته، كان أيسَرَ ما يصيبه من وبال أمره، انقطاعُ تلك اللذات عنه، بخمود نار شهوته، وضعف عوامل جسده.

وقلَّ من تجدُ، إلا مخادعًا لنفسه، في أمر جسده، عند الطعام والشراب، والحِمْيَة والدواء، وفي أمر مروءته، عند الأهواء والشهوات، وفي أمر دينه، عند الريبة والشبهة والطمع.

إن استطعت أن تُنْزِل نفسك، دون غايتك، في كل مَجلس، ومقَامٍ ومَقالٍ، ورأي وفعل، فافعل، فإن رفع الناس إياك، فوق المنزلة التي تحط إليها نفسك، وتقريبَهم إياك، في المجلس الذي تباعدت عنه، وتعظيمهم من أمرك، ما لم تُعَظِّم، وتزيينَهُمْ من كلامك ورأيك، ما لم تُزَيِّنْ، هو الجمال.

لا يُعجبنك العالم، ما لم يكُن عالمًا، بمواضِعِ مَا يَعْلَمُ.

إن غُلِبْتَ على الكلام وقتًا، فلا تُغلَبَنَّ على السكوت، فإنَّه لعله يكون المِرَاء (جدال ونزاع، مخاصمة في الحق بعد ظهوره)، واعرفْهُ، ولا يمنعنك حذر المراء، من حُسْن المناظرة والمجادلة، واعلم، أن المُمارِيَ، هو الذي لا يحب أن يَتَعَلم، ولا يُتَعَلم منه.

إعلم، أن فضل الفعل، على القول، زينةٌ، وفضل القول على الفعل، هُجْنَةٌ.

إذا تراكمت الأعمال عليك، فلا تلتمس الرَّوْحَ (استراحة، راحة)، في مدافعتها، بالرَّوْغانِ (أنْ يَذْهَبَ هَكَذَا وَهَكَذَا) منها، فإنه لا راحة لك، إلا في إصْدَارِها (إِنْجازِها)، وإنَّ الصبر عليها، هو يُخففها، وإنَّ الضجر منها، هو يُرَاكِمُها عليك.

فتَعَهَّدْ من ذلك في نفسك، خَصْلَةً، قد رأيتها تعتري بعض أصحاب الأعمال، أن الرَّجُل يكون في أمرٍ من أمره، فيرد عليه شغل آخر، ويأتيه شاغلٌ من النَّاس، بِكِرْهِ تأخيرِه، فيُكَدّرُ ذلكَ بِنَفْسِهِ تَكْدِيرًا، يفسد ما كان

فيه، وما ورد عليه، حتى لا يحكم واحدًا منهما، فإن وَرَدَ عليك مثلُ ذلك، فليكن معك رأيك، الذي تختار به الأمور، ثم اختر أَوْلَى الأمرين بشغلك، فاشتغل به حتى تفرغ منه، ولا يعظمن عليك فَوْتُ ما فَاتَ، وتأخير ما تأخر، إذا أعملت الرأي مُعْمَلَهُ، وجعلت شُغْلَكَ في حَقِه.

إجعل، لنَفْسِك في كلِّ شيء، غايةً، ترجو القُوَّة، والتمام عليها، واعلم، أنك إن جاوزت الغاية في العبادة، صرت إلى التقصير، وإن جاوزتها في حَمل العلم، صرت من الجهال، وإن جاوزتها في تكلُّف رضا الناس، والخِفَّةِ (الطيش، زوال التعقل) معهم في حاجاتهم، كنت المُصنِع المحشودَ (يجتمع عليه ليخدم).

إعلم، أن بعض العَطِيّةِ، لؤم، وبعض البَيانِ، عِيٌّ، وبعض العلم جهل، فإنِ استطعت ألَّا يكون عطاؤك خَوَرًا (تلآشٍ، ضعف، انكسار)، ولا بَيَانُك هذرًا، ولا علمك جهلًا، فافعل.

إعلم، أنه ستمر عَليْكَ، أحاديثُ تعجِبُك، إما مليحة، وإما رائعةٌ، فإذا أعجبتك، كنت خليقًا بأن تحفظها، فإنَّ الحِفْظَ، مُوَكَّلٌ بما راع (راعه الأمر: أعجبه)، وستَحْرِصُ على أن تَعْجَبَ منها الأقوام.

فإنَّ الحِرْصَ على ذلك، التّعَجّب (عجب الشَّيْء فلَانا: استهواه واستماله) من شأن الناس، وليس كلُّ معجب لك، معجبًا لغيرك.

وإذا نَشَرْت ذلك مرة أو مرتين، فلم تره وقع من السامعين، موقعه منك، فازدجر عن العَوْد، فإنَّ العَجَبَ من غير عجيب، سخف شديدٌ، وقد رأينا من الناس، من يَعْلَقُ الشيء، ولا يقلع عن الحديث به، ولا يمنعه قلة قبول أصحابه له من أن يعود، ثم يعود.

إياك والأخبار الرَّائِعَةَ (البارزة)، وتحفَّظْ منها، فإنَّ الإنسانَ من شأنه الحرصُ على الأخبار، لا سيما ما راعَ (نما وزاد) منها، فأكثرُ الناس من يُحَدِّثُ بما سمع، ولا يبالي ممن سمع، وذلك مفسدةٌ للصدق، ومَزْرَاةٌ (مُخجِل،

مُؤسِف) بالرَّأي، فإن استطعت ألا تخبر بشيء، إلا وأنتَ به مُصَدّقٌ، وألا يكون تصديقك إلا ببرهان، فافعلْ.

ولا تَقُلْ كما يقول السفهاء، أُخْبِرُ بما سمعت، فإن الكذب، أكثر ما أنت سامع، وإن السفهاء، أكثر مَن هو قائلٌ، وإنك إنْ صِرْتَ للأحاديث واعيًا، وحامِلًا، كان ما تَعي، وتحِمل عن العامة، أكثر مما يَخْتَرِعُ المُخترِعُ، بأضْعافٍ.

انظر مَنْ صاحبْتَ من النَّاس، من ذي فضل عليك بسُلطان ومنزلة، ومن دون ذلك من الخلصاء، والأكفاء والإخوان، فوَطِّنْ نفسك في صُحبته، على أن تقبل منه العفو، وتسخو نفسُك عما اعْتاص (اشتد وخفي وصعب)، مما قِبَلَهُ، غير معاتب، ولا مستبطئ، ولا مستزيد، فإن المعاتبة مقطعةٌ للود، وإن الاستزادة من الجشع، وإن الرضا بالعفو، والمسامحة في الخلق، مُقَرِّبٌ لكَ كلَّ ما تتُوق إليه نفْسُك، مع بقاء العِرْضِ، والمودة، والمروءة.

إعلم، أنك ستُبْتَلى من أقوام، بسفه، وأن سفه السفيه، سيَطْلِعُ لك منه، فإن عارضته، أو كافأته، بالسفه، فكأنك قد رضيت ما أتى به، فاجتنبْ أن تحتذي مثاله، فإن كان ذلك عندك مذمومًا، فحقق ذمَّك إياه، بترك معارضته، فأمَّا أن تذمه وتمتثله، فليس ذلك لك.

لا تُصَاحبَنَّ أحدًا، وإن استأنست به، أخا قرابةٍ، أو أخا مودةٍ، ولا والدًا، ولا ولدًا، إلا بِمُرُوءة، فإنَّ كثيرًا من أهل المروءة، قد يحملهم الاستِرْسَال، أو التبذُّل (تَدَنَّى في سلوكه وخُلُقه)، على أن يصحبوا كثيرًا من الخلصاء، بالإدْلالِ (على غرَّة) والتهاوُن، ومن فَقَدَ من صاحبه، صُحبَةَ المروءَة، ووقارها، أحدث له في قلبه، رِقّةَ شَأنٍ، وخِفَةُ مَنْزِلة.

لا تلتمسْ غلبة صاحبك، والظَّفَرَ عليه، بكُلِّ كلمة ورأي، ولا تجترئن على تقريعه، وتبكيته بظفرك إذا استبان، وحجتك إذا وضحت، فإنَّ أقوامًا يحملهم حب الغلبة، وسَفَه الرَّأي في ذلك، على أن يتعقبوا الكلمة بعد ما

تُنْسَى، فيلتمسوا فيها الحجة، ثم يستطيلوا بها على الأصحاب، وذلك ضعفٌ في العقل، ولؤمٌ في الأخلاق.

لا يعجبنك، إكرامُ من يكرمك، لمنزلة أو سُلطان، فإنَّ السُّلطة، أوشك أمور الدنيا زوالًا، ولا يعجبنك إكرامهم إياك للنسب، فإن الأنساب، أقل مناقب الخير، غناء عن أهلها، في الدِّين والدنيا، ولكن، إذا أُكرمت على دين أو مروءة، فذلك فليعجبك، فإنَّ المروءة لا تزايلك في الدنيا، والدِّين، لا يزايلك في الآخرة.

إعلم، أن الجبن مَقْتَلَةٌ، وأن الحِرْصَ، مَحْرَمَةٌ، فانظر فيما رأيت، أو سمعت، أمَنْ قُتل في القتال مُقبِلًا أكثر، أم من قُتل مُدبِرًا؟ وانظر، أَمَنْ يطلب إليك بالإجْمَالِ (الاحسان) والتكرُّم، أحقُّ، أن تسخو إليك نفسك بِطَلِبَتِهِ، أمْ مَنْ يَطْلُبُ إليك بالشَّرَه؟

إعلم، أنه ليس كلُّ من كان لك فيه هوًى، فذَكَرَهُ ذَاكِرٌ بسوء، وذَكَرْتَهُ أنت بخير، يَنْفَعُهُ ذلك أو يضُرُّهُ، فلا يَسْتَخِفَّنَّك ذكرُ أحَدٍ، من صَديقٍ أو عدُوٍّ، إلا في موْطِن دَفع أو محاماة، فإنَّ صديقك، إذا وثق بك في مواطن المحاماة، لم يحفل بما تركت مما سوى ذلك، ولم يكن له عليك سبيلُ لائمة، وإن الأحزم في أمر عدوك، ألا تَذْكُرْه، إلا حيث يضره، وألا تعد يسير الضر، ضرًّا.

إعلم، أن الرجلَ قد يكون حليمًا، فيحملُه الحِرصُ، على أن يُقَالَ جليدٌ (قوي شديد صبور)، والمخافة، أن يقال مَهينٌ (قليل التمييز ضعيف الرأي)، على أن يتَكَلفَ الجهل، وقد يكون الرجل زميتًا (وقِرَ ورَزَنَ وَقل كَلَامه)، فيحمله الحرص، على أن يُقال لَسِنٌ (فصيحا بليغا)، والمخافَةُ، من أن يُقال عييٌ (عجز في نطقه فلم يتمكن من إظهار مراده من كلامه)، على أن يقول في غير موضعه، فيكون هذِرًا (خلط وتكلم بما لا ينبغي)، فاعرف هذا وأشباهه، واحترسْ منه كله.

إذا بَدَهَكَ أمرَانِ، لا تَدْرِي أيُّهمَا أصْوَبُ، فانظُر أيُّهما أقرَب إلى هواك، فخالفه، فإن أكثر الصواب، في خلاف الهوى.

ليجتمع في قلبك، الافتقارُ إلى الناس، والاستغناء عنهم، فيكُون افتقارُك إليهم، في لين كلمتك، وحُسْنُ بِشرِك، ويكُون استغناؤك عنهم، في نزاهة عرضك، وبقاء عزك.

لا تجالس إمْرَأً، بغير طريقته، فإنك إن أردت لقاء الجاهل، بالعلم، والجافي (جَافَى صَاحِبَهُ: عَامَلَهُ بِجَفَاءٍ، أَعْرَضَ عَنْهُ، عَادَاهُ)، بالفقه (الْفَهم والفطنة)، والعَيِّ، بالبيان، لم تزد على أن تضيع عقلك، وتُؤْذي جليسك، بحملك عليه، ثقل ما لا يعرفُ، وغمِّك إيَّاه، بمثل ما يغتم به الرجل الفصيح، من مخاطبة الأعجمي، الذي لا يفقه.

واعلم، أنه ليس من علم، تذكره عند غير أهله، إلا عادوه، ونصبوا له، ونقضوه عليك، وحَرَصُوا على أن يجعلوه جهلًا، حتى إنَّ كثيرًا، من اللهو واللعب، الذي هو أخف الأشياء على الناس، ليحضره من لا يعرفه، فيثقل عليه، ويغتم به.

ليعلم صاحبُكَ، أنكَ حَدِب (حدب عليه: عطف عليه) على صاحبه، وإيَّاك، إن عاشرك امرؤ، ورافقك، ألَّا يرى منك، بأحد من أصحابه وأخدانه، رأفة، فإنَّ ذلك، يأخُذُ من القلوب مأخذًا، وإنَّ لُطفك، بصاحِبِ صاحِبِك، أحسَنُ عندَه موقعًا، من لطفك به، بنفسه.

اتَّق الفَرَح عند المحزون، واعلم، أنه يحقد على المُنْطَلَقْ (الضاحك، المشرق)، ويَشْكُرُ لِلمُكتَئِب.

إعلم، أنك ستَسْمَع من جُلسائك، الرَّأيَ والحديث، تُنْكِرُه وتستجفيه، من محدث عن نفسه، أو عن غيره، فلا يكونَنَّ منك التكذيب، ولا التسخيف، لشيء مما يأتي به جليسك، ولا يُجرِّئنَّك على ذلك، أن تقول، إنما حدث عن غيره، فإنَّ كل مردود عليه، سيمتعض من الرَّد.

وإنْ كَان في القَوم، مَنْ تكره أن يستقر في قلبه، ذلك القول، لخطأ تخاف أن يُعْقَدَ عليه، أو مَضَرَّة تخشاها على أحدٍ، فإنَّك قادرٌ على أن تنقض ذلك في سر، فيكون أيسرَ للنقض، وأبعد للبِغْضَةِ.

واعلم، أن البِغْضَةَ خوفٌ، والموَدَّةَ أمْنٌ، فاستكثرْ من المودَّة صامتًا، فإنَّ الصمت يدعوها إليك، وناطقًا بالحسنى، فإنَّ المنطق الحسن، يزيد في ود الصديق، ويَسَلّ (ينتزع) سَخِيمَة (حِقْد، ضَغينة) الوَغْر (عداوة).

واعلم، أن خفض الصوت، وسكُونَ الرّيحِ (الوقار، والثبات)، ومشي القصد، من دواعي المودة، إذا لم يُخالط ذلك بَأوٌ (عظمة)، ولا عُجْبٌ، أمَّا العُجْبُ، فهو من دواعي المقت، والشنآن.

تعلمْ، حُسن الاستماع، كما تتعلم، حسن الكلام، ومن حسن الاستماع، إمهال المتكلم، حتى يقضي حديثه، وقلة التلفُّت (صرف إليه) إلى الجواب، والإقبال بالوَجْهِ، والنظر إلى المتكلم، والوعيُ لِما يقول.

واعلم، أن المستشارَ ليس بكفيلٍ، والرَّأي، ليس بمضمون، بل الرأي كله غَرَر، لأن أمور الدنيا، ليس شيءٌ منها بثقة، ولأنه، ليس شيءٌ من أمرها، يُدركه الحازم، إلا وقد يُدركه العاجز، بل رُبَّما أعيا الحزمة، ما أمكن العجزة.

فإذا أشار عليك صاحبُك برأي، فلم تجدْ عاقبته على ما كنت تأمل، فلا تجعل ذلك عليه لومًا، وعذلًا، تقول: أنتَ فعلت هذا بي، وأنت أمرتني، ولولا أنت، ولا جَرَم لا أُطيعُك، فإنَّ هذا كله ضَجَرٌ (تبرّم)، ولؤم وخفة.

وإن كُنت أنت المشير، فعَمِلَ برأيك، أو تَرَك، فبدا صوابُك، فلا تمنن، ولا تكثرن ذكره، إنْ كَان في نجاح، ولا تَلُم عليه، إن كان استبان في تركه ضررًا، تقول: ألم أقُل لك؟ ألم أفعل؟ فإنَّ هذا مجانبٌ، لأدب الحكماء.

إعلم، فيما تُكلم به صاحبك، أن مما يهجن صواب ما تأتي به، ويُذهب بهجته، ويُزري بقبوله، عجلتك في ذلك، أن يفضي إليك بذات نفسه.

ومن الأخلاق السيئة على كل حال، مغالبة الرَّجل على كلامه والاعتراض فيه، والقطع فيه.

ومن الأخلاق التي أنت جدير بتركها، إذا حَدَّثَ الرَّجُلُ، حديثًا تعرفه، ألَّا تُسابقه إليه، وتفتحه عليه، وتُشاركه فيه، حتى كأنك تُظْهِر للنَّاس، بأنك تُريد أن يَعْلَمُوا، أنك تعلم من مثل الذي يعلم، وما عليك أن تُهَنِّئَهُ بذلك، وتفرده به؟ وهذا الباب من أبواب البُخل، وأبوابه الغامضة كثيرة.

وإذا كنت في قوم، ليسوا بُلغاء، ولا فصحاء، فدع التطاوُل عليهم، في البلاغة، أو الفصاحة.

إعلم، أن بعض شدة الحذر، عونٌ عَليْكَ، فيمَا تَحذَرُ، وأن بعض شدَّة الاتقاء، تدعو إليك، ما تتقي.

إن رأيتَ نَفْسَك، تصاغَرَتْ إليها الدنيا، ودعتك إلى الزهادة فيها، على حال، تَعَذّرٍ منها عليك، فلا يغرنك ذلك من نفسك، على تلك الحال، فإنها ليست بزهادة، ولكنها ضَجَرٌ (تبرُّم)، واستحذاء (طلب عطاء)، وتغير نفس، عند ما أعجزك من الدنيا، وغضب منك عليها، مما الْتَوَى (صعُب وعسُر) عليك منها، ولو تَمَّمْتَ على رفضها، وأمسكت عن طلبها، أوشكتَ أن ترى من نفسك، من الضجر والجزع (خاف، إضطرب، لم يصبر على ما حل به)، أشدَّ من ضجرك الأول بأضعاف، ولكِنْ، إذا دعتك نفسك إلى رفض الدُّنيا، وهي مُقبلة عليك، فأسرع إجابتها.

إعرف عورتك، وإياك، أن تُعَرِّض (صَار هدفا) بأحد، فيما شاركها (شابهها)، وإذا ذُكِرَتْ من أحد خليقته، فلا تناضل عنه، مناضلة المدافع عن نفسه، فتُتَّهم بمثلها، ولا تلح كل الإلحاح، وليكُن ما كان منك، من غير اختلاط (اِلْتِبَاس)، فإنَّ الاختلاط، من مُحقِّقَات الرِّيب، وإذا كُنت في جماعة قوم أبدًا، فلا تَعُمن، جيلًا من النَّاس، أو أمَّة، بشتم ولا ذم، فإنك لا تدري، لعلك تتناول بعض أعراض جلسائك، ولا تعلم، ولا تَذُمّنّ مع ذلك، اسمًا من أسماء الرجال، أو النِّساء، بأنْ تقول: إنَّ هذا لقبيحٌ من الأسماء، فإنَّك لا

تدري، لعل ذلك موافقٌ لبعض جلسائك، في بعض أسماء الأهلين، والحرم، ولا تستصغرن من هذا شيئًا، فكله يجرح في القلب، وجرحُ اللسان، أشد من جرح اليد.

إعلم، أن النَّاس، يخدعون أنفُسَهم، بالتَّعْرِيض (تَلْمِيح) والتَّوقيع (توهم الشيء) بالرِّجال، في التماس مثالبهم ومساويهم، وكل ذلك أبينُ عند سامعيه، من وَضَحِ الصّبحِ، فلا تكوننَّ من ذلك في غرور، ولا تجعلنَّ نفسك من أهله.

وإني مُخبرك، عن صاحِبٍ، كان أَعْظَم الناس في عيني، وكان رأسُ ما أعْظَمَهُ عِنْدِي، صِغَرَ الدُّنيا في عينه.

كان خارجًا من سُلطان بطنه، فلا يشتهي ما لا يجد، ولا يكثر إذا وجد.

كان خارجًا من سُلطان فَرْجِهِ، فلا يدعُو إليه مؤنة (ثقل، شدة)، ولا يَستخِفّ (حمله على الخلاعة) له رأيًا ولا بَدَنًا.

كان خارجًا من سلطان الجَهَالة، فلا يُقْدِمُ، إلا على ثقة، أو منفعة.

كان أكثرَ دهره صامتًا، فإذا قَالَ، بَذَّ (سبق) القائلين.

كان يُرى مستضعفًا، فإذا جاء الجِدُّ، فهو الليث عاديًا.

كان لا يدخل في دعوى، ولا يشترك في مِراءٍ، ولا يُدْلي بحجة، حتى يجد قاضيًا عدْلًا، وشهُودًا عدولًا.

كان لا يلوم أحدًا، على ما قد يكون، العُذْرُ في مِثْلِهِ، حتى يَعْلَمَ، ما اعْتِذَارُه.

كان لا يَشْكُو وجعًا، إلا إلى من يرجو عنده البرء (الشفاء والعافية بعد سقم)، ولا يصحب إلا من يرجو عنده النَّصيحة.

كان لا يتبرم، ولا يتسخط، ولا يتشهى، ولا يتشكى، ولا ينتقم من الوالي، ولا يغفل عن العَدُوِّ، ولا يخصُّ نفسه، دُون إخوانه، بشيء من اهتمامه، بحيلته، وقُوته.

فعليك بهذه الأخلاق، إن أطقت، ولن تطيق، ولكنَّ، أخذ القليل، خير من ترك الجميع، وبالله التوفيق.